# التاريخ والعلم

للدكتور جورج طعمة

ميز العلماء بين معنيين للفظة « التاريخ » : سجل الحوادث الماضية او الحوادث ذاتها وغالباً مايقع التباس بين المعنيين . فنحن حين نتحدث عن تاريخ أمة قد نعني اما سرد حوادث ماضي هذه الامة او قد نعني هذه الحوادث بالذات . كذلك حين نتحدث عن حياة انسان فرد قد نعني سيرة حياته المكتوبة او الحوادث والتجارب التي مر فيها وتسلسلها . و «التاريخ» معنى اوسع من المعنيين السابقين عندما تشمل اللفظه كل ماوقع لابالنسبة لحوادث العالم الطبيعي فحسب بل عندما تتضمن كل ماكان عرضة للتغير (١) .

---

(١) مقالة « تاريخ » ( Hiotory ) في الموسوعة البريطانية ، Shotwell J. I

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد تعرض التاريخ اكثر من أي علم آخر من العلوم الانسانية لتفسيرات متباينة ومتباعدة في احيان كثيرة . فقد عنت الكلمة اليونانية المقابلة لـ Historia في البــدء كل معرفة مكتسبة بواسطة البحث والتحري . ثم اكتسبت في ما بعد بين المؤرخين اليونانيين معنى نتائج التاريخ وانتقلت بهذا المعنى الى اللاتينية واللغات المشتقة عنها . ونجد ان لفظة Historia قد عنت في القرن السابع عشر مجموعة من المعطيات التاريخية . وشاع استعمالها بهذا المعنى في القرن التحقيق الثامن عشر . وأما في القرن التاسع عشر فقد رجح المؤرخون والفلاسفة الالمان استعمال لفظة Ge schichte الالمانية محل Historia لتدل على الوقائع الانسانية وتطورها . والفارق إذن بين اللفظتين هو ان التشديد في اللفظة الالمانية هو على الحادث بالذات . وفي اللفظة اللاتينية هو على الجهــد من أجل استعادة الحادث أي التأريخ (١) .

## متى ابتدأت كتابة التاريخ بالمعنى العلمي ؟

يذهب يوري Bury الى ان اليونان هم أول من كتب التاريخ العلمي لأنهم طبقوا النقد على المواد التاريخية . ويذهب اللورد اكتون Lord Acton الى ان علماء النهضــة الاوروبية ( الرينسانس ) هم الذين كانوا أول من فعل ذلك .

والحقيقة ان ابن خلدون كان اول من نظر الى التاريخ كعلم مستقل له نهجــه وقواعده ومبادؤه ـ أو كما يقول ـ «وقانونه في تمييز الحق من الباطل في الاخبار والصدق من الكذب بوجــه برهاني لا مدخل للشك فيه . وحينئذ فاذا سمعنا عن شيء من الأحوال الواقعة في العمران علمنا ماتحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه وكان ذلك لنا معياراً صحيحاً يتحرى به المؤرخون الصدق من الكذب . وكأن هذا علم مستقل بنفسه فانه ذو موضوع وهو العمــران البشري والاجتماع الانساني وذو مسائل وهي بيان مايلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد اخرى وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان أو عقلياً . وكأنه علم مستنبط النشأة ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة ماأدري الغفلتهم عن ذلك وليس الظن بهم أو لعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل الينا . » (٢) ومع أن علماء الغرب اجالاً في القرن التاسع عشر

---

(١) ( بركلي ١٩١٦ ) ص - ، Teggart F. J و Prolegomena to History ص ١٦٩ - ١٧٠ .

(٢) المقدمة - المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة . ( لم تعط سنة النشر ) ص ٣٧ - ٣٨ .

لم يقروا بهـــذا السبق العلمي لابن خلدون غير أن الصورة قد تغيرت في القرن الذي نحن فيـــه لاسيما بعد أن ترجمت المقدمـــة للفرنسية أولاً ثم للانكليزية ووضعت دراسات عن ابن خلدون عرفت الغرب به . فتوينبي يقول عنه : « لقد وضع ابن خلدون في مقدمته الاسس العلمية لفلسفة في التاريخ هي دون ريب اكبر عمل من نوعه ابتدعه عقل بشري في أي زمان أو مكان » (١) ويقول جورج سارتون: « لم يكن ابن خلدون اكبر مؤرخ في العصور الوسطى ولكنه بين اول فلاسفة التاريخ وأول من وضع مانسميه اليوم بأسس التحقيق التاريخي » (٢) وجاء في القرن السابع عشر فيكو Vico الايطالي ( ١٦٨٨ ـ ١٧٤٤ ) فكان أول من تساءل في الغرب كما تساءل من قبله ابن خلدون عن عدم وجود علم للتاريخ الانساني ووضع قواعد لمثل هذا العلم . لكنه عاش مغمورا في عصره فلم يتنبه العلماء اليه الى ان كان القرن التاسع عشر ـ وهو عصر الاحياء التاريخي ـ فاكتشف فيكو من جديد وبعثت مؤلفاته .

والمهم في الأمر ان نلاحظ ان القول ببداية جديدة للتاريخ يرافق ابدا ودائماً كل يقظة للفكر النقدي . وواضح ايضا ان هذا التشديد على القول ببداية للتاريخ انما يقوم به علماء يوحدون بين التاريخ وبين البحث النقدي . واما الذين يجعلون بداية التاريخ مجرد التأليف فيه فانهم يرجعونه لاقدم العصور حين وضعت الملاحم الشعرية الكبرى كالالياذة لهوميروس التي روت قصص الابطال ومغامراتهم الخارقة الى جانب ابسط الحوادث (٣) .

واذا كنا نعنى هنا باظهار المنهج التاريخي العلمي فطبيعي أن نتساءل ماهي مقومات هذا المنهج وماهي عناصره ؟ ماهو منطق علم التاريخ ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يقول برنهايم : « علم التأريخ هو ذلك العلم الذي يتحرى ويعرض، في مضمون من العلية النفسية والطبيعية ، وقائع تطور الافراد في الزمان والمكان في صفتهم الفردية والجماعية ، وفي مجهودهم الذي يمثلهم كافراد وكجماعات » ويذهب هنري بير Henri Berr الى تعريف ابسط لعلم التاريخ فيقول : ان موضوع التاريخ هو دراسة تطور المجتمعات البشرية في الزمان والمكان(٤) ويشدد الذين يأخذون بالتعليل التاريخي الشامل لكروتشه على اهمية دراسة الماضي لفهم الحاضر معتبرين ان الماضي هو نقطة الانطلاق لكل عمل عقلي وانه لايمكن فهم الحاضر دون فهم الماضي .

---

(١) ( لندن ١٩٥٠ ) ص X Issowir Chales , An Arab Philosophy of History

(٢) المصدر ذاته . ص X

(٣) المصدر السابق ص ١٧٢ Teggart , J . I

(٤) ( نيويورك ١٩٥٥ ) Lord Acton . Essays on Freedom and Power ص ٣٦ .

لكن الماضي لايكون المعطيات المباشرة الاصلية التي يتناولها المؤرخ بالدراسة . والحوادث التي يصفها ويفسرها لايمكن له ان يلاحظها مباشرة أو أن تكون موضع اختبار من قبله . وانما يتم التوصل للماضي بواسطة تفسير الآثار الدالة عليه كالسير والأخبار وتواريخ حياة الافراد والمذكرات والوثائق العامة والقصص الذي يرويه الثقاة والآثار المختلفة من ابنية وادوات أو أية آثار اخرى حتى بقايا اناس ماتوا قبل مئات أو آلاف السنين . فواضح اذن ان طبيعة بعض الأشياء يجب ان تعرف معرفة تامة في الحاضر قبل ان يشرع الباحث بدراسة الماضي . ومعرفة الماضي ككل معرفة اخرى يمكن ان تتم بواسطة الاستدلال والاستنتاج والبرهان والاعتماد على المواد الدالة عليه . اما الأحكام التي يتم التوصل اليها والقيمة البرهانية لهذه الاحكام فتقررها مبادىء التفسير والتأويل . وهذا كله يستوجب تطبيق قواعد الطريقة العلمية في التاريخ كتطبيقهـا في العلوم الطبيعية (١) . اما اذا كان بوسع علم التأريخ ان يصل الى احكام كالأحكام التي تتوصل اليها العلوم الطبيعية والرياضية فهذا ماسنعود اليه في مابعد .

ان اول مراحل العمل التأريخي العلمي هو تحديد الحقبة من التاريخ التي يريد المؤرخ ان يتناولها بالدراسة . ثم ان ينتخب ضمن ذلك الدور احداثاً يعتبرها على غاية من الاهمية . وعندما ينتخب المؤرخ مثل هذا الدور ويوقف جهده على دراسته وحده فهذا يتضمن من مثله افتراض ان الحوادث التي يدرسها ضمن زمان ومكان معينين انما تمكن دراستها دون اشارة قليلة للحوادث الاخرى او انها تقع على درجة من الاهمية تفوق غيرها بكثير . وكل من هذه الافتراضات التي تدفع بالمؤرخ لانتقاء حوادث معينة تعتمد على نظريات في التكوين الاجتماعي والسلوك الانساني توجه دراسة الباحث وتؤثر على نتائجه . ومن هنا اهمية الفرضية Hypothesis في البحث العلمي التاريخي . (٢)

وتتضح اهمية دور تأثير الفرضية في التحقيق التاريخي اذا عرضنا المراحل التي يجتازها العمل العلمي التاريخي . وهذه يمكن اجمالها في اربع مراحل :

١ — البحث في صحة الوثائق التي يعتمدها المؤرخ لدراسته ، وهذا يتناول أصلها وتداولها والتثبت من هوية واضعيها اومؤلفيها ومميزاتهم وصلاحيتهم لوضعها .

٢ — البحث في معنى الاحكام الواردة في هذه الوثائق . وهذا يتناول لغتها واهدافها والاطار الاجتماعي التي وضعت فيه او انبثقت عنه .

(١) ( لندن ١٩٤٦ ) ص ٢٢٨ Collin gwood R. G , The Idea of History

(٢) ( باريز ١٩٣٣ ) ص - Sée H , Science et philosophrie de l'histoire
١١٦ — ١١٧

٣ — البحث في صحة الاحكام المستقاة من الوثائق وفي ماذا كان يمكن الاعتماد عليها لاستقاء معلومات منها عن الماضي . وتتصل هذه المرحلة اتصالا شديدا بالمرحلة الاولى طالما ان صحة وثيقة من الوثائق انما يتوصل اليها بواسطة المعلومات الواردة اليها والعكس بالعكس .

٤ — البحث في تفسير الحوادث الماضية والعلائق المنتظمة بين مختلف الاحكام التي يمكن التوصل اليها والتي بالاستناد اليها يمكن ان نكون فهما للماضي وصورة كاملة عنه وتأويلا لمختلف حوادثه ووقائعه .

ان كل مرحلة من المراحل يمكن تناولها بالبحث المسهب المفصل مع امثلة في التحقيق التاريخي العلمي تعتبر فتوحا علمية في ذاتها ، ولكننا سنقتصر على ابرزها لاعطاء فكرة عما يمكن ان يتعرض المؤرخ له وما يجب ان يتنبه اليه . (١)

١ — صحة الوثائق التاريخية واصالتها : لما كانت النسخ الاصلية للكثير من الوثائق القديمة قد فقدت اوضاعت في حالات كثيرة فمن المهم ان نعرف في ماذا كانت النسخ التي بين ايدينا — والتي هي بدورها نسخ عن النسخ — هي صورة صحيحة صادقة عن الوثائق الاصلية فان كان بين ايدينا نسخة واحدة فقط يكون من الصعب ان نقرر في ماذا كان النساخ قد بدلوا عرضاً او عن تعمد بعض مقاطع فيها . واذا كان محتوى احدى المخطوطات او وثيقة ما او كتاب اومصدر من اي نوع واضحاً لاتناقض بين اجزائه فاذا وجدنا فقرة فيه نفترض انها ترجع لخطأ النساخ . اما اساس هذا الافتراض فهو مانعتمده في خبرة النساخ المعاصرين . واما تصحيح الاخطاء الذي يتم فهو يعتمد على فرضيات حول المزايا الخاصة الوثيقة او المصدر موضع البحث . فالازمنة المغلوطة مثلا التي قد ترد في وثيقة من الوثائق ، يمكن اكتشافها بالاستناد الى معلومات اخرى حول الدور الذي وضعت الوثيقة فيه ، مما يؤدي بالنتيجة الى اكتشاف الاخطاء او التزوير .

ARCHIVE

واما ان كان بين ايدينا اكثر من نسخة واحدة لوثيقة اومصدر واحد فيمكن مقارنتها مع بعضها لاكتشاف مابينها من فوارق . ويفترض عامة ان نسخا متعددة لوثيقة واحدة اذا تكررت فيها اخطاء واحدة في مواضع واحدة فاما ان تكون قد نقلت عن بعضها او عن مصدر واحد مشترك . وعندما تتم مقارنة نسخ مستقلة عن بعضها ترجع لكاتب واحد من اجل التوصل

---

(١) Cohen M, R and Nagel E. A, An Introduction to Logic and Scientific Method . ( نيويورك ١٩٣٦ ) . ص ٣٢٣ - ٣٢٥ .

لشكلها الاصلي فيمكن الاعتماد على دراسة اسلوب الكاتب وتحليل منهجه وطريقة تفكيره في مؤلفات اخرى له . (١)

٢ — البحث في تأليف الوثائق ودقتها وتنسيها : ان تحليل وثيقة من الوثائق لفهم معناها وتحديد ماين اقسامها من تناقض او تباين قد يؤدي الى اكتشاف اكثر من كاتب واحد لها . واكبر مثال على ذلك النتائج التي توصل العلماء اليها عن طريق « النقد العالي High criteiom » أي نقد نصوص الكتاب المقدس من اجل معرفة كتابها وازمنة ووضع مختلف اقسامها . فقد أدى هذا النقد الى اكتشاف فوارق في الاسلوب وتناقض في الروايات عن الحادث الواحد وتباين في الاوامر التي يفترض انها من مصدر واحد مما جعل الأخذ بالنظرة الحرفية القائلة ان كل كلمة وكل نقطة في النصوص المقدسة هي وحي الهي حرفي امراً في غاية الصعوبة .

ذلك ان الناس كانوا يعتقدون جيلا بعد جيل ان الكتب الخمسة الاولى من التوراة ( تكوين ، خروج ، لاويين ، عدد ، تثنية ) كتبها كلها النبي موسى مع ان مثل هذا القول لايرد في التوراة ذاتها . ولكن حين طبقت على هذه النصوص مقاييس البحث العلمي التي استعملت في دراسة فرجيل وهو ميروس ووثائق القرون الوسطى ثبت بما لا يدع مجالا للشك ان الامر خلاف ذلك . فالباحث مثلا يجد في الفصلين الاولين من سفر التكوين روايتين مختلفتين عن خلق العالم ، وروايتين مختلفتين عن الطوفان الكبير . وحاول المفسرون من أهل التقليد تفسير التباين بالاعتماد على رمزية الكلمات واعطائها معاني خفية غير معانيها الظاهرة من اجل اثبات وحدة النصوص المقدسة وعدم تناقضها . لكن جهودهم ذهبت عبثا ، ذلك انهم وجدوا أن الله يسمى في بعض الفصول « يهوى » وفي بعضها الآخر « الوهيم » . وعندما فصلت النصوص على أساس الاسماء المعطاة لله تبين ان كل رواية من الروايتين تشكل بحد ذاتها رواية كاملة متماسكة مع بعضها . وبين كل من الروايتين تباين في الاسلوب الانشائي ونمط المعالجة والتفكير . وعلى هذا الاساس ميز العلماء على التدريج المصادر التي جمت اسفار موسى الخمسة منها . اما اقومها فأناشيد كاناشيد ومع وموسى ودبيورا المتضمنة على الاقل في اربعة نصوص متميزة عن بعضها يمكن تقصيها في النص الواحد الموجود بين ايدينا . وثبت ان اسفار موسى الخمسة الاولى بصورة عامة انما هي مجموعة مركبة ومنقحة من اجزاء ثلاث كتابات تاريخية ومن يد رابعة متأخرة لم يكن ما اضافته اليها بالقليل فكأنها كانت المنقح الاخير لاسفار موسى الخمسة الاولى بكاملها . وهذه المصادر تعرف الآن بالوهيم او اويهوى اوي . والأول سجل للحوادث . اما الثاني فمكتوب بلهجة النبوة . وسفر التثنية — وتغلب عليه الصفة القانونية — هو من عمل الراهب المنقح الذي عاش في عصر

(١) المصدر ذاته . ص ٣٢٩ .

متأخر جداً هو القرن الخامس قبل الميلاد . لكن هنالك تناقضات اساسية بين كتابات المصادر الاربعة كالتي اشرنا اليها عن روايتي الخليقة والطوفان في الاصحاحين الاول والثاني من سفر التكوين بحيث يستحيل عندما يحكم الانسان على الامر بالمنطق ومقاييس العقل ان يعتقد ان القصتين يمكن ان تكونا صحيحتين في آن واحد (١) .

كان من نتائج هذا التحقيق التاريخي العلمي انــه اصبح يستحيل بالنسبة لمن اخذوا باحكامه ان يحافظوا على الاعتقاد بان التوراة وحي حرفي لفظي بمعنى ان الله املاها على الكتاب الذين كتبوها وهو الموقف التقليدي . وادى هذا بدوره لا الى عقلية جديدة من حيث النظر الى أمور الدين والدنيا وحقيقة النبوات فحسب — وهي نظرة بدلت مع مر السنين اوضـــاع الناس ونظراتهم واعتقاداتهم — وانما كان من نتائجها ايضاً من حيث التحري التاريخي ان الناس لم يعودوا ليقرأوا في النصوص معاني غير موجودة فيها او ان يفرضوا عليها تفسيرات وتأويلات اضطرتهم اليها قيود الاعتقادات التقليدية . واصبحت هذه المعرفة الجديدة تتفق اكثر مع معرفتنا للتاريخ العام . ولم يبق للناس مناص من الاعتقاد بان الكتاب المقدس يتضمن اساطير الشعب العبراني الاولى واختباراته واكتشافاته الروحية المتأخرة خـــلال فترة طويلة من الزمن . وان النظرة السلفية التقليدية الى الكتاب المقدس على انه قطعة واحدة وعلى انه بجميع اقسامه واحد من حيث الوحي والقيمة انما هو امر مستحيل .

٣ — البحث في صحة الاحكام المستقاة من الوثائق : قبل الحصول على أية معلومات عن الماضي بالاعتماد على المصادر وثائق كانت أم نقوشاً لابد من أن نحدد بدقة اولاً مضمون هـــذه المعلومات . ويقتضي هذا اول مايقتضيه معرفة اللغة التي كتبت بها الوثائق او حفرت بها النقوش. فشامبليون انفق عدداً من السنين يحلل اللغة الهيروغليفية قبل ان يتمكن من قراءة النقوش الفرعونية التي اكتشفها اثناء حملة نابليون على مصر . لكن مهمة المؤرخ الناقد لاتقف عند هـــذا الحد بل يتوجب عليه بعد ان يكتشف معنى اللغة التي جاء بها النص ان ينفق جهداً كبيراً لكي لايعكس اعتقاداته السابقة على مضمون مايقرأ بل ان يتجرد عنها . وان يتخذ في هذه المرحلة التحليلية من العمل التأريخي موقف العالم الذي يضع عينيه على المجهر ليكتشف حقائق ويصفها كما تقع تحت ناظريه وبتجرد تام عن نزعاته الشخصية وانفعـالاته وميوله وعواطفه . مثلاً ان التفسيرات المتناقضة التي نجدها لعدد من الكتب الكلاسيكية القديمة ، ناشئة بالضبط عن هذه النظرة المنحرفة التي يقتضي الاحتراس منها . فتفسير كبار المفكرين والفلاسفة مثلا كان على الاغلب مجالاً لعرض المفسر آراءه

---

(١) Randall J. H تكوين العقل الحديث . ترجمة جورج طعمة . الجزء الثاني . بيروت ١٩٥٨ . ٢٣٩ - ٢٤١ .

أكثر من سعيه للتقيد تقيداً موضوعياً بالنص الذي يقرؤه . وهنا لايمكن ان يتحقق بمجرد الاعتماد على معرفة اللغة . فما يذهب اليه العهد القديم مثلا او افلاطون وارسطو او العهد الجديد لايمكن البت فيه قبل ان نعرف الخصائص الدقيقة لكل لغة من اللغات التي كتبت هذه الاصول بها ، ونوع الجمهور الذى وضعت من أجله وخصائص نفسية الشعب الذي نشأ هذا التراث فيه والاسلوب الادبي عند واضعيه ونمط تفكيرهم ثم نقابل بين هذا كله وبين التفسيرات والاحكام التي نبحث في صحتها .

ولا تقل مهمة المؤرخ صعوبة حين يحاول التيقن من صحة حوادث الماضي بالاعتماد على المصادر والوثائق فضلاً عن صحة الاحكام حولها او دقة تفسيراتها المتأخرة . أما القياس المستعمل بصورة عامة للوصول الى مثل هذه النتائج فهو الاتفاق بين ثقاة مستقلين معروفين عاصروا الحادثة الواحدة وكتبوا عنها . ولذلك كان لابد للمؤرخ الناقد ان يتثبت من هوية الكتاب اصحاب المصادر التي يستقي معلوماته منها وصلاحيتهم في نقل مايروون . لأن ميزات الكاتب والمناسبات التي كتب فيها ومن اجلها ما كتب تشكل كلها عوامل هامة لتقرير فيما اذا كان يجوز لنا اعطاء أي وزن للكتابات التي نعتمد عليها . فهل الحوادث التي يصفها كتاب في عصر واحد تتفق مع مبادىء العلوم الطبيعية ان كانت طبيعية ؟ وهل تتفق مع ماهو معروف من علم النفس والسلوك الانساني ان كانت لها علاقة بهذه العلوم ؟ هل الحوادث الدقيقة نتائج يمكن التثبت منها في الحاضر والمستقبل ؟ ثم حتى لو شهد عدد من الثقاة المعروفين بصحة حادث من الحوادث وباستقلال بعضهم عن بعض فان شهاداتهم لاقيمة لها اذا ثبت ان الحادث يناقض المعرفة العلمية الثابتة . ويجب على المؤرخ المدقق في حالة اصطدامه بروايات متناقضة ان يترفع عن اتخاذ موقف وسط ظناً منه انه يخدم الحقيقة في اتخاذه مثل هذا الموقف . فالحقيقة العلمية اما ان تكون ثابتة او غير ثابتة وهذا يقتضي اعادة النظر مرة بعد أخرى قبل البت بحقيقة نهائية . أما ان لم يستطع المؤرخ التوصل الى مثل هذه الحقيقة او كان في شك منها فعليه الاعتراف في حالة العجز .

## العلوم الموصلة

يعتمد المؤرخ العالم في هذه المراحل كلها على عدد من العلوم تدعى بالعلوم الموصلة ، نذكرها بايجاز وهي التالية : ( Chronology ) او فن تقسيم الوقت الى ازمنة محدودة وغايته ان يمد المؤرخ بالوسائل التي تساعده بسرعة على أن يصنف الازمنة النسبية للحوادث ضمن ازمنة مطلقة . ( Epigraphy ) فن فك الرموز المحفورة . ( Paleography ) فن قراءة المخطوطات . ( Diplomatics ) فن حل الكتابات السياسية القديمة وذلك بتطبيق اصول النقد العلمي على

الوثائق من مراسلات ومستندات وسجلات وما اشبه ذلك . ( Sphragistics ) فن دراسة الاختام والطوابع . ( Numiomatics )فن دراسة النقود وتحليلها ويتجه هذا الفن اكثرفاكثر لأن يصبح علما ويساعد بصورة خاصة بالتعرف على صور الملوك والامراء المحفورة على النقود وتواريخهم وتحديد بعض التفصيلات العائدة لدور معين ، وهذا الفن قسم اساسي من التاريخ الاقتصادي . ( Genealogy ) علم الانساب . ( Heraldics ) فن دراسة الشعائر والاعلام العائدة للاسر الحاكمة .

تلك كانت اهم العلوم الموصلة المعروفة حتى القرن السابع عشر . غير ان تطور العلم التاريخي مالبث ان اضاف علوما مساعدة جديدة تختلف من حيث طبيعتها وشمولها وهي : ( Classical Philology ) دراسة الكتاب القدماء دراسة لغوية ادبية فكرية والتثبت من اصولهم وتفسير هذه الاصول . ( Historical Bibliography ) فن دراسة المخطوطات التاريخية وكان يهدف اولا الى حصر وتعداد افضل الكتب حول اهم ادوار التاريخ او مشاكل التاريخ العام . ( Antiquities ) جمع الآثار القديمة هذا الجمع عندما اخذ علماء اختصاصيون يقومون به ادخلوا في التأريخ فن تذوق الآثار الفنية والتذوق التام للأصول غير المكتوبة . ( Philologicol Historical geogtaphy )الجغرافيا التاريخية اللغوية غايتها التعرف على الأسماء القديمة للشعوب والامكنة التي عاشوا فيها وحدودها . هذه الفنون كان المؤرخون يكتفون بها عندما **كان التاريخ مقتصرا على تاريخ الممالك والملوك في ازمنة وامكنة محدودة** . لكن هذا الاطار قد تبدل تدريجياً بتبدل نطاق التاريخ وبظهور علوم موصلة جديدة . ومن اول العلوم الموصلة التي تضاءلت قيمتها او بطل الاعتماد عليها علم الانساب Genealogy الذي كان يعطيه المؤرخون القدماء مكانة عالية . وحل محله فن احصآت الصحة والمرض والسكان Demogrophy مما يساعد على التوصل الى نتائج جديدة حول علم نشأة الانسان . وهنالك عدد من العلوم الاخرى المستقلة التي يصبح عندما يعتمد عليها المؤرخ في عداد العلوم الموصلة كعلوم اللغات مثلا Linguistics وما يتصل بها . وعلم الآثار والجغرافيا وعلم النفس وعلم الاجتماع والقانون المقارن وغيرها من مثل هذه العلوم التي يزداد عددهاباستمرار ويستعين بها التأريخبصورة متزايدة . وكلما اصبح التاريخ علما اكثر فأكثر فانه يدخل في علائق اوثق مع العلوم الاخرى فلو اخذنا مثلا علم الاجتماع لوجدنا ان تكتل الافراد في مجتمعات بشرية يخلق موضوعاالدراسة جديدة تهدف لأن تحددتحديدا واضحا الوقائع الاجتماعية الرئيسية التي ادت الى قيام مؤسسات اجتماعية سياسية واقتصادية وحقوقية . لكن مثل هذه الدراسة الاجتماعية لايمكن ان توضع بصورة « سابقة للاختبار »

Apriori كأن تستنتج عقليا من الحاجات والرغبات الاجتماعية عند الفرد ولا معنى لها بالنسبة الانسان منفرد لانها لاتكتسب معنى الا ضمن الجماعة ، فمثل هذه الدراسات الاجتماعية لابد لها ان توضع في اطار الزمان والمكان وان تربط بتطور وقائع ومؤسسات معينة . وواضح ان بين هذه الابحاث العلمية من جهة والابحاث التاريخية من جهة اخرى، علاقات وثيقة واعتماد متقابل مشترك . فعالم الاجتماع يسعى جاهدا بواسطة الدراسات المقارنة لأن يستخلص العوامل الضرورية الفاعلة في تطور الدراسات الاجتماعية ولأن يصنف النماذج الاجتماعية ويصفها ولأن يفرق بين ماهو ثابت فيها وبين ماهو متحول متغير . اما المؤرخ فيستعمل المعطيات والنتائج التي يتوصل اليها العالم الاجتماعي لكي يوضح بتفصيل اوسع دور العامل الاجتماعي في تكوين التاريخ ، مفرقا بين العوامل الضرورية القسرية وبين العوامل الفردية الخلاقة .

كذلك يلعب علم النفس دوره في الدراسات التاريخية ، ونخطىء لو حسبنا ان علم النفس يتناول الفرد وان علم الاجتماع يتناول الجماعة فحسب ، فبين الظواهر الجماعية توجد اموركالوراثة والتقليد والعدوى واساسها نفسي فردي . وعلى العكس تؤثر في الضمير الفردي عوامل جماعية كثيرة . وكما توجد صفات فردية توجد صفات جماعية تدرس في علم النفس الجماعي . واذن فعلم النفس الذي يعنى بدراسة الفرد لايمكن له ان يتناسى علم النفس الجماعي الذي يتوقف على تقدمه تحديد أي تطور حاسم في التاريخ . ان معرفة الانسان صانع التاريخ لايمكن ان تتم دون الاعتماد اعتمادا وثيقا على علم نفس يقدم للمؤرخ نماذج عامة من الاشكال الانسانية . (١)

٤ — تفسير الماضي وتأويله على اساس فلسفة شاملة وهي المرحلة الاخيرة من مراحل البحث العلمي التاريخي والتي يمكن القول انها تتوج عمل المؤرخ ، وهذه المرحلة ضرورة في العمل التاريخي تفرضها الاعتبارات التالية :

كل علم من العلوم يتعرض لاخطاء قد تظهر في نتائج العلم . لكن امكانية الخطأ في العلوم الاجتماعية هي اكبر من غيرها . فدراسة المجتمعات البشرية دراسة معقدة التراكيب متشعبة النواحي معقودة الظواهر يدخل فيها العديد من العوامل والمؤثرات المتفاعلة بعضها ببعض الى حد بعيد جداً . ومهما اتصف العالم بالتجرد والاتزان وعدم الانحياز فانه يصعب عليه التخلص من عشرات المؤثرات فيه الموروثة او المكتسبة . ويصعب عليه ان يتخلص دائماً من اعتقاداته الخاصة بتأثير العوامل الاقتصادية او الدينية او الفكرية التي كان لها اثر ما في تطور المجتمعات ، او ان

(١) مقالتا « التاريخ » في كل من الموسوعة البريطانية وموسوعة العلوم الاجتماعية . راجع ايضاً الدكتور اسد رستم . مصطلح التاريخ . بيروت . ١٩٣٩ ص ٧ - ١٤ .

يتجرد عن التأثيرات الخفية التي يخضع لها على شعور منه او غير شعور والتي تمودلولاءاته المختلفة كقوميته أو دينه او وضعه الاجتماعي او موقفه العقائدي ، او التي تتسرب اليه من محيطه التقليدي الذي نشأ فيه ، او التي تنعكس كلها في الحياة العامة التي يعيش في جوها ويتفاعل تفاعلاً حياً مع مختلف مؤثراتها .

ازاء هذه العوامل ينبغي على المؤرخ ان يعتمد على الفكر النقـدي وان يتميز بعدم الانحياز . والمثل الأعلى للمؤرخ العالم هو ان يتصف بالحياد والهدوء وان يقف من الحوادث التي تمت في الماضي كما يقف العالم الطبيعي امام تجربة يتابعها في المختبر ، او كما يراقب العالم الفلكي كوكباً وراء المنظار . وبدون هذا الحياد فان العالم يخرج نفسه من حظيرة العلم . وليس الخطأ الذي ينبغي الاحتراس منه هو مايمكن اكتشافه عن وعي وشعور بل اكثر من ذلك الانحراف اللاشعوري الذي يقع المؤرخ فيه حين يظن انه ابعد مايكون عنه .

والسبيل لتحقيق هذا الحياد هو في توسيع نطاق التاريخ وفي احلال فكرة التاريخ الكلي الشامل محل التواريخ الجزئية التي تكون فصولاً من التاريخ الكلي وتفسير الحوادث الجزئية على اساس نظرة كونية شاملة . ذلك ان الهدف النهائي للمؤرخ لا ان يعرف فصولا او ادواراً معينة في التاريخ وان يتحيز لها وانما ان يعرف الانسانية بكاملها وفي جميع المظاهر والاشكال التي افصحت فيها عن ذاتها وان يقابل بينها وبين الدور الذي انصرف لدراسته .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اضف الى ذلك ماسبق ان اشرنا اليه من ان على المؤرخ بالضرورة ان ينتخب مواده وان يحدد دوراً يتناوله بالدرس دون غيره . ويصعب ان يكتب تاريخ يتناول كل ناحية من موضوع واحد . فقد يدرس مؤرخ تفاصيل حياة الاشخاص الذين لعبوا ادواراً رئيسية في حقبة من الزمن. ويدرس آخر نزعاتهم السياسية. ويتناول ثالث العوامل الاقتصادية او الاجتماعية ورابع الطقوس الدينية وهكذا . لكن كل ناحية من هذه النواحي تهيء لنا زاوية ننظر منها لدور معين، وكل منها هي بالضرورة جزئية . وعندما ينتخب مؤرخ مواده او ادواره التي يدرسها فهو كما قلت متأثر بالضرورة باعتبارات واهتمامات وعقائد فلسفية خاصة. والنتائج التي يتوصل اليها قد تكون جدلية ومثاراً لاعتراضات كثيرة .

لكن التنظيم الكلي الشامل للدراسات التاريخية هو الذي يمكن من تحقيق هذا الهدف . وكل عمل تاريخي يجب ان يكون مساهمة لمعرفة تاريخ المجتمعات البشرية باعتبارها كلاً واحداً وانه صحيح بمقدار مايساعد على المعرفة الشاملة للانسانية بكاملها. ان المعرفة بالجزئيات لايجوز بل يجب الا تنسينا المعرفة بالكليات ، والعكس صحيح ايضاً . والمعرفة الحق هي التي تجمع الأمرين معاً .

والغاية من التشديد على النظرة الكلية الى جانب الجزئية هي خلق شعور واع بالوحـدة الانسانية والهدف النهائي لعلم التأريخ .

هكذا تنشأ على التدريج الافكار المنظمة للعـلم التأريخي من اخضاع النظرة الفردية الى الاتجاه العام ومن التنظيم الداخلي للعمل . وهي عوامل تكون قسماً ذاتياً لكل عمل علمي وتدخل البحث والكتابة في التاريخ بحيث تكفل تحويله التدريجي لعلم شاخص بوسائله واهدافه وتحل بالنتيجة مشكلة رئيسة هي حياد المؤرخ وموضوعيته والى اي حد يمكن أن يكون ايجابيا بناء مساهما في حقل المعرفة التي يخدمها .

التاريخ ضمن دائرة مقفلة عمل قاصر . والمؤرخ الذي لايستطيع ان يخرج من دائرة انانيته يصبح كمن يعيش في قوقعة لاينفذ اليها النور . والتأريخ يمكن ان يصبح علـــما بمقدار مايرتفع من مرحلة الوصف الى مرحلة التفسير .

لقد تحدثنا ايضا عن الشعور بضرورة اعادة كتابة التاريخ الذي يظهر بين حين وآخر ويرافق يقظة الفكر النقدي والاسباب لذلك كثيرة فمنها اكتشاف وثائق جديدة أو آثار جديدة أو اكتشاف استنتاجات خاطئة من مؤرخين سابقين أو اكتشاف علاقات جديدة لم تلاحظ من قبل أو تطبيق مبادىء من العلم الطبيعي لم تعرف أو تستعمل في مامضى ـ كل هذه الامور قد تساعدنا على اعادة بناء الماضي بطريقة جديدة موجهة .

ومن الواضح ان الحوادث تتكاثر بنسبة تكاثر الاشخاص . وهذه الحوادث هي حقائق التاريخ . لكن الناس يتفقون جميعاً على ان قسما قليلا من هذه الحوادث له اهمية تاريخية وهو الذي تقف الذاكرة عنده . وعصر مقاييسه في التمييز بين ماهو عادي وغير عادي . فقد نجد مؤرخا في القرن الثامن عشر في انكلترا يسجل مرور نجم مذنب على انه حادث تاريخي بينما نحن لاننظر اليه كذلك ، ومن هنا صعوبة أولى فالمؤرخ المعاصر الذي يدرس حوادث قديمة مقيد بمـا انتخبه المؤرخ القديم .

**ولذلك قال غوته انه يجب اعادة كتابة التاريخ من وقت الى وقت لا لأن حوادث جديدة قد اكتشفت فحسب بل لأن أشياء جديدة قد وقعت ولأن الفرد المساهم في تقدم عصر من العصور يصل الى مواقف يمكنه بالاستناد اليها ان ينظر الى الماضي ويحكم عليه بشكل جديد .**

واخيرا ان نتائج الحوادث تظهر في مستقبلها وتعتمد اهمية مجموعة من الحوادث على النتائج التي تؤدي اليها . فالحاضر اذن يتضمن الماضي بمعنى ان هنالك نتائج أو آثارا من الماضي في الحاضر ولما كان الحاضر يدخل ابدا ودائماً في الماضي فالحوادث الماضية ينظر اليها على ضوء العلائق الجديدة التي تؤدي اليها نتائجها . واذن فمعنى الماضي وعلائق الحوادث الماضية بحوادث اخرى هي في حالة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تغير مستمر . والنتيجة اذا كان هدف المؤرخ لايجرد تسجيل حوادث الماضي بل فهمها ايضاً فان مهمته لاتنتهي طالما ان للحوادث نتائج لاتقف عندها . وهذا كله يفرض على المؤرخ اعادة النظر في الماضي واعادة تفسيره وتأويله .

هذا مختصر مراحل المنهج العلمي في التأريخ . لكن السؤال يظل قائماً في ما اذا كان التاريخ يعتبر علما وهو سؤال نوقش طويلا خاصة منذ القرن التاسع عشر حتى اليوم . وهذه المناقشة ومختلف المواقف منها توضح لنا طبيعة التاريخ وبأي معنى يمكن اعتباره علما والى أي حد وسنستعرضها بايجاز .

عندما نتحدث عن التاريخ كعلم فهل نستطيع ان نضعه على قدم المساواة مع علوم كالرياضيات والطبيعيات والفيزياء والكيمياء ؟ نحن نستطيع في هذه العلوم ان نتوصل الى قوانين اي الى نسب وعلاقات رياضية بين الوقائع . وبفضل مثل هذه القوانين القائمة على علاقات رياضية ثابتة يمكن التنبؤ . الا ان بين العلوم الطبيعية علوم تعتمد على الوصف وتتناول حوادث وقعت في اطـــار زمني لكنها مع ذلك لاتعتمد على علاقات رياضية كعلم الجيولوجيا مثلا .

والتاريخ بدوره لايستطيع ان يتوصل لاية علاقة رياضية وبالتالي لايستطيع ان يضع اي قانون بالمعنى الدقيق للكلمة . أضف الى ذلك أن التجريب الذي تقوم عليه العلوم الفيزيائية والكيماوية ممتنع على التاريخ . وكذلك الملاحظة المباشرة التي تقوم عليها العلوم الوضعية . فالمؤرخ لايستطيع الاطلاع على حوادث الماضي الا بصورة غير مباشرة وذلك بالرجوع الى الوثائق التي لاتعطي على لاغلب عن الحقيقة الكاملة الا فكرة غير كاملة . واذا وجد الوثائق أو الاصول الضرورية كان لابد من اخضاعها لنقد نزيه دقيق قبل اعتمادها وتفسيرها . ويجب ان لاننسى ايضا ان الاصول أو الوثائق التي تصلنا انما هي أمر عارض وان كثيرا من الحوادث ذات الاهمية قد اندثرت ولا نستطيع بالتالي ان نعرفها ابدا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثم ان العلم هو العلم « بالكليات » والقوانين لاتنطبق الا على ماهو كلي . والتاريخ يسجل على الاغلب الحوادث الفردية . حوادث لاتتكرر ابدا وهي بأساسها محتملة الوقوع فقط . ففي حياة الناس الواقعية لايوجد الا اعمال تمت وانتهى أمرها، والكلمات قيلت ولا يمكن استعادتها، وبين المدى اللامتناهي في الامكانيات البشرية يختار الانسان طريقاً واحدة تؤثر على تطور المستقبل بكامله . ثم ان هذه الحوادث ليست دائماً وقائع حقيرة او تفاصيل لامعنى لها يمكن للتاريخ اهمالها. وانما يتناول التاريخ اموراً ذات اهمية كبرى كغزوة البرابرة او الاصلاح الديني في القرن السادس عشر او الاكتشافات البحرية او الثورة الفرنسية . وبعض هذه الحوادث بل اغلبها ليس وليـــد

الصدفة . ومع ذلك فهي حوادث معينة لاظاهرات عامة تتكرر ويمكن بالتالي ملاحظتها ودراستها .

كذلك لانستطيع أن تتناسى الدور الكبير الذي يلعبه بعض كبار رجال التاريخ في مجرى الحوادث كقيصر ونابليون وبسمارك ولوثر . ويذهب بعض مفسري التاريخ الى المستقبل وتطور المجتمع يستمدان بالدرجة الاولى على القوة الخالقة المبدعة في الافراد البارزين . حتى ان عامة الناس هم الذين يروجون هذه الافكار . غير ان مثل هؤلاء المفسرين يهملون بدورهم تأثير الحركات الشعبية. وهكذا فان ثورات الفلاحين التي قامت في فرنسا بين ١٧٨٩ و ١٧٩١ تبدو عفوية تماماً . ومع ذلك فقد اثرت تأثيراً قوياً على تطور الثورة الفرنسية ذاتها .

ومهما يكن الأمر فان تأثير الافراد في التاريخ أمر لايمكن ان يشك به . وانما الصعوبة هي في ان نحدد نطاق تأثيرهم . فقد يكون الافراد نتاج عصورهم . وتطورهم الفكري والعقلي يتوقف جزئياً على الوسط الذي ولدوا وعاشوا فيه . ثم يجب ان نميز بين مختلف الحوادث . وأكثر مايظهر تأثير الافراد في النطاق الفكري والفني . واذا أخذنا كبريات الحوادث السياسية فان افعال افراد كنابليون او بسمارك او لينين كانت حاسمة لفترة من الزمن . واما في مايتعلق بالحياة الاقتصادية فان الجماهير تلعب دوراً أكثر اهمية وشأناً .

واذا اخذنا بعين الاعتبار حوادث معينة قامت تأثير كبير فاننا نجابه صعوبة مماثلة . فالى اي حد يمكن القول عن هذه الحوادث انها عرضية وان الوسطاء لتكرارها كما تؤثر فيها السوابق التاريخية . خذ مثلا الثورة الفرنسية . فنحن لما كنا نعرف كيف وقعت وكيف تطورت نميل بصورة طبيعية للاعتقاد بأن وقوعها كان محتما وان التطور السابق في فرنسا قد ادى اليها . ولكن هل هنا شيء ثابت اكيد ؟ الم تلعب الصدف دورها في اشعال هذه الثورة ؟ الم يكن بالامكان ان تقع حوادث اخرى تعطي للاحداث اتجاها آخر ؟ الم يكن بالامكان ان يأتي رجل دولة غير الذي كان فيصرف الأمور باتجاه لايؤدي الى الثورة؟ او ان يتطور المجتمع تطورا طبيعياً فلا تقع الثورة؟ ان مجرد امكان طرح مثل هذه الاسئلة يظهر مقدار ماتنطوي عليه الايام من صدف ومفارقات . وانه لمن الاهمية بمكان ان نلاحظ انه بعد ان انقضت ازمة الثورة اثناء حكم نابليون رجع نظام الحكم الى مايسمى بالحكم الاستبدادي المستنير الذي كان قد بدأ يسود ايام لويس السادس عشر . واذن فان المخزون من المواد الملتهبة التي تراكمت والتي اودت بالنظام القديم كان يحتاج الى شرارة ؟ هل انطلقت هذه الشرارة بشكل محتم ام لا ؟ انه سؤال يصعب ان نبت فيه .

يعترف لاكومب Lacombe ان جميع هذه الحوادث العرضية تفلت من قبضة « التاريخ

« العلم (١) . وهو يذهب الى ان التاريخ العلم لايمكن ان ينطبق الا على الظواهر الدائمةوالتي يمكن لها ان تتكرر مع مقدار كثير او قليل من التشابه اي المؤسسات التي يدرسها علم الاجتماع لكن خطأ بعض المؤرخين المتأثرين بعلم الاجتماع ينشأ من انهم يوجهون كبير عنايتهم الى المؤسسات دون غيرها في حين ان المؤرخين العاديين يوجهون اهتمامهم للحوادث فحسب . وهو يقول : « اقرأ المؤرخين فيخيل اليك ان التاريخ لايتضمن غير الحوادث . واقرأ علماء الاجتماع فيبدو لك انه لايوجد غير المؤسسات . غير ان التاريخ يظهر في كل مكان . الحوادث والمؤسسات متداخلة بعضها مع بعض بشدة وعمق . ان عقلنا فقط هو الذي يفصلها عن بعضها ».

كذلك لايمكن التنبؤ في التاريخ كما يمكن في العلوم التجريبية وانما جل مايمكن لعالم التاريخ ان يتحدث عنه هو تيارات تتجه اتجاهاً معيناً . وقد ذهب شبنجلر مذهباً لايخلو من غرابة فقد اكد من جهة ان الصدف تلعب دوراً كبيراً في التاريخ واكد من جهة ثانية ان بوسع المؤرخ ان يتنبأ عن المستقبل . ويظن شنجلر ان ذلك ممكن بفضل ماعند الانسان من حدس ، ولكن مجرد القول بالحدس امر واسع وغامض معاً . فالحدس الذي شع في ادمغة نفر من كبار العلماء واوصل (٢) لاكتشافات علمية خطيرة انما هو وليد تفكير سابق طويل وجهد شاق .

ولما كنا في معرض البحث عن الصعوبات والعقبات التي تحول دون ان يصبح التاريخ علما ، وكنا قد ذكرنا بينها المواقف العقائدية ، فسنتناول احداها وهي القومية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

## التاريخ والقومية :

يذهب Teggart ( تغرت ) الى ان العواطف القومية والوطنية والحزبية السياسية هي بين اصعب العواطف التي يمكن المرء ان يتخلى عنها . ويبدو ان الناس يجدون مشقة فائقة اذا ارادوا تحقيق بعض التجرد وهم يناقشون او يبحثون المواضيع القومية والسياسية والعقائدية ، خاصة في عصور الازمات ، فالولاء القومي على مايبدو يحول دون ضبط مثل هذه العواطف . وجوهر الوطنية هو التوحيد التام بين الشخص ووطنه . وعلى ذلك فان معرفة الماضي من خلال

---

(١) ( باريز ١٨٩٤ ) Lacombe P, L'histoire considerée comme science
ص ٢٦٧ و Giddings F. H, A Theory of History, ( reprint of Political Science quarterterly , December 1920 )

(٢) المصدر السابق . ص ١٥٠ - ١٥٥ Sée H,
المصدر السابق ص ٢٢٨ - ٢٣٠ . Collingwood R. G.

الوثائق تصبح بالنسبة للمؤرخ نوعاً من الذاكرة الشخصية بحيث ان المؤرخ عندما يكتب فهو لايكتب كمحقق حيادي ازاء الحوادث بل كانسان متأثر اشد التأثر بما يكتب . ولذلك قال المؤرخ مومسن Mommsen بالاستناد الى خبرته الشخصية « ان الذين عاشوا الحوادث التاريخية كما عشتها يدركون ان التاريخ لايمكن ان يكتب دون محبة او حقد » (١) .

ان الانتاج التاريخي المتأثر بهذه العوامل القومية والسياسية هو اقرب للأدب والفن منه للعلم فالعلم يطلب الحقيقة من اجل ذاتها . وهذا النوع من التاريخ يستخدم الحقيقة وسيلة لغايات اخرى . وقد يصلح لأن يوحد موقف افراد الامة ازاء وطنهم المشترك او ازاء خطر خارجي يهدد كيان الامة ، والشعور القومي ينتهي قسم كبير منه الى كبرياء مشترك بالحوادث الماضية . يتساءل المؤرخ الفرنسي فوستيل دي كولانج ماهي الأمة وماهي الوطنية الصحيحة ؟ فيجيب « الوطنية الصحيحة ليست حب الارض وانما حب الماضي والاحترام للاجيال التي سبقتنا » وحين نمت الروح القومية في القرن التاسع عشر كان هذا النوع من الكتابة الادبية التاريخية ، باعثاً على توحيد الشعور بين افراد الامة الواحدة . وبهذه الواسطة استيقظت الشعوب الضعيفة لتشكيل وحدتها القومية كما اندفعت الامم الكبيرة الى التوسع والمغامرة سعياً وراء امجاد جديدة . قال شوبنهاور « تتمكن الامة من وعي ذاتها وعياً تاماً في التاريخ فقط » . ويرجع ايقاظ شعلة الوطنية والقومية ، في القرن التاسع عشر الى جهود المؤرخين (٢) .

لكن التاريخ الذي يمكن ان يستفاد منه لخدمة الوطن يمكن في الوقت ذاته استخدامه من اجل تقدم الجنس البشري بكامله في طريق خلق وعي انساني شامل لاينفي الوعي القومي او ينقضه بل هو مكمل له . والحقيقة ان كتابة التاريخ في القرن التاسع عشر لم تؤد فقط الى يقظة العواطف النائمة وبعثها بل انها دفعت احيانا ايضاً بالشعوب الى العمل ، وفتحت امامها رؤى لآفاق مشعة في المستقبل . التاريخ كسجل لما تقدمه امة واحدة هو نوع من الأدب او الفن لايمكن تناسيه او اهماله لانه استجابة لحاجة اجتماعية معينة . لكن من واجب العلماء ان يخدموا مواطنيهم في ان يظهروا « ماهو الذي وقع فعلاً » .

لقد شغلت مشكلة التاريخ والقومية أكثر من مفكر واحد ويجدر بنا ان نذكر ان بين من انتبهوا اليها حين كانت المشكلة على اشدها بوركهارت Burkhardt احد كبار علماء التاريخ في القرن التاسع عشر .

(١) المصدر السابق ص ١٧٥ ومابعد Teggart F. G.

(٢) ترجمة Schopenhauer, Theworld as will and Idea, R. B. Haldove ( لندن ١٨٨٦ ) الجزء الثالث . ص ٢٢٨ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يقول بوركهارت ان دراسة التاريخ ليست واجباً فحسب ولكنها ضرورة ملحة . انها افصاح عن حريتنا ومظهر من مظاهر تحررنا الذاتي ازاء انسحاقنا امام الجبرية الكونية الشاملة وانغماسنا في مجرى الضروريات . ومع ذلك فنحن قلما نذكر الاخطار التي تهدد هذه المعرفة والمزالق التي يمكن ان نقاد اليها .

هنا يجب ان نأخذ بعين الاعتبار العلاقة بين **المعرفة والغاية** . فنحن في دراستنا للتاريخ نجد انه يحول بيننا وبين الموضوعية فيه حجاب كثيف من التأويلات الغائية التي تفرض علينا اتجاها معينا وفهما محدودا للحوادث . ولا نستطيع ان نتخلص من اعتقاداتنا باهمية اشخاصنا والزمن الذي نعيش فيه ، وربما كنا نجابه الد اعداء المعرفة . واوضح دليل على ذلك هو التالي : حالما يقترب التاريخ من العصر الذي نعيش فيه ومن اشخاصنا نجد كل شيء اخذ يزداد اهمية . وحقيقة الامر اننا نحن اكثر اهتماما . وعدو آخر للمعرفة الصحيحة هو ظلام المستقبل الذي يحيط بقدر الفرد والجماعة . فنحن نحدق باستمرار فيه وما يصل اليه من خيوط لامتناهية من الماضي ونجهد انفسنا بالتنبؤ — بغية تعزية انفسنا او طمأنتها — وهي كلها امور تقع خارج مقدرتنا البشرية . ولكن ان كان التاريخ ان يساعدنا على حل اصغر جزء ممكن من لغز الحياة الكبير المحزن علينا ان نترك حظيرة الاهتمام الشخصي والزمني لندخل منطقة اكثر صفاء حيث لايحيط بنظرتنا ظلام الذات ، ولو نحن نظرنا بهدوء اكثر وبعد اكثر فقد نتوصل الى فهم ولو ضئيل لطبيعة الحياة الصحيحة على الارض .

ويهددنا التحيز بصورة خاصة عندما يرتدي ثوب الوطنية ، بحيث ان المعرفة الصحيحة التي تنشد الحقيقـــة الحقيقة تجد عقبة كبرى في اهتمامنا بتاريخ بلادنا واخضاع للمعرفة للغاية . مما لاريب فيه انه لابد ان يوجد في التاريخ القومي اشياء يجب ان تحتل مركزا اولا في الاهمية على غيرها ومن واجبنا ان نشغل انفسنا بها . على انه لابد ان يعدل منها ويوازيها خط آخر من الدراسة لأن اهتمامنا بتاريخنا القومي مشوب بالرغائب والمخاوف ولأن التحيز الذي يفرضه علينا يدفعنا دائما باتجاه الغايات ويبعدنا عن المعرفة .

وينتهي بوركهاردت الى الاستنتاج بأن افضل واصدق دراسة للتاريخ القومي هي تلك التي ندرس فيها تاريخنا بالمقارنة مع التاريخ العالمي وقوانينه من حيث العلاقة بينهما وكقسم من كل واحد كبير تضيئه ذات الكواكب السماوية التي سطعت فوق عصر أخرى وشعوب أخرى ، تهدده اخطار واحدة ومقدر له يوماً ان يهوي في الظلمة الابدية وان يصبح جزءاً من التقليد الكلي الكبير . وعصرنا مهيأ أكثر من أي عصر سابق لتحقيق مثل هذا الهدف العلمي بسبب الوثائق الكثيرة

التي اصبحت في حوزة العلماء اليوم والتي لم تكن موجودة من قبل . ولما كانت الحدود التقليدية بين شعوب العالم تتهدم أكثر فأكثر وتتقلص مساحة الكرة الارضية فالواجب يقضي أكثر من أي وقت مضى في التاريخ لأن نكون بالضرورة صورة شاملة عن الجنس البشري . والحقيقة انه لم يكن من قبيل الصدفة ان علماء التاريخ ، بعد الفورة القومية التي عمت الغرب في القرن الماضي، اخذوا يلحون على ان تتجه دراسة التاريخ الى شيء أكثر من مجرد ارضاء الكبرياء القومي .

ولو فرقنا أخيراً في التأليف التاريخي ، بين مضمونه وهو قائم على التحري والتحقيق ، وبين شكله وهو كتابته ، لوجب ان يكون واضحاً مما تقدم ان من العقبات الاول التي تقف في طريق التحري التاريخي الذي يمكن أن يؤدي الى نتائج علمية اعطاء التحري - أي مضمون التاريخ - مركزاً ثانوياً بالنسبة لشكله أي كتابة التاريخ وسيطرة الفن والادب والصحافة عليها (١)

ازاء الصعوبات التي تحول دون أن يصبح التاريخ علماً هل ننتهي الى القول ان التاريخ لايمكن ان يكون علماً . قد يصح هذا الاستنتاج لو كان العلم ليس سوى البحث عن القوانين والتوصل الى ايجاد علاقات رياضية ثابتة . وهو الخطأ الذي وقع فيه اوغست كونت لان المدرسة الوضعية لم تر غير ناحية واحدة من الاشياء، والحوادث تحتاج تفسيراً وراء القانون وابعد من القانون . والدليل انه حتى في العلوم الرياضية والطبيعية لا يكتفي العلماء ابدا ودائما بالتوصل الى المعادلات الرياضية وانما يحاولون البحث عن حقائق وجودية Réalités Ontologiques . فهنالك حقائق كثيرة لايمكن أن تحصر بالقانون أو أن تنتهي الى قوانين العقل ومع ذلك نسعى الى ايجاد تفسير عقلي لها ، هكذا تنشأ النظريات التي تحاول تفسير الحقيقة دون ان تتوصل الى ذلك نهائياً . وتتكاثر النظريات كلما عرضت حقائق لاعقلية يحاول فكرنا ان يتغلب عليها . واذن لايمكن التحدث عن طريقة علمية واحدة تفرض على جميع العلوم، من انسانية وطبيعية ، وانما موضوع العلم هو الذي يفرض الطريقة والمنهج .

وهذا القول الاخير - أي أن العلم هو الذي يفرض الطريقة والمنهج - هو ماذهب اليه زعماء المدرسة التاريخية في المانيا في القرن الماضي ويندلباند Windelband وريكرت Rickert ودلتي Dilthey فقد قالوا ان طريقة التاريخ تختلف عن طريقة العلم وان عمل المؤرخين يعكس الطريقة الخاصة بموضوعهم . ولما كان موضوع التاريخ - كما سبق أن أشرنا - هو وصف الحوادث التي لاتتكرر فلا بد أن ينظر اليه على أنه علم ماهو فردي وخاص وانساني مباينة للعلوم الطبيعية التي هدفها اكتشاف القوانين العامة وهي غير انسانية . وتوقف ريكرت خاصة عند هذه

(١) Burkhardt J, Force and Freedom (نيويورك ١٩٥٥) ص ٧٨ - ٨٠

الناحية الاخيرة مؤكدا أن الاشياء الطبيعية كما نعرفها هي مجرد ظواهر في حين ان الانفس الانسانية حقائق نعرفها بذاتها . وليس المقصود بذلك انكار حقيقة العالم الخارجي أو ما أحرزته العلوم الطبيعية من انتصارات باهرة . وهنالك وسائل وطرق نعرف بواسطتها الطبيعة والمادة أحسن مما نعرف الانسان أو المجتمع . لكننا لانستطيع من جهة ثانية أن ننفذ الى وجود المادة وحوادث الطبيعة كما نستطيع أن ننفذ الى الكائنات الحية والمجتمعات البشرية حيث القرابة الانسانية تمكننا من تفهم العوامل الداخلية التي لها فعلها في الافراد والشعب لا الاكتفاء بمجرد الحركات الخارجية وما يتبعها من تغيرات في الطبيعة . ويلعب الخيال المرافق الذهن دوره في اعطاء حياة لمادة التاريخ

اذ هذه هي الطريقة لفهم الحياة ،والتاريخ يسجل لنا الحياة كما عاشها الانسان ، وعمل المؤرخ أن يبثها حية من جديد . ولذلك لابد للمؤرخ أن يكون فنانا وشاعرا وقصصيا شريطة أن يخضع خياله ويقظة واحتراس دائمين للحقيقة . وعليه أن يخضع لحكم الادلة والشواهد والبينات دون أن يحاول مرة واحدة التمرد عليها . وهي مهمة قاسية لاتتوقف عند حد (١) .

يقابل هذه المدرسة الالمانية التاريخية المدرسة الانكليزية التي من قادتها فاولر Fowler و ج . س . مل John Stuart Mill . فقد قبل هذان العالمان ومن حذا حذوهما القول بأن التاريخ علم وأخذوا يبحثون عن العنصر العلمي في العمل التاريخي فوجدوه في مايدعى «بالطريقة المقارنة » Comparative Method . وعلى ذلك وحدوا بين « المقارن » و « التاريخي » . واصبحت اللفظتان تعنيان شيئاً واحداً عندما طبقتا على طريقة البحث، وطريقة المقارنة هذه يمكن ان تساعدنا مساعدة فعالة لأن تبين في مجرى التطور ماهو نتيجة عوامل ثابتة او نتيجة للصدف العارضة . وهي بايجاز افضل وسيلة تمكننا من أن نعطي الحوادث التاريخية تفسيراً يقبله العقل ، وتساعدنا على الانتقال من المعلوم الى المجهول الذي نريد اكتشافه ، أي ان نجعل من التاريخ علماً ، وبهذا المعنى تصبح الفرضية لاعملاً مشروعا في المنهج العلمي التاريخي وانما مثمرة ايضاً كما في سائر العلوم الاخرى . فتفسير التاريخ على اساس الفرضية - او بكلمة اخرى فلسفة التاريخ - امتداد لعلم التاريخ وتتويج له (٢) .

وفلسفة التاريخ تقوم بوظائف ثلاث ١ — نقد المنهج التاريخي هل هو استقرائي او استنتاجي أو هو الاثنان معاً . وما معنى العلية والقانون والفرضية والتطور عندما تستعمل

---

(١) ( لندن ١٩٤٨ ) ص ١١٢ Rowse A. L. The Use of History وللتوسع في مذاهب قادة المدرسة التاريخية الالمانية يمكن مراجعة Colling wood - المصدر السابق ص ١٦٥ - ١٧٦ .

(٢) المصدر السابق . ص ٢٠٥ Teggart



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في النهج التاريخي . ٢ — التوسع في تفسير حوادث التاريخ بعد اخضاعها لمعايير العلم وتقصي الاسباب التي ادت اليها من مناخ وموقع جغرافي وظروف اقتصادية واجتماعية والخلوص منها الى قوانين تفسر المجتمع البشري وتطوره ومصيره كما فعل ابن خلدون مثلا واوغست كونت وهيجل وماركس . ٣ — ان يستنبط من التاريخ مذهب فلسفي لتفسير وجود الانسان ومعناه وصيرورته تفسيرا يعتمد على التاريخ فحسب . اي ان يصبح التاريخ هو المدخل لفلسفة الوجود والانسان وان يكون هو وحده المرجع لذلك كما فعل كروتشه Croce الايطالي .

لكن التوسع في هذه النواحي الأخيرة يخرجنا من نطاق بحث « التاريخ العلم » ليدخلنا في نطاق آخر « فلسفة التاريخ » او التفكير التاريخي وهو موضوع بحث لاحق .

## المصادر

بالاضافة الى المصادر المذكورة
حسن عثمان — منهج البحث التاريخي ( القاهرة ١٩٤٣ )
قسطنطين زريق ـ نحن والتاريخ ( بيروت ١٩٥٩ )

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



# عقل المرء محسوب عليه ..

للدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا
بيروت —

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الانسان هو سيد المخلوقات لا منازع مخلوق عجيب سخر كل شيء له . سخر الماء والهواء ، سخر الحجار والنبات والحيوان ، سخر الارض والشمس والقمر والكواكب والكون بأسره لشؤونه واغراضه !

ولئن كان الانسان قد صدر عن الطبيعة ، كأي شيء آخر ، الا انه الحيوان الوحيد الذي استطاع ان يغير الطبيعة ويسيطر عليها ويرتفع بها الى مستوى اغراضه الانسانية .

اجل ، انه الحيوان الوحيد الذي استطاع

بمخترعاته ان يتحدى العوامل الجغرافية والمؤثرات الطبيعية والجاذبية الأرضية وشتى العوائق المادية ، فكيف لا يحق له ان يصبح سيد الخليقة وهو يرى كل ما حوله اعجز من ان يحدث تغييراً طفيفاً فيما حوله .

لقد اكتشف ذاته واكتشف قدرته ، فانطلق يذلل الصعب ويروض الوحش ويحيي القفر ويبدد الظلام وينشر النور .

لقد اخضع الاشياء لسلطانه ، وعنت الموجودات لقبضة يده ...

لقد سيطر على الحياة والموت والمرض ...

لقد اقتحم باطن الذرة ، واخترق أطباق الارض ، وعلا أجواز السماء ، وهو في طريقه الى الشمس والنجوم .

لقد دانت له الاشياء وتصاغرت ، وانصاعت له الكائنات وتخاذلت وتربع على عرش الملك ، وأوشك أن يقول : أنا الواحد القهار !!!

ARCHIVE
http://Archive.beta.Sakhrit.com

فليت شعري أيّ عظيم هذا الانسان !!

اذا استعصى عليه أمر ، لم يعجزه حله ؛ واذا وطىء أرضاً ، أينعت ؛ واذا دخل قفراً ، أحياه ...

يشق التربة ويدك متون الحَزْن ويقبض على عنانه بمحاريثه ووطأة جواده وبما استحدث من آلات وأدوات ...

لقد ركب البحر مستعيناً بالريح ، مجترئاً على اللجج والاغوار . وركب الجو مجترئاً على الأعالي والقمم حتى احتل مواقع النسور .

وركب الفضاء مجترئاً على الجاذبية والفراغ حتى أخذ يطاول النجوم . فما أدهى هذا الانسان !

إنه صانع الحضارة وصانع التاريخ وصانع الامبراطوريات !

لا يُعلم لوجوده بداية ، ولا يُعلم لبقائه نهاية ، ولعله لايموت ولن يموت !

بالعقل صنع الانسان ماصنع . فكل هذا من امجاد العقل ، وكل هذا من آياته الباهرة . فالعقل هو أعلى مراحل الانسان وهو التفسير الكبير للانسان !

انه كالطفل الصغير ، يتراقص نوره ويتوهج ليضيء لنا الظلمات ، ويكفينا الملمات ، ويهدينا سواء السبيل !

إن قوى العقل قوى فذة لا تُحد ، قوى لايعد لها شيء ولا يقارن بها شيء ، فهي كل شيء ولولاها لم يكن شيء . انها الانسان وهي سر الوجود .

وليس في وسعي الآن أن اتكلم عن المقدرة والبراعة اللتين انجزتا معجزة الانسان وقوى العقل فيه ، وانما اترك ذلك للغـــد الذي سيتيح لنا اكتشافات رائعة في هذا السبيل ، حيث تغزو العلوم النفسية معاقل هذا الانسان كما غزت العلوم الطبيعية معاقل الذرة وحطمتها ، وحيث تقتحم تجارب العلماء صميم هـذه المعاقل وتفيد منها كما اقتحمت الذرة وكما نحن على عتبة الافادة من قواها الكافيـة التي لا تُحد . وسوف يتحقق انقلاب عنيف في اوضاع الحياة وظروفهـا لاندرك ابعاده . وعندئذ نستهل عهـداً جديداً نسبته الى عهودنا كنسبة عهود انسان الغابات الى انسان القرن العشرين . وستتبدل الأرض غير الارض والسموات ... وسنشهد فتحاً جديداً في علم النفس لم يسبق له مثيل ، وستحقق التجارب أن هذا الانسان هو كل شيء وفوق كل شيء وقادر على كل شيء !

. . .

ولكن كم كان الثمن الذي دفعه الانسان حتى كان كل هذا ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هنا المأساة ، وأي مأساة !!

لقد كان المفروض أن يكون الانسان سعيداً بمقـدار نصيبه في العقل ؛ ولكن العكس هو الصحيح . ولذلك صدق قول الشاعر :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله          واخو الجهالة في الشقاوة ينعم

فعقل الانسان محسوب عليه ، وكل شيء في هذا العالم له ثمنه ، هكذا قضى منطق الوجود .

ان الانسان اشقى الكائنات واتعسها ، وماذلك الا لأنه يفكر فليس سوى الانسان من يتألم بالتفكير ، وليس سواه من يشقى بالتفكير .

فالحيوانات والنباتات ، بله الجمادات ، احسن حظاً منه لأنها سلبت العقل وحرمت من التفكير ، فالحيوان يمرض ويشقى وتنزل به الكوارث ويموت ، ولكنه لا يدرك المرض والكارثة والموت . ان البهائم تجوع كما نجوع ، ولكنها في منجاة من هم الرزق وخوف العاقبة ، وهي تفقد اولادها كالانسان ، ولكنها لا تتمثل لها صورة الثكلة كما تتمثل للانسان . وهي تتوجع كما نتوجع ، وتتألم كما نتألم ، ولكن لا يساورها ما يساور الانسان مما يأكل القلوب ، ويقرح الجفون ويقض المضاجع ، ويفتت الأكباد ، واذا اردنا ان نعبر عن حالها بلغة انسانية قلنا انها في غيبوبة عقلية لا تستطيع معها تقدير ما يقع عليها ، انها تتحمل أشياء وتؤدي أعمالاً لا تدرك كنهها ولا تفهم ما معناها ، اجل انها في غيبوبة افقدتها الحكم على الأشياء . فهي على الرغم مما تتعرض له من كوارث ونحن لا نتصورها الانسان . الا ان التعرض للكارثة ، في اللحظة الحاضرة شيء ، والقـدرة على تصورها في الذهن واسترجاعها وامعان النظر فيها في الماضي والمستقبل شيء آخر . فالحيوان

ARCHIVE

لا يعرف غير اللحظة التي تمر دون ان يستشعر وخز الزمان وتركيز الديمومة ، وانما هو يعيش بمجموعة من الحالات المنفصلة وكبة من الآنات المتباعدة التي تظل على تفككها ما لم يجمعها عقل الانسان ويربط بينها ويوثق عراها ليؤثل مجده ، في نفس الوقت الذي يدك عرش سعادته .

فاذا تجاوزنا الحيوان الى النبات فقد بلغنا جنساً من الكائنات له حظ من حياة ، ولكنه ضئيل بالقياس الى حظ الحيوان ، واذن فحظه من ادراك المرض والموت و ... اقل من حظ الحيوان ، هذا اذا كان للحيوان حظ منه .

فاذا ما تركنا النبات الى ما هو ادنى منه رتبة ، الى الجماد الذي لاحظ له من حياة وبالتالي لاحظ له من فكر ، فهناك السعادة العظمى التي لا ينغصها شقاء ، وهناك الراحة الكبرى التي لا يشوبها ألم .

فاي انسان يتمنى هذه الحال ويغبط مملكة الأشياء عليها ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فالعقل هو الذي يجعل الآلام الانسانية أكثر تجدداً في الشعور ، وهو الذي يفرق بينها ، وكما انه عنوان مجد الانسان فهو اذن اصل بلائه .

فهو يتصور أشياء غير موجودة ، ويخلق لنفسه مخاوف وآمالا لا حقيقة لها . وهو وحده الذي يعيش في التاريخ والمستقبل ، ويتقلب في المحال والحقيقة والوهم واللامعقول ، وينتقل في الزمان والمكان ، ويعبر الآفاق والأبعاد ويطير كل مطار ، ومن هنا فان العقل هو وحده الذي يخشى المرض وهو وحده الذي انتج تلك الرهبة المصطنعة من الموت ، فاذا كان الحيوان ـ كالانسان ـ متمسكا بالحياة ، الا انه يختلف عن الانسان في انه لا يخشى المرض ولا يهاب الموت . فكيما يخشى الكائن الحي المرض او الموت لا بد ان يكون على علم بهما مقدماً ، ولا بد ان يتوقعهما

ويتنبأ بحدوثها ، وان يستطيع التفكير في عقبى المرض وفراق الأحبة وسكرات الموت ، وتصور الجثة والفساد وديدان القبر ووحشته ومصير الموتى وراء القبور وان ما نرى في الحيوان مما نتخيل انه تهيب من الموت انما هو في الحقيقة دفاع عن بقائه ووجوده وتشبث بأوضاع نشأ عليها لا يريد منها فكاكا ، هذا كل ما في الأمر ، واما الخوف من الموت بالمعنى الانساني فهو عمل ميتـــافيزيقي بحت يتطلب تركيزاً عقلياً قوياً لا يعرفه الحيوان .

ان المرض لا يخيف ؛ ولكن الذي يخيف انما هي فكرة المرض . وكذلك الموت لا يخيف ، ولكن الذي يخيف انما هي فكرة الموت . فهو ليس مخيفاً في ذاته بل في تقديرنا النفسي له . اي انه لا يخيف كواقعة ، بل كفكرة تتسلط على الانسان وتنغص عليه وجوده . ومعنى ذلك ان التفكير في المصيبة مصيبة في منطق الوجود الانساني والهم في كل ذلك انما هي الفكرة ، فاني للحيوان هذه الفكرة ! فهو ليس لديه ذاكرة يختزن فيها الصور والمعاني ، وبالتالي ليس لديه قدرة على التنبؤ بالمستقبل ، بل هو في سنة دائمة ونوم مستمر كأنه حياة الأحلام ؛ ومن هنا كانت سعادته وكان حبوره .

والسبب في ذلك ان الانسان ليس مجرد وجود ، انما هو وجود وتقويم ( تقييم ) للوجود . وهنا مصدر شقائه . انـــه لا يعيش فقط ، وانما هو يعيش ويدرك انه يعيش ، وادراكه هـذا يبني له حدود وجوده ، ومن هنـا تتعارض أبعاده مع مطامحه وآماله ، ويضطره ذلك الى الوان من الآلام وضروب من اليأس والقنوط لا يجدها كائن غيره . وبعبارة اخرى ، ان الانسان لا يعيش واقعه الفج فحسب ، انه لا يعيش ذاته وظروفه فقط ، بل هو يتجاوز هذا الواقع

ويتخطى تلك الظروف ، وهذا من مآسيه وان كان ايضاً من مزاياه . فهو محتاج دائماً الى أن يتجاوز نفسه ووضعه، لأنه لايستطيع أن يعيش قابعاً في داخل حدود ذاته . ومعنى ذلك أنه لايمكن أن يحقق ذاته الا بمقدار خروجه عن ذاته والذهاب بعيداً عنها . فنحن على حد التعبير الجميل لفاليري Valéry « محبوسون خارج ذواتنا» . أجل ، اننا محبوسون خارج ذواتنا . وربما كان سر الانسان وقوام وجوده انه يتوهج ويزداد كينونة حيث هو غير موجود اكثر منه حيث هو موجود . ولذلك نراه دائماً يعدو وراء ذاته ينشدها في مظانها ويجدُّ في طلبها دون أن يدركها أو أن يظفر منها بطائل أو قل — على حد تعبير الوجوديين الفرنسيين — « ان الانسان ماهو الا عملية مفارقة مستمرة للذات » . فهو يتحرك من الداخـــل لا بالظروف الخارجية التي تضغط على جسمه الترابي . انه ليس جهازاً آلياً سلبياً يبقى كما هو في الرقعة التي يكون فيها ، بل هو تطور تاريخي خالق يحيا من باطن بشيء اكبر كثيراً من وجوده المكاني . انه يحيا بالافكار والقيم والمعاني . انه لايستطيع أن يكون موجوداً فقط يتغذى بحشرات الارض وبقولها وفومها وبصلها وعدسها، ويتناسل كالحيوانات بلا امل ولا مستقبل ولا رسالة ، وبدون أن يحاول الصعود الى القمم . فقيمة الحياة ليست في الحياة نفسها . بل في القدرة على توجيهها وفي الأحداث التي تقع فيها وبمافيها من حرية وكرامة وابداع . فالحياة الانسانية مشروطة دائماً ببعض المعاني والقيم ، والحيوان وحده هو الذي يقبل حيـــاته بلا شروط ويعيش بلا معنى . ولا يقبل الانسان أن يعيش بلا معنى الا اذا ارتضى لنفسه أن يتردى الى أعماق الهوان والمذلة ، وبالتالي الا اذا كان حيواناً . فالبشر مهما هانوا واستكانوا يحيون دائماً ببعض المعاني والقيم ، مالم يفقدوا كل تقدير لانفسهم .

• • •

ومعنى ذلك أن العقل ليس ملكة معرفة الواقع فحسب ، انه أيضاً ملكة ادراك الممكن . ومن ثم نرى أن العقل يسير دائماً في اتجاه تعديل البيئة وتغييرها وأن الانسان يؤثر في الاشياء ويوفق بينها وبين حاجاته الخاصة ، بينما الحيوان يتطابق مع الأشياء وينساق بالظروف المحيطة به . فالحيوان يقبل الظروف كما هي، وأما الانسان فانه يخلق الظروف . ولئن هو قبل بعض الظروف ، فانما هو يقبلها ليغيرها ويصرفها في غاياته وأغراض وجوده ، أي ليبدعها ويخلقها من جديد ، لا يكون كالحيوان الأعجم مجرد وجود ضعيف غير متحدد . ومن هنا تردده وتعثره ، فهو ـ كما يقول برغسون ـ « الحيوان الوحيد الذي يبـــدو فعله غير مضمون ، والذي يتردد ويتحسس ويتعثر ، والذي يضع مشروعات يقترن بها أمل النجاح وخشية الفشل » وأما الحيوان فهو بنجوة من عذاب التردد وألم التعثر ومضض الشك وغصة الفشل وكرب الحيرة وضرام القلق !

. . .

ومن نكد الانسان في عقله ان هذا الأخير قد يرسم لصاحبه مثلا أعلى ، ولكنه يبين له في الوقت نفسه عجزه عن بلوغه . وقد يدله على طريق السعادة ، ولكنه يذكره أيضاً بقصوره عن أن يبلغها كاملة وبقصوره عن أن يحتفظ بأيسر مايبلغه منها . وهو قد يبين له الشقاء ولكنه يبين له كذلك اضطراره اليه ولزومه له واخفاقه المحتوم كلما حاول أن يخلص من أقله وأيسره . وهو قد يوسع له في فسحة الأمل ، ولكنه يضيق له في امكانيات العمل . وهو قد يبين له فضيـــلة القناعة ، ولكنه يوصد أمامه الباب اليها . وهو عندما يصور له أنه سيد الكائنات ومحور الوجود ، يذكره في نفس الوقت بهوان أمره وقلة شأنـــه . فكيف لا يعصف به القلق طوال محياه ، وكيف لا يضطرب كيانه وكيف لا تضيق عليه

الأرض بما رحبت ، وكيف لا يقدم على الانتحار ؟ فالحيوان لا يعرف هذه العادة، وانما الانسان هو وحده الذي ينتحر ، لانه وحده الحيوان المفكر الواعي، ولأنه وحده هو الأذكى والأكثر تطوراً .

ان الانسان في حاجة احياناً الى شيء من بلادة الحس وفتور الشعور ليستطيع ان يعيش بل ما اشد حاجتنا الى ان نكون سخفاء في بعض الأحيان ! اننا لا نستطيع ان نحيا او نسعد اذا كان العقل رائدنا في كل صغيرة وكبيرة في امورنا واذا استبعدنا الوهم والخرافة عن مجال حياتنا . فالنور يقتل احياناً وكم استمرأ اقوام الظلام لانه يريحهم !!

فليت شعري لم تميز الانسان عن الحيوان وعن الاشياء فلم يحصد الا الشوك والحنظل ، وإلا الألم والبؤس والشقاء والحرمان ؟! لم كانت هذه الآفات هي الضريبة الفادحة لانسانيتنا ؟ هل صحيح ان مجد الانسان انما هو في دفع هذه الضريبة وفي مقدار حظه منها ، ام لعل هذا التعليل بضاعة عقلية بحتة ونوع من العزاء نبرر به باهظ ضريبتنا ؟

ان خلق الانسان لاشقائه وتعذيبه ليفوق كل انواع العبث والسخرية ! ان هذا شيء لا يمكن فهمه الا بالجنون ! ان كل ما في الكون من نجوم واقمار وزهور وبدائع وجنات تجري من تحتها الانهار لا يساوي دمعة واحدة تذرفها عين اضناها الأسى او آهة تطلقها حنجرة اشقاها الحرمان والشعور بالضياع !

ترى هل انظر جيداً أم انا في ضلال مبين ؟!!

# فشل الخروتشيفية (*)

للكاتب البولوني اسحق دوتشر
ترجمة علي الخش

مانزال نجد الكثير من صفات الموجيك (الفلاح) القديم في خروتشيف نفسه. انه يمثل الفلاح الواقف على عتبة العصر الذري ... آخر موجيك يتكلم باسم الروسيا .. وبمضي سنوات معدودة لن يكون ثمة أي أثر لروسيا الفلاحين.

إ. دوتشر، عام ١٩٥٩

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

— ١ —

إن السنوات العشر التي تولى فيها ن . س . خروتشيف قيادة الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي، تؤلف ضرباً من الحكم الانتقالي. حقاً إنه لا مجال للحديث عن «عهد خروتشيفي» على غرار ما نتحدث عن عهد

(*) يمكن القول ان الظروف التي تولى فيها خروتشوف الحكم في الاتحاد السوفياتي، والسياسة التي اتبعها، وكذلك ملابسات تنحيته عن السلطة، وأسباب الخلاف بين الاتحاد السوفياتي والصين، كل ذلك مايزال غامضاً، ان لم نقل سراً خافياً على قارئنا العربي باستثناء قلة من بني قومنا لا تعبيهم الوسيلة لمتابعة مايدور في العالم من أحداث. =

ستالين ، وذلك لا لمجرد أن خروتشيف لم يدم حكمه سوى ثلث المدة التي حكم فيها ستالين ، بل أيضاً لأن السلطات التي كانت له تتبع القياس نفسه .

إن الخروتشيفية لم تكن تذكيها أية فكرة كبيرة بناءة ( بل ولا أية فكرة سياسية ) خاصة بها . لا ، وهي لم تجسد نظرة جديدة ، أو أسطورة تستطيع ( كما فعلت نظرية الاشتراكية في البلد الواحد ) أن تعبر عن وعي مضلل لموقف تاريخي راهن .

كانت الخروتشيفية خواء من كل زخم أو همة مبدعة : فكلما عمد خروتشيف إلى شرح احدى الاطروحات المألوفة والاولية في الاشتراكية ، فانه كان يسترسل في لحن مصاحب فج . وكان يكتفي بترميم خطوات ستالين في موضوعات كثيرة ، على دعواه بأنه يقدم المبتكر المثير . وان التعايش السلمي ، وكشأنه مسألة الانتقال بلا عنف من الرأسمالية إلى الاشتراكية ، و « الطرق الوطنية التي تفضي الى الاشتراكية » هي اوضح مايضرب من أمثلة تدليلاً على

---

= لذلك رأينا أن نترجم لقراء المعرفة هذا المقال الرصين الجامع الذي نشر بآن واحد في مجلة السجل الاشتراكي الانكليزية والأزمنة الحديثة الفرنسية .

ومما يولي هذا المقال أهمية خاصة أن لكاتبه تاريخاً طويلاً مع الشيوعية . فقد التحق بالحزب الشيوعي في بولونيا في سن مبكرة ، ولبث فيه زمناً ، ثم فصل عنه لخلاف قيل أنه غير مبدئي ، كما قيل أن « تروتسكيته » كانت السبب في ذلك . الا أن هذا الفصل لم يؤثر على اهتمامه بقضايا الاشتراكية ومستقبلها ؛ وله في ذلك عدة كتب لسنا بصدد تقييمها وان كان مما يجب ذكره في هذا المجال أن الكاتب يهودي وقد استوطن لندن بعد فصله من الحزب . ولا نعلم مدى تأثير ذلك على تفكيره السياسي . ـ المترجم ـ

صحة ماتقدم . فتلك الفكر كلها إنما هي ستالينية قديمة جددت ، وان كانت تعود لأيام الجبهات الشعبية التي قامت في عام ٩٣٥ والاحلاف الوطنية التي عقدت في عام ٩٤٥ .

كان خروتشيف قبل كل شيء وارثاً لستالين ، وله اسلوب سلفه في الالحاح على الوحدانية ، وحدانية الحزب والدولة السوفياتية . وقراره بتحريم كل معارضة وكل نقد علني ، وكل نقاش حر كان لابد أن يفضي الى عبادة شخصه ، ويعتبر بمثابة محاولات لأقامة حكم اوتوقراطي .

إلا أن خروتشيف كوارث وخلف لستالين كان لابد له أن يتوارى خلف تصور الشعب له كبطل مناهض للأساليب الستالينية . فكانت مأساة حكمه أنه بعد أن راهن على الستالينية ، واسهم بقسط وافر في مجازرها ، قد اضطر الى أن يسهم بقسط أوفر من تلك المجازر ، حين راح يحاول نقضها . وظل ممزقاً بين تعلقه بالستالينية ، وبين الحركة التي ترعمها لمناهضتها ، وعلى صعيد شخصي كان التمزق بين إعجابه الذي بلغ حد العبادة بستالين ، وذكرى الأهانات التي لاتغتفر التي ألحقها به معبوده . وهو بتمزقه ذلك إنما يمثل جيلاً كاملاً من قادة الحزب ، جيل الذين كانت ظهورهم مرقاة ستالين الى الحكم ، والذين قدر عليهم بعد ذلك أن يعانوا من نزوات معلمهم ، وأن يتلقوا منه الركلة إثر الاخرى في أقفيتهم ، واذا كانوا عاجزين عن مجابهته في حياته ، فقد ثأروا من ذكراه وشبحه . بيد أنهم قد استطاعوا أن يرووا ظمأهم للثأر لمجرد أن مصالح سياسية كبرى — مصالح الوطن بكامله — كانت تقتضي التخلص من الطرائق الستالينية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد كان خروتشيف حقاً باعث وبطل الأصلاحات التقدمية التي تمت في السنوات العشر التي تلت موت سلفه . وإن المؤرخين الذين سيروون دخائل الحملة على الستالينية ، سيشيرون ، بلا ريب ، الى أعضاء آخرين بمجلس الرئاسة ، وفي طليعتهم ميكويان ومالنكوف ، على أنهم المحرضون الحقيقيون عليها . وعلى أية حال فانه حتى فترة انعقاد المؤتمر العشرين — شباط ١٩٥٦ — كان خروتشيف الى جانب مولوتوف وكاغانوفيتش ستالينيين لا مأخذ عليهم وحينا كان يتردد فيبقى بين المسكرين ، وفي الفترة المذكورة كانت موجة الخلاص من الستالينية التي فرضتها الحاجات الاقتصادية والاجتماعية ، قد قطعت شوطاً بعيداً حتى أصبح متعذراً إيقافها . بل لقد كان لزاماً المضي بها أبعد فأبعد . كانت معسكرات العمل الاجباري قد ألغيت قبل قيام المؤتمر العشرين . وكانت الضحايا التي نجت من الارهاب ومن حملات التطهير الواسعة ، تطالب بأن يعاد الاعتبار اليها والى ذويها وأصدقائها الذين قضوا نحبهم ، وقد لعلت صيحتهم في مناقشات المؤتمر العشرين . وكان تجاهلها أو الوقوف في وجهها بمثابة عمل انتحاري كما تحقق من ذلك بعدئذ مولوتوف وكاغانوفيتش . كان الارهاب الستاليني قد شهر به وتمت إدانته بيقظة الشعور الوطني . وقد طال الوقت بخروتشيف حتى أخلد للنزعة السائدة ، وأسلم نفسه لتيارها . وكان « خطابه السري » المفاجأة الوحيدة التي قام بها في حياته ، حتى ليمكن القول انه كان مفاجأة لصاحبه .

بهذا الخطاب أصبح خروتشيف موقد هيجان شعبي عرم ، والمعبر عن شعور عام باليأس والعار ، وكذلك توصل الى ان يتجاوز ذاته ، وان يهرب من

شخصيته الخاصة . ولفرط ما كان تكوينه السابق فجاً وثورياً فانه لم ينهض لهذا الدور الا متأخراً وبمزيد من القرف . وهكذا فانه خلف تصرفاته « المنفخية » ، وهجماته العنيفة على ستالين ، كان يخفي تبرمه وشكوكه الداخلية . وقد اتسم عمله كله ، منذ المؤتمر العشرين ، بسمة هذا التعارض بين عدائه المسرحي للستالينية وبين رغبته في حجز الاصلاحات التقدمية في نطاق ضيق .

وثمة قسم كبير من الرأي العام السوفياتي ، كان قد أدرك بوضوح ، هذا اللبس والأشكال في سلوك خروتشيف السياسي ، وأيضاً في الدوافع التي حملته على أن يبارك القطيعة بين الحزب والستالينية . وتلك المباركة ، التي كانت الى حد كبير أفلاطونية ( نظرية ) أصبحت بالتالي لغة مموهة ، لأنها كانت تخفي سداً منهجياً وبارعاً دون كل حركة ترمي الى ديموقراطية الأوضاع في الاتحـــاد السوفياتي . ( وعلى النقيض من ذلك ، فان صورة خروتشيف ، كقائد معركة ضد الستالينية، أصبحت في الأعوام الأخيرة ، أكثر ابهاجاً في الغرب وبعض أنحـــاء الشرق كبولونيا مثلاً ، منها في الاتحاد السوفياتي ) ونتيجة لـما تقدم ، فانه عند سقوط خروتشيف ، كان الرأي العام السوفياتي يعرف جيداً ، أن هذا الحادث لن يكون عائقاً دون مكاسب جديدة ، بل انه على العكس من ذلك سيمهد لها الطريق .

ان أزمة القيادة في عام ١٩٦٤ لا سابقة لها في الاتحـاد السوفياتي . ولم يعرف الناس قط حكومة مجردة من كل قدرة ، في حين أنها تحتكر كل المناصب العليا في الدولة . ولتلافي ذلك كان لا بد من تحطيم المطالة المزمنة التي كانت صفة الحكومة الأوتوقراطية . وقد تم حل هذه المشكلة توفيقاً بين ثورة شملت القصر ، وبين اقتراع شبه ديموقراطي في اللجنة المركزية .على أنه لا الثورة ، ولا الاقتراع

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

كان يمكن أن يتم بهذه السهولة، لو أن مجرد بضعة رجال «ظامئين للسلطة»، كانوا قد تعاونوا فيما بينهم على اقصاء خروتشيف. وان نجاح العملية كان يفترض أن معظم أفراد الكتلة الحاكمة سينقلبون ضد قائدها. وما كان لأعضاء اللجنة المركزية الذين يعدون بالمئات، أن يسلموا بتنحية الرجل الذي كان خلال أحد عشر عاماً سكرتيرهم الأول، لولا أنهم كانوا مقتنعين، قناعة أصدقائهم وشركائهم، أن ذلك كان لا بد منه ولا محيص، لأسباب سياسية. وحقاً ان خروتشيف اذ نصب نفسه زعيماً أوحد، قد أساء الى اللجنة المركزية، وحملها على المطالبة بالقيادة الجماعية. بيد أن أطماع خروتشيف الاوتوقراطية كانت، بحسب المعايير الموسكوفية، معتدلة نسبياً. وان تكن تلك الأطماع، على اعتدالها، قد أثارت مثل ذلك السخط، فذلك مافيه معتبر. ان كل فئة حاكمة، كل طائفة، على مايروي لنا الخبراء بعلم السياسة، تفضل سلطة رجل واحد على حكم لجنة، وتستبدل قطعاً بحكم الجماعة حكم الزعيم الفرد. وانه على مايقولون، «قانون الحديد» لهو الذي يحكم كل صراع على وراثة القمة بين أفراد العائلة السوفياتية. فلأي سبب اذن ضرب «بالقانون» عرض الحائط في هذه المرة، ولم رفض الفريق السوفياتي الحاكم، بلا أي لبس ولا ابهام، أن يسلم بسلطة خروتشيف الأوحد؟

— ٢ —

لو عمدنا الى تملي الفترة التي اعقبت ستالين، فسنلاحظ أنها تنقسم فترتين متمايزتين: الأولى التي تمتد من عام ١٩٥٣ الى عام ١٩٥٩، وتمتاز بنشاط اصلاحي

وانتقاص على الستالينية بلغ غايته . والثانية ، تشمل نهاية حكم خروتشيف وتتصف عامة بالركود ، بل بالسير القهقري ولعل احدى الفترتين تفيض أحياناً على أختها، ومع ذلك فان تناقضهما قائم ، بل انه لصارخ .

في أثناء الفترة الأولى ، نشهد نهاية أليمة الارهاب والحكم الكيفي الذي كان يمارسه البوليس السياسي ، كما نشهد اغلاق معسكرات الاعتقال العملاقة ، والغاء قانون العمل التسلطي المطبق في الصناعة ، وتعديل الامتيازات والتفاوت الخارق الذي كان الناس يعانونه . في تلك الفترة أعطي فلاحو الكولوخوزات نوعا من الاستقلال الذاتي ، وأصبحت المركزية الاقتصادية أكثر مرونة ،والرقابة على الحياة الفكرية والفنية أكثر طراوة . وتنفس المواطنون السوفيات بحرية لم يعرفوا مثلها منذ ربع قرن ،وما لبثت النتائج أن ظهرت في «بيانيات» الفعاليات الاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، وفي الاختبارات . وان معظم المكاسب العائدة للحقبة التي تلت ستالين انما ترجع لتلك السنوات الأولى . وفي ذلك الحين ، بين عامي ٩٥٦ و ٩٥٨ ، قدر للزراعة السوفياتية ، الخارجة من وهن عمّر بضع عشرات من السنين ، أن تزيد من انتاجها بنسبة ٣٠ ٪ ورغم أن هذا النمو كان بلا غد — ويرجع معظمه الى استنزاف بعض الأراضي العذراء — فان ذلك لم يحل دون اتخاذه أساساً لانعطاف ملحوظ في سوية العيش .

الا أن هذا الزحف الحثيث مالبث أن أصبح وئيداً ، ان لم ينكص على عقبيه في الفترة الثانية . ولقد تجلى هذا الاخفاق أكثر ماتجلى في القطاع الزراعي أكثر النقاط ضعفاً في الاقتصاد وليس الأمر لينحصر بمحصول عام ١٩٦٣ الذي

كان كارثة ولا بسوء الظروف المناخية . ان التقهقر كان قد ظهر واضحا قبل ذلك، وتلته مرحلة هبوط مديدة . وخلال السنوات الخمس ( ٩٥٩ — ٩٦٣ ) كان الجني هزيلاً أو رديئا أربع مرات ، ولم يكن عاديا الا مرة واحدة . ونتيجة للحملات الانتقادية التي كان من الطبيعي أن ترافق أزمة عام ٩٦٣ ، فقـــد أمكن بصورة لاتحتمل الجدل اظهار عجز البنيـــات الاقتصادية . وكذلك سلطت الأنوار على الادارة فكشفت عن عجزها . فالموظفون قد أعيام في الواقع أن يوزعوا بالعدل الموارد الغذائية الشحيحة . وشهد الناس سواء في المدن الكبيرة أو الصغيرة ضائقة لم يعرفوا مثلها الا في الأوقات الرهيبة التي أعقبت الحرب . وبدا أن بعض طبقات السكان كان أكثر تضرراً من الصينيين أنفسهم ، بعد ثلاث سنوات من الفيضانات والجدب ، وسوء الغلال . وتوقف ارتفاع مستوى المعيشة ، رغم التوسع المطرد في صنع الحاجات الاستهلاكية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وخلال السنوات الست الاخيرة من سلطنة خروتشيف ، فان أجور العمال السوفيات زادت بنسبة ٢,٤٪ في السنة حسبما أورد كوسيجين في تصريحه أمام مجلس السوفيات الاعلى وذلك في كانون الاول من عام ٩٦٤ . واذا ادخلنا في الحسبان ارتفاعاً جزئياً في الاسعار ـ ارتفعت اسعار الحليب واللحم رسمياً من ٢٥ الى ٣٠٪ ـ أمكن القول إن الاجور الفعلية لم تتغير بل لقد تدنت . والحقيقة إن حصاراً سرياً قد ضرب حول الاجور منـذ عام ١٩٥٩ أو ١٩٦٠ ( ولم ينكشف أمر هذا الحصار الا في نهاية عام ٩٦٤ وباشارة عارضة تخللت تقرير الرئيس الجديد للحكومة السوفياتية ) وكذلك أرجىء تطبيق التدابير التشريعية الرامية الى تخفيض

أوقات العمل في المصانع ، ورفع الاجور والتقاعديات الواطئة . حتى لقد وجب ضغط مشاريع البناء والاسكان، وهي التي لو نفذت بكاملها لبقيت عاجزة عن الوفاء بحاجات السكان. وأبطأت وتيرة الفعالية الاقتصادية. في عام ١٩٦٤ لم يرتفع الدخل القومي الصافي الا بنسبة ٣٪ مقابل زيادة بلغت ٦٪ أو ٧ في السنوات السابقة وزيادة مقدرة لعام ٩٦٥ بلغت ٨٪ . أما نسب نماء بناء المصانع وتجهيزها فلم تتجاوز ٣،٣٪ في عام ٩٦٤ مقابل ٧،٢٪ مقدر بلوغها في عام ٩٦٥ . على أن سلم التطور الصناعي لا يبرح مؤثراً : فالصناعة المعدنية على سبيل المثال ، بانتاجها السنوي البالغ ٨٥ مليوناً من الأطنان، أدركت المستوى الاميركي في مستهل سنوات[1] ٩٦٠. ولكن الازدهار، كدأبه في عهد ستالين ، كان متفاوتاً وأعرج ؛ إلا في الصناعة الثقيلة والتسلح . ولم تكن الكيفية نداً للكمية . فكانت مؤسسات الدولة التجارية تشكو فائضاً ضخماً من البضائع التي لا راغب فيها بسبب رداءة نوعها . وقد قدر هذا الفائض ببلغ مليارى روبل ، أي ما يعادل ثلث المبالغ الموظفة في الصناعة الخفيفة . وخلف هذه الكتلة من الأموال الكاسدة يتراءى واقع إضراب واسع عن الشراء ، وهذا الواقع ، رغم أنه لا يكاد يصدق في فترة عانى فيها انتاج البضائع الاستهلاكية أزمة حادة ، فانه يدل على مبلغ تردي الصناعات السوفياتية الخفيفة وعدم ملاءمتها.

كيف حدث أن الدفقة الاصلاحية التي انطلقت قوية جادة في السنوات الخمس الاولى من حكم خروتشيف قد ركدت وتجمدت في الاعوام الخمسة التالية؟ نجد إجابة جزئية على ذلك في الظروف الخارجية، وبصورة خاصة في ذلك السباق الهائل نحو صنع الاسلحة المعتادة منها والنووية . انه ليتعذر علينا معرفة المبالغ التي ينفقها الاتحاد السوفياتي على التسلح ، لو شئنا الرجوع الى الموازنة الرسمية للدفاع .

---

(١) هكذا وردت

ولكن يبدو لنا أن الدخل القومي ( الذي بلغ ١٧٥ مليار روبل في عام ١٩٦٤، ويتوقع أن يبلغ ١٨٩ ملياراً في عام ١٩٦٥ انما يصرف منه ٥٥٪ فحسب على الاستهلاك الخاص والخدمات الاجتماعية والتربوية .

أما الباقي فموزع حسب نسب غير معلومة بين الاموال الموظفة وبين نفقات التسلح . نلاحظ في القطـــاع الصناعي الخالص أن الاموال الموظفة في الصناعة الاستهلاكية بلغت ١٥٪ ومثل ذلك في الزراعة . ويكفي أن نعطي هذه الارقام لكي نتحقق من عظم المشكلة . فان بلداً يكرس نصف موارده تقريباً لاستثمارات جديدة وللدفاع ، لا بـد له من أن يقاسي ضائقات ومصاعب اقتصادية واجتماعية . ولا مراء في أن الدخل القومي قد نيف على ضعف ما كان عليه في عهد ستالين ، وأن حجم الاستهلاك الخاص قد تضاعف أيضاً . الا أن ذلك ، كما رأينا ، قـــد حدث معظمه قبل عام ١٩٦٠ وان التراخي الذي اعقب خلف نتائج معنوية وسياسية. فطالما أن الفقر والافلاس اللذين عاناهما الشعب في عهد ستالين ، مازال ذكراهما طرية ، فان بعض التنازلات المتواضعة ، وتعديلاً طفيفاً للسياسة الاقتصادية ، كانت كافية لبعث الرضا والحماسة . ولكنه ، حين عدلت السياسة الاقتصادية ، فان مستوى الحاجات الاجتماعية والآمال قـد ارتفع ايضاً . وطالما أن آمالاً كثيرة ، وحاجات كثيرة ، لم تصب شبعاً فان السخط والاستياء كان لا بد لهما من الظهور .

ولقد استفحل خطر هذه المصاعب بروافد التحكم ، والبلبلة ، وفساد الادارة . وقدمت الصحافة تدليلاً على ذلك ، أمثلة لا تعد ، كلها فاضح ، وأليم الوقع ، وتستدعي بالضرورة تذكر « الأرواح الميتة » لـ « غوغول » . إن « بهمنة (١) » ، وعشوائية الجهاز الأداري في الاتحاد السوفياتي لتكافئه مثل الذي

---

(١) Bêtise

تكلفه إياه الاسلحة الباهظة القيمة . إنهم « يجلدون » كميات هائلة من الموارد والطاقات . وإذن فان رقابة اجتماعية حقيقيـة على الادارة ، هي أولى مايجب في سبيل تأميم الاقتصاد تأميماً كاملا . ولكن الجهاز الاداري قد أصر على مقـاومة الرقابة ، وإن خروتشيف ، في السنة الاخيرة من حكمه،قد جسد هذا الرفض . فان قراراته التحكمية ، وهوسه بالتخطيط ، هوساً كانت تفضحه الأرقام ، كل ذلك يحمله إلى حد كبير مسؤولية النكبة الزراعية . لقد ألح إلحاحاً على استثمار بقاع واسعة عذراء بدلاً من تنشيط الزراعة المكثفة وبدون ان يلقي بالا لا الى المعارضة التي لاقاها في صفوف الحزب ، ولا الى نصائح الخبراء ، كما لم يأبه بشتى نذر الطبيعة بما يتعلق بالأراضي العذراء . لقد كان يعتقد بيقين أنه يمسك بين يديه حل مشكلة اللحم الذي كان لايبرح قليلا في السوق ، فدفـع البلاد بكاملها الى العكوف على زراعة هذا النوع من الحبوب بدون ان يحسب حساباً لطبيعة الأرض أو المناخ . ووضع خطط الأعشاب التي أوجب تطبيقها من أقصى الاتحاد السوفياتي إلى أقصاه . وقرر في السنوات الأخيرة من حكمه ازالة الحقول الصغيرة أو الأقلال من عددها وهي الحقول التي كان يملكها الفلاحون التعاونيون ويستغلونها لحسابهم . وهذا القرار الذي يمس مصالح ملايين الفلاحين بقي سراً طالمـا بقي خروتشيف في السلطة ، ولم يذع إلا بعد أن تولى الحـكم خلفاؤه . واندفع كالمحموم يغير ويبدل في الجهاز الادارى ، ثم يعيد النظر في ماصنع مرة بعد مرة . وكانت تنظيماته الجديدة هذه في رأيه بمثابة إصلاح حقيقي : فكان يشبه الى حد ما قائد اوركسترا تذكر الامثال الروسية ، أنه كان في سبيل تحسـين موسيقاه ، يعمد باستمرار الى اجراء تبادل بالمقاعد بين موسيقييه . وكقاعدة عامة ، فان التنظيمات التي أجراها أحدثت تبدلاً في وسائل الرقابة التي تمارسها قمـة الحـكم ، ولكنها

لم تكن لتدع أي مجال لرقابة تمارسها القاعدة. وهكذا فهي ، فضلا عن أنها لم ترض الجماهير ، أثارت غضب البيروقراطية التي سئمت كل هذه الرجات فانقلبت ضد خروتشيف .

## -٣-

خلال السنوات الاولى التي تلت موت ستالين ، لوحظ بحق أن الخلاف بين الدولة والمجتمع ، وبين البروقراطية والشعب قد سكن وتطامن . ولكنه في سبيل أن يعود كما كان حادا . فالتوتر القديم بين النزعات التقدمية بالاتحاد السوفياتي وبين الأوساط الحاكمة المحافظة عاد الى الظهور . ولقد كان من شأن هذا التوتر وذاك النزاع أن أديا الى نسف الستالينية في أوائل سنوات ١٩٥٠ . كانت البنية الجديدة للاتحاد السوفياتي قد أصبحت لا تتلاءم مع بنية فوقية سياسية ورجعية وكذلك أسلوب الحكم الذي وضع على أساس إخضاع شعب نصف همجي ، ومتخلف عن عصر الصناعية ، فانه أصبح متعذراً فرضه على بلد تطور خلال ربع قرن ، بالتوعية الجماهيرية ، والتوسع العمراني ، والتصنيع . كما أن مذهبية الحزب التي كانت تعكس عزلة الاتحاد السوفياتي ، والهبوط المعنوي بعد الثورة ، أصبحت لا تلائم بلداً وجد نفسه بعد ربع قرن على رأس ثلث الانسانية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولقد عمل تلامذة ستالين الذين خرجوا على تعاليمه وخلفوه على تخفيف حدة الخلاف ، ولكنهم لم يتوصلوا الى حله . فما وسعهم أن يقدموا الا حلولاً غير شرعية المولد ومتنافرة ، لقد خلصوا الدولة التي ورثوها من الأرهاب وحركات التطهير ولكن أعباءهم دفعها في تساوق وانتظام . لقد حرروا المواطن السوفياتي من الخوف ولكن لم يستطيعوا أن يوحوا اليه بالثقة . وكذلك حرروه من الاضطهاد ولكن دون منحه الحرية . وشجعوه على أن يفكر إلا أنهم لم يسمحوا له بالأعراب عن أفكاره . أما خروتشيف فقد بدأ بتشذيب الجهاز البيروقراطي ، وضغط امتيازاته .

ولكن رغم أنه فعل ذلك هادفاً دعم سيطرة البيروقراطية وحصانتها ، فان هذه الطبقة تكلبت بامتيازاتها وادعاءاتها ، بل أظهرت فتوراً في مكافحة الفساد الدامغ الذي كان متفشياً في أوساطها .

ان الحالات النفسية للجماهير قد تغيرت بلا مراء مابين ١٩٥٣ و ١٩٥٤ . فأن حكم ستالين قدتركها وراءه ساكنة ممتلئة بالحقد ولكنها مروعة ، يائسة ولكنها عاجزة عن المقاومة ، غير قادرة على احتمال قدرها ، ولكن عاجزة ايضاً عن تبديله . وفي نهاية حكم خروتشيف كان الارهاب قد انتفى ، والمرارة القديمة التي تشيع الشلل لم يبق منها الا الأثر ، الا اننا نجد محلها استياء غير مكتوم من الفوضى الاقتصادية ، ومن حظر النقد والمعارضة . وكان الجهاز الوظيفي بعجزه وامتناعه على الاصلاح باعثاً على التذمر والسخط .

واذا كان حقاً أن البيروقراطية قد تطورت كثيراً منذ حكم ستالين ، فان المجتمع السوفياتي كان أسرع في تطوره . وان اندفاعه الذاتي نحو التقدم هو الذي صنع هذا التغير فالعمران والتصنيع ما انفكا يبدلان من بنيته وتركيبه ، والجدول التالي يوضح مدى هذا التحول الذي لا نظير له في التاريخ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

**تقدم العمران في الاتحاد السوفياتي**

| السنوات | مجموع السكان بالمليون | سكان المدن | سكان الريف |
|---|---|---|---|
| ١٩٢٠ | ١٣٧ | ٢١ | ١١٦ |
| ١٩٢٦ | ١٤٧ | ٢٦ | ١٢١ |
| ١٩٣٩ | ١٧١ | ٥٦ | ١١٥ |
| ١٩٥٠ (١) | ١٧٨ | ٦٩ | ١٠٩ |

(١) منذ عام ١٩٥٠ شملت الاحصاءات سكان الأراضي التي الحقت بالاتحاد السوفياتي في عام ١٩٣٦ .

| السنوات | مجموع السكان بالمليون | سكان المدن | سكان الريف |
|---|---|---|---|
| ١٩٥٩ | ٢٠٩ | ١٠٠ | ١٠٩ |
| ١٩٦٢ | ٢٢٠ | ١١٢ | ١٠٨ |
| ١٩٦٤ | ٢٢٦ | ١١٨ | ١٠٨ |
| ١٩٦٥ | ٢٣٣ | ١٢٢ | ١٠٨ |

وهكذا فانه خلال جيل ازداد عدد ساكنة المدن بنحو مئة مليون نسمة وان زهاء نصف هذا التكاثر قد حدث بعد سقوط ستالين . في مستهل سنوات ٩٥٠ كانت ساكنة الريف ماتبرح تؤلف الكثرة العظمى . وفي مطلع سنوات ٩٦٠ أصبحت الكثرة وقوامها سكان المدن . وفي يومنا هذا يؤلف هؤلاء ٥٥٪ من السكان .

وبالمقابل ، فان عدد عمال المصانع ومستخدمي المكاتب ، قد قفز من ٤٤م في ١٩٥٣ الى نيف و٧٥ م في عام ٩٦٥ أي أنه نما عا يفوق نسبة ٧٠ ٪ ( ٥٥ م تقريبا هم عمال ) . وأصبح ثلاثة أرباع السكان المنتجين يعملون لدى الدولة . وكان فلاحو الكولخوزات يؤلفون الربع الباقي . و كذلك فانه بمضي نيف وعشر سنوات أختل التوازن الاجتماعي كليا . فما لبث (١) الفلاحون أكثر بكثير من المثقفين . من أطباء وأساتذة وموظفين ومدراء ورجال علم وعمال مكتبيين .

ARCHIVE

وتقهقرت روسيا الفلاحين ( الموجيك ) بعيداً في الماضي . وليس الأمر أن الفلاحين قد لاحظوا أن عددهم آخذ في النقصان ، بل لقد لاحظوا أيضا ان نفوذهم المعنوي والثقافي قد أصبح أقل وزنا وكاد يشيل . فالروابط التي كانت تشد المثقفين والعمال الروس الى صيغة حياة الموجيك ، وأسلوبهم في التفكير ، آخذة في

(١) بدلا من تعبير فما عاد المستعمل خطأ .

الزوال . وكلما مضت سنوات عدة تضاءل وانكمش ذلك الفريق من سكان المدن ، الذي ماتبرح ذهنيته تحمل سمة بيئة متخلفة ثقافيا ، وأصل ريفي . ويتعاظم كل يوم عدد الأشخاص الذين ورثوا سكنى المدينة عن آبائهم أو أجدادهم . وان منظر المدن ، صغيرها وكبيرها لآخذ في التطور . فالتحول وعدم الاكتراث التقليديان في السلاف في طريق الاضمحلال ، وجماهير المدن تتخذ أكثر فأكثر طابعا غريبا أي أنها تحقق المزيد من المكاسب في الطريق نحو الحياة العصرية كما أنها ترتدي طابع التفرد . وان التقدم المستمر في مجال التربية ليعطي هذا التبدل مدى وعمقا فأثناء السنوات العشر الأخيرة ، بعد اثنتين ، تضاعف عدد التلامذة في المعاهد الثانوية ، كما تضاعف عدد الطلاب بالجامعات .

وان الخروتشيفية لتمثل بصورة أمينة تقريبا التوازن الاجتماعي ومعدل المستوى الثقافي مابين ١٩٥٠ و ١٩٥٥ وهي الفترة التي كان فيها وزن الطبقة الفلاحية غير المتطورة الا قليلاً أرجح بكثير مما هو عليه الآن . ان خروتشيف نفسه كان على التخوم بين الروسيا القديمة والحديثة فاحدى قدميه في المدينة الحديثة والثانية في القرية القديمة .

« بصرف النظر عن المكاسب المحققة حتى الآن» ، قلت هذا في عام ١٩٥٩ - « مازال ثمة مناطق واسعة بدائية ومتخلفة في الاتحاد السوفياتي الحالي ، وان قوة الخروتشيفية آتية حتما من أنها حصيلة هذا الخليط من التقدم والقدم . فنحن مازال نجد الكثير من صفات الموجيك القديم في خروتشيف نفسه . انه يجسد الفلاح الواقف على عتبة العصر الذري ، آخر موجيك يتكلم باسم الروسيا . . . وبمضي سنوات معدودة ، لن يكون ثمة أي أثر لروسيا الفلاحين . فان طبقة عمالية جديدة تنمو وتتسع . فمنذ أوائل سنوات ٩٥٠ كان معظم العمال الشبان الذين يفدون

للجلوس على مقاعد المصنع قد أنهوا تحصيلهم الثانوي. وقد لعبوا دورهم في تطوير واستئناس الصناعة. وسلكوا حيال مدراء العمل وقادة الحزب سلوك الواثق من نفسه بفعل ثقافته. ومن عام لآخر يزداد عدد «عمال المصانع» المثقفين هؤلاء، والمطالبة بأن يتولى الهل الأشراف على المصنع ستأخذ لهجة جديدة بمقدار مايصبح هؤلاء أكثر قدرة على هذا الأشراف. وان تثقيف الجماهير هو في سبيل أن يردم الهاوية التي تفصل بين العمل اليدوي والعمل العقلي. ألا وانه في الأعماق السحيقة لهذه الهاوية كان التحكم البيروقراطي الروسي والستالينية ضاربين بجذورهما ويمكن التكهن بأنه اذا تقلصت هذه الهاوية، ومد فوقها جسر، فانه حتى الديكتاتورية البيروقراطية المخففة التي يمارسها خروتشيف ستصبح مرفوضة ومستحيلة.»

وكذلك قلت[1]: «بصرف النظر عن ثقته العظيمة بنفسه، وقوته التي لاتقهر، وتصرفاته المرسلة على السجية، فان خروتشيف رئس مالا يمكن أن يكون إلا فترة انتقالية قصيرة ولاثبات لها. والمستقبل لن يحيئنا بعصر خروتشيفي شبيه بالعصر الستاليني. لا لأن أيام خروتشيف معدودة — إذ تسنم الحكم وقد تجاوز الستين، ورقيه ستالين وهو في الاربعين — بل لما هو أعظم أهمية، وأعني هذا المد الخارق في قوته الذي يدفع المجتمع السوفياتي، والذي يحوله بسرعة يبلغ من حدتها أن مضي عدد من السنين سيكون كافياً لأن تبدو باطلة ومستحيلة علاقات، وأوضاع، وقوانين، وممارسات سياسية، خيل الى الناس زمناً طويلا أنها راسخة الجذور، ممتنعة على الزوال. وإن هذا المد قد خرق

(١) اسحق دوتشر: التناقض العظيم ص ٢٠ ـ ٢١ لندن ١٩٥٩

القشرة السميكة للستالينية . ولابد أنه سيتخطى قشرة أقل منها سماكة ، وأكثر منها خفة : « قشرة الخروتشيفية » .

مع هذا ، فانه على الرغم من أن مفاهيم الطبقة العاملة قد تبدلت تبدلاً ظاهراً، وكذلك مفاهيم المثقفين السوفييت وعلى الرغم أيضاً من كفاءاتهم العقلية الجديدة، وقلقهم الأكيد. فانهم حتى الآن لم يكونوا حركة سياسية منظمة منبثقة عن القاعدة ، ولا حركة معارضة تستقطب الوطن ضد النظام البيروقراطي. إن الاضرابات في المصانع، والتظاهرات في الشارع ، بل والاضطرابات في سبيل الغذاء لم تكن نادرة . وتألفت فرق معارضة سرية في الجامعات الروسية – حلقات شتى للبحث والدعوة « اللينينية » – كان اعضاؤها يعاقبون بتهمة الخيانة العظمى ، وكان عدد كبير من المنشورات ، والمقالات ، والقصائد ، والقصص التي رفضتها الرقابة ، يتناقل تحت المعطف والرداء في موسكو ولينينغراد ، والمدن الكبيرة الاخرى . ولكن سائر هذه الانعكاسات التي تترجم الاستياء الاجتماعي ظلت مبعثرة وشتيتاً . فلم تنصهر لتعبر عن استياء وطني . أي أن الموقف في هذا المجال لم يتغير عما كان عليه في أيام ستالين . ولئن كان بعض الشعراء والروائيين قد استطاعوا رفع أصوات احتجاجهم ، فتكون لها اصداؤها المختلفة ، فان المجتمع بجملته لم يبرح عاجزاً عن الافصاح عن رأيه : وبقيت الطبقة العمالية خرساء سياسياً .

إبان سنوات ١٩٥٠ خرقت قشرة الستالينية من فـوق ، أي من قبل الستالينيين انفسهم . وكان ذلك لأنه ما من حركة آتية من القاع ارتفعت حتى تصلح او تغير نظام الحكم . وتلت ذلك عشر سنوات ، فاذا قشرة الخروتشيفية يهشمها الخروتشيفيون أنفسهم ، وللسبب السابق نفسه . ثما من أحد سواهم كان قادراً على ذلك ولا مستعداً للقيام به . ومرة أخرى راحت الفئات الحاكمة تبحث في تقويم

البنى متوسلة الى ذلك بإصلاح هابط من الأعلى. على أن رقعة اصلاح كهذا ستكون أضيق مما كانت عليه في عام ١٩٥٠ . لقد تهيأ لخلفاء ستالين أن يقذفوا في اليم تركة ثقيلة من الارهاب ، وأن يصونوا في الوقت نفسه سلامة قاعـــدة الحكم البيروقراطي . ولا يستطيع خلفاء خروتشيف ذلك ، فليس بميسورهم تهدئة الاستياء الشعبي بتنازلات مسرحية كتلك التي حدثت في عام ٩٥٠ . ان التنازلات الجديدة يجب أن تقدّ عميقاً وعريضاً في البنيان البيروقراطي نفسه . هـذا البنيان الذي اصبح في الساعة الحاضرة ، وقـد تعرى من كل ضمانة ، معرضاً للخطر . ليس محور النقاش اليوم حق « زعيم » ، او فئة حاكمة بترويع الوطن، بل جوهر مبدأ استئثارهم بالحكم ، أي « حق » الكلام باسم شعب غير مسموح له بأن يتكلم في مصالحه . وان المصاعب التي يعاركها العامل السوفياتي حالياً ، لتقتضي لا بمجرد قسط اوفر من الليبرالية الابوية تمنحه البيروقراطية ، بل الحرية الحقيقية ، وتقدماً أكيداً نحو الاشتراكية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ان التناقض المستمر بين حاجة الى الرقابة تستشعرها القاعدة ، وبين عجز هذه القاعدة عن ممارسة الرقابة التي تريد ، مسألة تثير الفضول والأسى معاً . ولم يكن الأمر عجباً في أواخر عهد ستالين . لأن ثلاثين سنة تحت النير كانت قـد برت العمال والمثقفين، وأخوت الفكر السياسي. وفي عقد السنين التي تلت أخذت الجماهير تتعلم من جديد عادات تكوين فكر مستقل ، ولكن هذه التنشئة الجديدة تمت ببطء متناه ، أما الحاكمين فقد نجح أيما نجاح في عرقلة سيرها . على أنه لا يمكن أن نعزو الى الرقابة البوليسية أنها هي التي منعت كل معارضة تقدمية من أن تتبلور وتعمل على الصعيد الوطني . فمنذ ستالين اصبحت هذه اللاحقة أخف مما كانت عليه في روسيا القيصرية ، يوم كان الثائرون والمثقفون، جيلاً بعد جيل، يطرحون براجمهم ، ويكافحون لبلوغ أهدافهم تارة في السر وتارة علانية .

لامشاحة في أن التعارض بين الحاكمين والمحكومين يختلف طبيعة عما كان عليه حينذاك وليس جذريا بمقداره. اذ أنه ليس تعارضاً طبقياً. وانه ليشق على الشعب أن يتخطى الارث الذي خلفته في التفكير السياسي والابداع الاجتماعي بضع عشرات السنين سادها الانقياد والأحدانية . ولكنه، من أجل مصلحة الطبقة العاملة نفسها ، ومن أجل سلام الاشتراكية ، يجب على الطبقة العاملة في الاتحاد السوفياتي أن تتخطى ذلك الأرث . (١)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١) كان يسرنا لو خلا المقال من هذه الانتقادات . أما وقد تضمنها فلم يكن من الأمانة إغفالها ، ولعله يشفع لنا ، في الأوساط الاشتراكية الصديقة ، أن المقال نشر في مجلتين لاتقلان عنا حرصاً على صداقة تلك الأوساط . —المترجم—

# لواء الاسكندرونة

## في ذكرى اغتصابه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يصادف التاسع والعشرون من شهر تشرين الثاني الذكرى الثامنة والعشرين لاغتصاب لواء الاسكندرونة العربي ، ذلك الجزء الغالي من الوطن العربي ، الذي عصفت به يد الاستعمار فقدمته لقمة سائغة للجمهورية التركية ولم تراع الحق والمنطق في تقريره مصيره .

لقد ادعت الحكومة التركية - حينما سنحت لها الفرصة المناسبة لاقتطاعه من الوطن الأم - ان سكانه الترك يشكلون أكثرية أهله ، بينما كانوا في الحقيقة أقلية مطلقة ، ذلك أن العرب كانوا الى عام ١٩٣٨ يشكلون أكثرية تتراوح بين ٦٥ - ٧٠٪ من سكانه . فاللواء من

هذه الناحية ومن ناحيــــة استيطانه عربي صرف ، حيث أن العنصـــر التركي يعد طارئاً على ربوعه لأنه لم يعرف اليـــه سبيلاً قبل القرن السادس عشر . والى تاريخ فصــله عن سورية لم تكن انطاكية التي تبجح الاتراك بأنها المدينة التي تسكنها اكثرية تركية ساحقة ـ ولذلك نقلوا عاصمة اللواء من مدينة الاسكندرونة اليها ـ أقول لم تكن انطاكية تضم أكثر من ٤٠٪ من الاتراك بين سكانها ، وأما بقية المدن والقرى فقد كان الاتراك أقلية ضئيلة فيها .

## قيمة اللواء الاقتصادية :

أما من حيث قيمته الاقتصادية فاللواء من أخصب مناطق الزراعة في سورية . فالسهول التي تزرع فيها الحبوب بانواعها المختلفة ، والكروم والبساتين التي تنتج أجود الفاكهة وأوفرها فيه فسيحة . وتبلغ مساحة اللواء نصف مساحة لبنان تقريباً ( حوالي ٥٠٠٠ كيلومتر مربع ) ، لاتجد فيها الا حقلا ينتج الحبوب أو جنائن تنتج الفاكهة أو جبالا تغطيها الغابات الكثيفة ، وهو أغنى وأجمل منـــاطق سورية اطلاقاً بالمصايف التي لاتقل جمالا وطراوة عن مصايف لبنان ، فهي ذات مياه عذبة شديدة البرودة ومتوفرة في شتى المناطق بكثرة مدهشة . فشلالات مصيف « دفنة » ( الحربيات ) هي من الغزارة والقوة بحيث تستطيع أن تدير مصانع للكهرباء ، وينابيع مصيفي « خضربك » و « بتياس » تجري أنهاراً رقراقة صافية ، ومياه مصيف « العاتق » مشهورة بخفتها وفائدتها للصحة بحيث كانت تملأ في الصفائح والقوارير وتنقل الى خارج اللواء ، ومياه مصيفي « صوغوق أولوق » و « زكزلك » و « الاشتر » في ضواحي مدينة الاسكندرونة وفي المناطق القريبة منها ، ومياه مصايف « المحمودية » في قضاء قرقخان ، وعيون مصائف « المغاير » و « بيلان » إن هي إلا ينابيع غزيرة تمد هذه المدن بمياه عذبة ، وكلها تبلغ من البرودة حداً لايحتملها ملمس اليد أكثر من دقيقة واحدة . هذا الى أن كثيراً من المصايف الثانوية تتناثر هنا وهناك في مناطق اللواء العالية وكلها تتوفر فيها المياه العذبة الباردة .

كانت علاقة لواء الاسكندرونة الاقتصادية بالمنطقة الداخلية من سورية من الأهمية بحيث تأثر كل من اللواء نفسه ومنطقة سورية الشمالية ، وبخاصة منها محافظة حلب ، تأثراً بالغاً من هذه الناحية ، بعد الحاقه بتركيا ، لأن اللواء كان المصدر الهام الذي يمد المنطقة الشمالية من سورية بالفاكهة والخضر والحبوب والأسماك ولا سيما الحطب والفحم الأسود ، كما كان منطقة التصريف لمصنوعات مدينة حلب . والعلاقة التجارية الوحيدة للواء ـ من جميع الوجوه ـ كانت ، قبل اغتصابه ، مع محافظة حلب وقليلاً مع محافظة اللاذقية . اما بعد فصله عن الوطن الأم فقد كسدت فاكهة اللواء وخضره وحبوبه بحيث تعرضت للتلف ، وأصبحت تباع بأثمان بخسة ، وكثيراً ما

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كان يعمد البقالون الى طرح كميات كبيرة منها في القمامة آخر النهار بعد فسادها ، وذلك الى ان نظمت وسائل نقلها الى المناطق الداخلية في تركيا .

ولواء الاسكندرونة تحده محافظة حلب من الشرق ومحافظة اللاذقية من الجنوب ، ولا تبعد مدينتاه الهامتان انطاكية واسكندرونة عن مدينة حلب اكثر من ١٠٠ ، ١٦٠ كيلومتراً وميناء الاسكندرونة من أحسن الموانىء موقعاً ورحابة وقابلية للاعمار والتوسيع ، وبفقدان اللواء فقدت سورية أهم منفذ لها على البحر ، لأن هذا الميناء كان النافذة التي تصلها بالعالم الخارجي من حيث التجارة والاقتصاد قبل انشاء مرفأ اللاذقية .

## كيف تمت المؤامرة :

إن المؤامرة التي حبك خيوطها الاستعمار الأنكلو - افرنسي بالاتفاق مع تركيا لاغتصاب لواء الاسكندرونة ، وفصله عن الوطن الأم ، وضمه الى الجمهورية التركية ، كانت من أشد المؤامرات جوراً وافتئاتاً على الحق العربي الصريح . لقد اغتنم الأتراك تجهم الجو الدولي بين دول المحور والحلفاء الغربيين ، في وقت كان هؤلاء بحاجة الى حليف جديد ، وفي وقت كانت سورية على أبواب حل مشاكلها السياسية والقومية مع الاستعمار الافرنسي المقنع بالانتداب ، فوجهوا هذه الطعنة الغادرة من وراء الظهر . اذ بدلا من ان يمهلوا الجمهورية السورية - التي لم يجف مداد المعاهدة التي عقدتها مع فرنسا للحصول على استقلالها سنة ١٩٣٦ - الجو الملائم للسير في طريق الاستقلال وبناء دولتها الفتية بناء وطيداً ، كما تقتضي شهامة الجوار ، أثاروا مشكلة الاسكندرونة وهم عارفون أن لا حول ولا قوة لسورية في الدفاع عن اراضيها بمفردها .

أما الافرنسيون فلم يكونوا جادين في الدفاع عن حق سورية في اللواء ، بل كانوا طرفاً في المؤامرة مع الانكليز ، وهؤلاء آثروا ارضاء الاتراك لكي يستميلوهم الى صفهم طالما أن لا فائدة لهم من صداقة العرب فيما هم عليه من ضعف ، أو كما عبر الكولونيل « كوله » ، مندوب المفوض السامي الافرنسي المعاون في اللواء بقوله : « ان صداقة الاتراك لنا تربحنا مليون حربة تكون الى جانبنا بدلا من ان توجه ضدنا » . هذا عدا عن أن صداقة تركيا للحلفاء تتيح لهم بسط سيطرتهم على منطقة الشرق الاوسط . أما العرب فليس لديهم القوة التي تتهدد فرنسا وانكلترا .

في الحقيقة بدأت مناورات الاتراك واطماعهم تحوم حول لواء الاسكندرونة من عام ١٩٢١ ، حينما عقدت تركيا مع فرنسا اتفاقية « أنقرة » في ٢٠ تشرين الاول ١٩٢١ ، وقد انهيت بموجبها حالة الحرب بينها وبين فرنسا في كيليكيا التي تنازلت لها فرنسا عنها ، وكانت تشكل الجزء الشمالي من الوطن العربي السوري . كما منح اللواء - بمقتضى هذه المعاهدة - حكماً

اداريا خاصاً ، خص الأتراك فيه بامتيازات في التعليم والادارة ، وبحق التمتع بكافة التسهيلات لتطوير ثقافتهم العنصرية ، وبحق احراز لغتهم مركزاً رسمياً في دوائر الحكومة . وبذلك مهدت السبيل لانسلاخ اللواء فيما بعد عن سورية ، بعد أن هيء لذلك التمهيدات الضرورية ، ذلك انه قد أصبح له نظام اداري خاص يسمح للافرنسيين بمزيد من حرية التصرف لمصلحة العنصر التركي متى شاؤوا ، ولكن ضمن الوحدة السورية ، ودون اخلال بالشخصية الحقوقية الدولية التي تمارسها الحكومة السورية على اللواء من حيث تطبيق قوانينها ومراسيمها التشريعية فيه ، وحق تمثيل سكانه في مجلسها النيابي والتمتع بسائر الحقوق التي تمارسها على بقية المحافظات .

كان اللواء من الوجهة القانونية محافظة من المحافظات السورية ، لسورية الحق في تعيين حاكمه ( متصرفه ) وموظفيه ، انما لعب الافرنسيون ، بما كان لهم من سلطة مطلقة فيه يرأسها معاون المندوب السامي الافرنسي ، دوراً كبيراً في اعطائه صبغة خاصة تبعد الشقة جهد المستطاع بينه وبين امه سورية ، فقد كانت السلطة الافرنسية تقبض على ادارته بيد من حديد ، وتوجه جل همها الى مراقبة طلاب مدارسه العرب الذين كانوا يؤلفون طلائع الطبقة النيرة بين ابنائه ، بفضل الروح التي نفخها فيهم مدرسهم في الثانوية الوحيدة الكائنة في انطاكية ، الأستاذ زكي الأرسوزي ، الذي ما لبث ان رفع الى مقام الزعامة الروحية لجميع شباب اللواء ، بفضل اخلاصه وجرأته والتفاف الناشئة حول مبادئه القومية الوطنية .

كانت السلطة الافرنسية توجس من أن تتسرب أنباء النضال الوطني في سورية الداخلية ضد الاحتلال والانتداب الى أبناء اللواء ، فتنشر الجواسيس بينهم ، وتسلط على الطلبة كابوس الطرد من المدارس ، وعلى الشباب المثقف نقمة الحرمان من الوظائف ، وعلى الناشئة سيف الاعتقال والسجن . وكثيراً ماذهب الأبرياء ضحية الوشايات والشبهات بحيث اتهموا باعتناق المبادىء الشيوعية وغيرها من التهم الملفقة وتعرضوا لسياط رجال الأمن العام وتعذيبهم . ولم يسمح للعرب كما سمح للأتراك بانشاء النوادي الرياضية والفنية ، بل أن النادي الوحيد الذي انشىء في انطاكية باسم « نادي الفنون الجميلة » باشراف الاستاذ الارسوزي ، وكان أعضاؤه من طلبة المدرسة الثانوية ، مالبث بضعة شهور حتى أغلقته السلطة الافرنسية وصادرت محتوياته ومكتبته الى الابد ، بينما بقي نادي الاتراك الرياضي المسمى « كنج سبور قلوبي » ( نادي الشبان الرياضيين ) يتمتع بالتسامح والتسهيلات الكثيرة من قبل السلطات الافرنسية بالرغم من الدعاية التركية الكمالية (١) التي كانت تعج بين جدرانه دون تحرز أو تحفظ . هذا عدا عن الاضطهاد الذي ألحقته بزعيم الشباب الاستاذ زكي الارسوزي الذي سرحه من وظيفته في التدريس وابعدته عن اللواء ، وعدا

(١) نسبة الى الرئيس « كمال أتاتورك »

عن ايثار الاتراك دون العرب في الوظائف الكبيرة والصغيرة ، والحد من البعثات العلمية للعرب وإكثارها للاتراك ، وتساهلها مع النشاط الذي تبذله صحف اللواء التركية – الى جانب صحف الجمهورية التركية التي كانت ترد الى الاتراك بكثرة تحت سمع الافرنسيين وبصرهم – في سبيل بث الثقافة والافكار القومية التركية ، بينما كانت جرائد العرب المحلية لايسمح لها الا ان تكون جرائد أخبار محلية ، ناهيك عن أن الجرائد السورية الواردة من دمشق وحلب كانت تخضع لرقابة شديدة وللمصادرة في أغلب الاحيان .

انما يتضح الفرق بين معاملة الافرنسيين للعرب ومعاملتهم للأتراك ان الرقابة سرعان ما كانت تفرض على أي واحد من رجالات سورية الوطنيين فيما اذا أتى الى اللواء زائراً حيث يتبعه رجال الشرطة والأمن العام مثل ظله ، ويحولون دون أية مظاهرة شعبية لاستقباله ، بينما وقفت السلطات الافرنسية مكتوفة الايدي متسامحة أمام المظاهرات الشعبية التركية الضخمة التي قوبل بها والي عينتاب أثناء زيارته لانطاكية في ربيع عام ١٩٣٤ ، والتي كان لها ضجة هـــائلة ، وقد تجرأ الاتراك اتباعها على اقتحام دار الحكومة بجموع ضخمة وبشكل مثير ، بينما كانت تجري مراسيم استقبال الوالي التركي بصورة رسمية في مقر المستشار الافرنسي في سراي الحكومة . وباستطاعتي أن أقول أن الدعاية التركية ونشاط الاتراك في بث الروح التركية في اللواء قد بدأت من ذلك التاريخ بشكل مثير ، كما بدأت الصحف التركية تلهب شعور الاتراك وتنفخ فيهم روح التعصب والكراهية للعرب .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

## الطعنة التي وجهت الى معاهدة ١٩٣٦ في ظهرها :

هذه لمحة موجزة عن حالة اللواء قبل عام ١٩٣٦ ، أي قبل أن تعقد المعاهدة في هــذا العام بين السوريين والافرنسيين على منح سورية استقلالها . على أن الحكومـــة التركية لم تثر المسألة على الصعيد الرسمي الا بعد أن تم توقيع المعاهدة المنوه عنها ، وكان الوفد السوري برئاسة السيد هاشم الاتاسي في طريق عودته الى سورية . حينئذ تقدم سفير تركيا في باريس الى وزير خارجية فرنسا بمذكرة يطلب فيها أن تعقد بين فرنسا ولواء الاسكندرونة الذي تسكنه – بزعم الاتراك – أكثرية تركية معاهدة شبيهة بالمعاهدة الافرنسية – السورية تمنحه الاستقلال التام « لان بقاءه ضمن الوحدة السورية غير قانوني » . وفي نفس الوقت أخذت الصحف التركية تشن حملة شعواء على الحكومة السورية ، لاسيما حينما عرج الوفد السوري على تركيا في طريق عودته من باريس ، ولم يحقق أعضاؤه أمل الاتراك في الدخول بمفاوضات حول مستقبل اللواء ترضي رغبات الرئيس التركي مصطفى كمال أتاتورك بحيث يرضخون للحلول التي يرتئيها خلافاً لما سبق

وجرى من تفاهم بين الوفد السوري ورئيس الوزراء التركي عصمت اينونو على حلول مبدئية، ترضي الطرفين . فما كان من الوفد حينئذ الا أن غادر العاصمة التركية مبدياً عدم رغبته في بحث الموضوع آنياً طالما لم تستلم الحكم في سورية حكومة وطنية ، وطالما لم تدخل المعاهدة السورية الافرنسية حيز التنفيذ ، ولا يزال الانتداب هو المسؤول عن سورية . وقد ألقى الرئيس التركي « أتاتورك » حينذاك خطاباً في المجلس الوطني التركي منوهاً بأهمية « القضية الخطيرة التي تشغل اهتمام الشعب التركي والحكومة التركية » مشيراً بذلك الى قضية الاسكندرونة .

لقد جابه الافرنسيون مطالب الاتراك بحجج منطقية — في بادىء الأمر — لخصتها كتبهم التي تبادلوها مع الاتراك كما يلي :

١ — أن ليس لفرنسا أن تتصرف بما ليس لها حق التصرف فيه ، فقد قطعت على نفسها عهداً بموجب ميثاق عصبة الأمم ( المادة ٢٢ الخاصة بالانتدابات ) واتفاقية « سان ريمو » سنة ١٩٢٠ ، بأن تبقى أمينة على ادارة سورية كدولة منتدبة ، والحفاظ على وحدتها وعدم التفريط في هذه الوحدة ، وأن التسليم بفصل اللواء عن سورية مخالف لهذه التعهدات .

٢ — إن المعاهدة السورية — الافرنسية المعقودة سنة ١٩٣٦ قد نصت مادتها الثالثة على « أن يأخذ الطرفان المتعاقدان الساميان كل التدابير بقصد أن تنقل الى الحكومة السورية يوم انتهاء الانتداب كل الحقوق والواجبات الناجمة عن جميع المعاهدات والاتفاقات وسائر العقود الدولية التي عقدتها الحكومة الافرنسية فيما يخص سورية أو باسمها » .

ARCHIVE
http://archive.sakhrit.com

٣ — إن فرنسا مستعدة للدخول في مفاوضات مع تركيا ضمن حدود اتفاقية أنقرة يحضرها مندوبون عن الحكومة السورية ، ولقبول أي اقتراح تركي يساعد على الوصول الى تحديد أوضح للنظام الاداري الخاص باللواء .

٤ — في حالة اصرار الاتراك على مطاليبهم السابقة توافق فرنسا على عرض القضية امام مجلس عصبة الأمم .

ونيا عدا ذلك فقد أدلى المسؤولون السوريون في مناسبات عديدة ، وبخاصة عند مرورهم من تركيا في طريقهم الى دمشق ، بتصريحات يطمئنون فيها الاتراك على مصير الأقلية التركية في اللواء ، ووعدوا بمراعاة النظام الاداري للواء الاسكندرونة وفقاً لمعاهدة أنقرة ، وأن أتراك اللواء سوريون يتمتعون بنفس الحقوق والواجبات التي يتمتع بها مواطنوهم العرب « لهم مالنا وعليهم ماعلينا » . غير أن الاتراك لم يكن يرضيهم الا أن يفصل اللواء عن أمه سورية ، لذلك قاطع ناخبوهم في اللواء انتخابات ٣٠ تشرين الثاني ١٩٣٦ احتجاجاً على الحكومة السورية ،

وكثرت مشاغباتهم وانشأوا مكاتب حزبية لهم باسم بيت الأمة « خلق أوي » في كل مدينة من مدن اللواء . عندئذ بادر العرب الى تأليف حزب باسم « جمعية الدفاع عن لواء الاسكندرونة » و « جمعية اتحاد العناصر » لمقاومة الدعاية التركية ، وكانت معتدلة في ميولها . كما تألفت أحزاب عربية أخرى اكثر وعياً ونشاطاً وحماساً ابرزها وأهمها حزب « عصبة العمل القومي » بزعامة الاستاذ زكي الارسوزي ، والتف حوله أنشط الشبان واكثرهم حماساً وتضحية . وكان هذا الحزب يضم الاغلبية الساحقة من أهالي اللواء العرب ويمثل آمال جميع أهل اللواء غير الترك وأهدافهم . وكانت جريدة « العروبة » التي تنطق باسمه شعلة وقادة تلهب النفوس حماسة ، ونادي « العروبة » المكان الذي ينبثق منه لهيب الشعلة ، شعلة الحرية والفداء .

لم تكن أجوبة الافرنسيين لتقنع الاتراك ، بل لقد فتحت أمامهم آفاقاً رحبة للتمادي في الافتئات ، لاسيا البند الاخير من البنود التي اوردتها آنفاً . وأغلب الظن أن هذه الترتيبات لم تكن الا مؤامرة مدبرة بقبول عرض القضية على مجلس عصبة الامم مما وافق هوى لدى الاتراك ، ونوقشت القضية في المجلس ، وقدم الطرفان حلولاً متناقضة . وغني عن القول أن الافرنسيين لم يكونوا جادين في الدفاع عن وجهة نظرهم ، ولو تصلبوا فيها والتزموا الثبات والحزم لاختلف الامر تماما نظراً لقوة الحجج التي في جانبهم وجانب السوريين .

على أن الأتراك لم يكونوا ليحجموا عن الاستفزاز واللجوء الى كل وسيلة جائرة . فقد لجأت الحكومة التركية الى التهديد والمناورات العسكرية على حدود اللواء ، ناهيك عن العصابات التركية المسلحة التي كانت تطلقها في مختلف مناطق الحدود فتتوغل في الداخل تروع الآمنين من العرب وتقطع الطرق وتسلب المارة وتقتل الابرياء وتلقى عوناً وحماية من الاتراك الذين كانوا يتسترون على افرادها . كما لعبت انكلترا دوراً كبيراً في حل القضية لصالح الاتراك وحثت الطرفين على الوصول الى اتفاق ودي بينهما رأساً ( اي بين الاتراك والافرنسيين ) واجتمع مجلس العصبة في ٢٧ كانون الثاني ١٩٣٧ لدراسة مشروع الاتفاق ويتلخص فيما يلي :

١ — يؤلف لواء الاسكندرونة وحدة منفصلة تتمتع باستقلال تام في شؤونه الداخلية . اما شؤونه الخارجية فتقوم بادارتها سورية ويشترك اللواء مع الدولة السورية في الادارة الجمركية والنقد .

٢ — تعتبر اللغة التركية في اللواء لغة رسمية . وقد اتفق على جعل اللغة العربية رسمية ايضاً (١) .

(١) في الفترة الانتقالية التي طبق فيها نظام لواء اسكندرونة المستقل بموجب هذا الاتفاق وجدت صعوبات جمة في اصدار الاوامر والبلاغات بحيث كان كل قرار او أمر اداري او بلاغ.. يكتب بثلاث لغات الى جانب بعضها: الافرنسية والعربية والتركية، وبعمم هكذا على جميع الدرجات، بينما يترجم كل كتاب يرفعه مسؤول الى رئيسه الى اللغتين الاخريين ، حتى اذا مر على مختلف درجات التسلسل استطاع كل مسؤول ان يقرأه باللغة التي يعرفها .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٣ — لايطبق أي اتفاق دولي تعقده سورية بخص اللواء الا بموافقة سابقة من عصبة الأمم.
٤ — يعين مندوب افرنسي يختاره مجلس العصبة لضمان احترام نظام اللواء وقانونه الاساسي.
٥ — لايكون للواء جيش ولا تفرض عليه خدمة الزامية .
٦ — تعقد اتفاقية افرنسية ـ تركية لضمان سلامة اللواء ووحــدته ، وتعقد اتفاقية افرنسية ـ تركية ـ سورية لضمان واحترام الحدود والمحافظة على النظام والأمن . (١) وقــد قبل مجلس العصبة هذا الاتفاق وأقره .

## كفاح عرب اللواء :

لم تكن هذه الاتفاقية الا غرما على سورية وغنماً لاعــدائها . لذلك لم ترض الحكومة السورية ولم يرض المناضلون العرب بالحلول التي تضمنتها وعارضوها منذ البداية ، لكن المكافحين من عرب اللواء ، عندما علموا انها ستفرض عليهم بالقوة والقسر ، شمروا عن سواعدهم للنضال. تحدوهم قوة الايمان بحقهم . وكان كفاحهم في بادىء الامر يدور حول احراز الاغلبية العددية في الاستفتاء الذي سيجري لمعرفة عدد افراد كل عنصر من العناصر العرقية التي تسكن اللواء ونسبة كل منها الى المجموع ، وبالتالي لتشكيل مجلس نيـابي خاص باللواء ، يضم ممثلين عن كل عنصر وفقاً لنسبة عدد افراده ، وصمموا على أن يعدوا ارتباط هذا الجزء الحبيب المهدد بالانفصال الى أمه سورية العربية عن طريق احراز الاكثرية العددية الساحقة بين سكانه . لذلك رسموا الطريق لأنفسهم ، وكانت مراميهم ينيرها الوعي القومي النامي ، وصمموا خطة تثقيفية ناجحة ، وتمكنوا من رفع معنويات الشعب العربي في اللواء الى اعلى مراتبها ، ومن تعبئة الشعور القومي العربي تعبئة وقف الأتراك امامها مشدوهين ، انمـــا لجأوا الى العنف تدعمهم دبابات الافرنسيين ومصفحاتهم ورشاشاتهم ، فقابل العرب العنف بمثله ، وذهب منهم شهداء رفعت ذكراهم الى مراتب البطولة ، ولم تحجم النساء عن التضحية فذهبت منهن تحت سنابك الخيل وعجلات المصفحات ووابل الرشاشات راثدات كثيرات . وإن ننس لاننسى ذلك الشاب البطل الذي جرح في اشتباك مع الاتراك امام صندوق الاستفتاء جرحاً مميتاً، ولما عرف انه سيقضي نحبه ولما يقم بواجبه الانتخابي حمل جراحه زاحفاً الى صندوق الاستفتاء والدماء تنزف منه بغزارة حتى اذا بلغ حافة الصندوق القى بطاقته فيه واطلق صيحة الاطمئنان وأسلم الروح الى بارئها قرير العين ناعم البال .

كانت سلطات الانتداب الافرنسي ماضية في التعاون مع الاتراك لاغتيال الحق ونصرة الباطل . واستمر السير في خطى التآمر لدى عصبة الأمم ، فعينت هذه لجنة من الخبراء لوضع

(١) راجع كتاب الدكتور مجيد خدوري : قضية الاسكندرونة ، ص ٥٣ ـ ٥٤ ( من مطبوعات المكتبة الكبرى للتأليف والنشر بدمشق ـ ١٩٥٣ ـ ) .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

لائحة نظام اللواء وقانونه الاساسي . وقد تم وضعهما ووافق مجلس العصبة عليهما وتقرر تنفيذهما في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٣٧ . **ومن سخرية القدر أن يتفق هـذا التـاريخ مع تاريخ قرار هيئة الأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ القاضي بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود .**

ولامكان تطبيق نظام اللواء الجديد قرر مجلس عصبة الامم اجراء استفتاء لمعرفـة نسبة عناصر كل من سكانه وتحديد عدد النواب لـكل طائفة في المجلس النيابي المقرر . وقـــد كلف المجلس لجنة استفتاء تضم مندوبين حياديين من اعضائه للقيام بهذه المهمة فجاؤوا الى اللواء وساروا في عملهم شوطاً كبيراً بكل نزاهة واخلاص ، ودلت تصرفاتهم على حياد تام . وقد اقبل العرب على الاستفتاء بهمة قوية وعزم ثابت . وبدا أنهم سيحصلون على الاغلبية العددية السـاحقة ، فاستشاطت الحكومة التركية غيظاً وأوعزت الى اتراك اللواء بمقاطعة لجنة الاستفتاء والاعتداء على اعضائها وايقاع الذعر في قلوبهم ، والقيام باعمـال الشغب والفوضى ، فوقعت اشتباكات عنيفة بينهم وبين العرب الذين خاضوا المعركة بكل شجاعة وتفان ، وناضلوا في سبيل عروبة وطنهم نضال الأبطال ، وسقط عشرات الشهداء منهم في ساحة النضـال كما جندلوا عشرات القتلى من اعدائهم . ولما رأت الحكومة التركية ان اتراك اللواء يوشكون أن يخسـروا المعركة قامت جيوشها بالمناورات على حدود اللواء وهددت باحتلاله بالقوة ، واعلنت عدم اعترافهـا بلجنة الاستفتاء ، ناهيك عما بذلته من أموال للدعاية والاغراء ، وما قام به الموظفون الترك في اللواء ، كبارهم وصغارهم ، من ضغط واكراه على السكان لاستمالتهم نحو قضيتهم . وحينما لمست لجنة الاستفتاء الدولية تعذر القيام بالعمل في هذا الجو المشحون بالضغائن والاحقاد وسوء النية من قبل الاتراك انسحبت احتجاجاً على اعمالهم .

كانت الظروف الدولية فيمصلحة الاتراك لأن الالمان كانوا يهددون باحتلال « السوديت » واقتطاعها من « تشيكوسلوفاكيا » بدعوى ان اكثرية سكانها من الالمان ، وبدا العالم وكأنه على حافة حرب عالمية ، فلعبت انكلترا دور الوسيط من جديد ، وحملت فرنسا على اجابة رغائب الاتراك فما كان من هذه الا أن سمحت لهم بارسال جيوشهم لاحتلال اللواء ، فاجتـاز الجيش التركي الحدود في اواخر تموز ١٩٣٨ ، واحتل المدن الهامة فيه . أما فرنسا فقد غيرت مندوبها المعاون في اللواء ، وارسلت بدلاً عنه قائداً شرساً اشتهر بكونه جلاد العرب في سورية وهو الكولونيل « كوله » وكان قائداً لفرقة الشركس ، وقد ذاق السوريون على يديه أقسى أنواع العسف والتعذيب في جهات الشام . وسرعان ماعمل الطاغية « كوله » على ضرب النضال العربي بكل قواه بحيث اقصى الموظفين العرب عن وظائفهم لاسيما الوظائف الحساسة مثل القائمقامين



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومدراء النواحي وقادة الدرك والشرطة والقضاة واستبدلهم بآخرين من الترك ، وسجن زعماء العرب أو نفاهم وعطل صحفهم واغلق نواديهم والغى احزابهـــم . وفوق ذلك قاد حملة ضغط واكراه على القرويين العرب ، مهدداً اياهم بالعقاب الصارم اذا لم يسجلوا انفسهم في عداد الترك ، هذا فضلا عن الشائعات الـتي كان الترك يطلقونها بان الجيش التركي سيذبح كل شخص لايسجل نفسه تركياً .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد اتفق الافرنسيون والاتراك على استبدال لجنة الاستفتاء الدولية — بعد انسحابها — بلجنة تركية صرف ، وتمكن الطاغية بهذه الوسيلة من أن يؤمن بالاكراه والضغط والتزوير أغلبية الاصوات للاتراك في هذا الاستفتاء المزيف ، فحصل الأتراك على أغلبية مقاعد المجلس التمثيلي الذي اجتمع فوراً وانتخب رئيساً له أحد زعماء الترك كما انتخب زعيماً آخر رئيساً لدولة لواء الاسكندرونة الذي بدل اسمه باسم « جمهورية هاتاي » ، وشكلت وزارة رباعية كل اعضائها من الاتراك وأزيل العلم السوري عن المؤسسات الرسمية ، وحل محله العلم التركي مع تحوير بسيط في نجمته البيضاء بحيث رسم في داخلها نجمة أخرى حمراء وجعلت اللغة التركية دون سواها اللغة الرسمية للدولة الجديدة .

وهكذا ادى تراخي فرنسا ومكر انكلترا وجشع تركيا — في مؤامرة واحدة — على ضياع لواء الاسكندرونة وتقديمه لقمة سائغة للاتراك الذين استفادوا من تطورات أخرى في السياسة الدولية ، ومن تهديد الدولة الالمانية والدولة الايطالية للسلام العالمي ، مما حمل فرنسا ، بالتفاهم مع حليفتها بريطانيا ، على عقد معاهدة جديدة بينها وبين تركيا في ٢٣ حزيران ١٩٣٩ سلمت فيها فرنسا لتركيا بضم لواء الاسكندرونة ضماً نهائياً اليهـــا ، وأصبح منذ ذلك التاريخ ولاية من ولايات الجمهورية التركية . ولم يحتمل احرار عرب اللواء الوضع الجديد فترك معظمهم أرض آبائهم وأجدادهم ونزحوا الى وطنهم الأم سورية والى لبنان وانتشروا في مختلف مدنها ، وبلغ عدد الذين نزح منهم مايقارب خمسين الفاً .

والجدير بالذكر ان سورية بشعبها وحكوماتها لم تعترف في يوم من الايام بما تم في اللواء بأي وجه من الوجوه ، ولا تزال تعتبر أن حقها في اللواء السليب حق شرعي لابد من الحصول عليه ، ولا يزال العرب في كل بقعة من اوطانهم يشعرون بالمرارة لفقدان هذه القطعة الغالية من وطنهم الحبيب ، ويتحفزون الى اليوم الذي ينتزعون فيه حقهم من براثن المغتصبين .

# قضية عمان في الأمم المتحدة

بقلم محمد سمير منصوري

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

منذ عدة سنوات والشعب العربي في عمان يناضل من اجل اجلاء القوات الاجنبية البريطانية عن بلاده ، ويقاتل لاستعادة حريته واستقلاله، ولقد تطور الصراع السياسي في المنطقة من اجل الحرية ، وانتقل من الاطار المحلي للمعركة الى الاطار الدولي طلباً لكسب عطف وتأييد منظمة الامم المتحدة التي لازالت تعتبر - دولياً - الملجأ الذي يركن اليه والملاذ الذي ينشد عونه في ازالة العدوان والقضاء على الاستعمار .

ولقد اتخذ عرض قضية عمان ، وطرق مناقشتها في منظمة الامم المتحدة اساليب واتجاهات متعددة،

ولكنها كانت جميعها تبغي هدفاً واحداً الا وهو إجلاء الاحتلال الاجنبي وإعادة الاستقلال والسيادة للشعب العربي صاحب الحق الطبيعي في ذلك ، ولقد ادخلت القضية الى منظمة الامم المتحدة لأول مرة عام ١٩٥٧ ، ولا زالت مدرجة قيد البحث في جدول الاعمال حتى الآن ، فكيف تم ذلك ولماذا ؟

## ١ – القضية العمانية امام مجلس الأمن

في شهر آب من عام ١٩٥٧ طلب مندوبو إحدى عشرة دولة عربية من رئيس مجلس الامن دعوة المجلس للاجتماع لبحث « عدوان المملكة البريطانية المسلح ضـــد استقلال وسيادة ووحدة اراضي امامة عمان » (١) وذلك بموجب المادة ٣٥ من ميثاق المنظمة التي تخول أي عضـو من اعضاء الامم المتحدة تنبيه مجلس الأمن الى أي نزاع او موقف قد يؤدي الى احتكاك دولي او قد يثير نزاعاً.

واثناء اجتماع مجلس الامن بتاريخ ٢٠/٨/٥٧ تكلم باسم الدول العربية آنئذ مندوب العراق مشيراً الى تمتع عمان بالاستقلال منذ زمن بعيد ، وان هـذا الاستقلال معترف به دولياً بموجب معاهدة سيب لعام ١٩٢٠ التي تمثل معاهدة بين دولتين مستقلتين ، كما ان الاعتداء البريطاني الحاصل في ذلك الحين على عمان بالاشتراك مع قوات سلطان مسقط ان هو الا انتهاك لاستقلال عمـــان ، وطالب مجلس الامن ببحث الشكوى العربيـة لازالة العدوان نظراً لأن استمرار الحالة يهدد السلم والأمن في المنطقة .

ولقد اعترض المندوب البريطاني على ادراج الشكوى في جدول الأعمال مدعياً بعدم وجود أي سيادة او استقلال لامامة عمان ، وانها انما تشكل جزءاً تابعاً لسيطرة وسيادة « سلطان مسقط وعمان » واضاف بان سيادة السلطان تشمل

(١) وثيقة الامم المتحدة رقم ٣٨٦٥ / A

اراضي شاطىء مسقط وجبال عمان وهذا معترف به دولياً ، كما اشار الى ان معاهدة سيب التي يستند اليها المندوبون العرب انما هي في الواقع اتفاق بين السلطان وبين بعض زعماء القبائل الثائرة داخل عمان والتي بموجبها انهيت ثورتهم كما منحوا بعض الاستقلال الداخلي ، واضاف قائلاً بان التدخل العسكري البريطاني جرى بطلب من سلطان مسقط لمساعدته في قمع الثورة .

وكذلك فقد كان امام مجلس الامن احتجاج بتوقيع « سلطان مسقط وعمان » يعترض فيه على بحث الشكوى معتبرا أن الأمر من شؤون بلاده الداخلية (١) .

ولعب النفوذ الاستعماري دوره التقليدي في الموضوع وتوصل الى اتخاذ قرار من مجلس الأمن برفض الشكوى العربية وذلك بأغلبية خمسة أصوات ( استراليا ، كولومبيا ، كوبا ، فرنسا ، ايطاليا ) في حين أيدت بحث الشكوى أربع دول فقط ( العراق ، الفلبين ، السويد ، الاتحاد السوفياتي ) وامتنعت الولايات المتحدة ، كما لم تشترك الصين الوطنية في التصويت (٢) .

وازاء هذا القرار وقفت الدول العربية مكتوفة اليدين ولم تتمكن من اتخاذ أي اجراء على الصعيد الدولي ، الى أن حاولت اعادة الكرة مرة ثانية عام ١٩٦٠ وأمام الجمعية العامة للامم المتحدة .

(١) وثيقة الأمم المتحدة رقم ٣٨٦٦ / S

(٢) جرى التعامل في الامم المتحدة على التفريق بين نوعين من الامتناع :

ا ـ حضور المناقشة والمساهمة في التصويت على أمر ما بالامتناع عن اتخاذ موقف ايجابي أو سلبي .

ب ـ حضور المناقشة وعدم المساهمة بالتصويت على أمر ما باتخاذ موقف « غير مشترك بالتصويت »

ا — أدرج موضوع « قضية عمان » في جدول اعمال الدورة الخامسة عشر للجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٦٠ بناء على طلب عشر دول عربية (١) وقد أشار المندوبون العرب في المذكرة التفسيرية للأسباب الموجبة لطلب الادراج الى أن القوات البريطانية قد هاجمت منذ شهر كانون الاول ١٩٥٥ مايسمى خطأ بسلطنة مسقط وعمان بسبب رفض امام عمان منح امتياز استثمار البترول للشركات البريطانية في امارته ، وان الاعتداء والتدخل البريطاني واستمرار هذا العدوان — الذي لازال قائماً على الرغم من لفت نظر مجلس الامن الى ذلك عام ١٩٥٧ — انما يهدد السلم والأمن في الشرق الأوسط ويخالف احكام منظمة الامم المتحدة وقواعد القانون الدولي العام .

وقد احيل الموضوع الى اللجنة السياسية الخاصة التي بحثته في عدة جلسات وحين تقدمت أربع عشرة دولة عربية وآسيوية وافريقية بمشروع قرار يقضي بالاعتراف للشعب العربي في عمان بحق تقرير مصيره واستقلاله ، ويدعو الى جلاء القوات الأجنبية عن عمان ، كما يدعو الأطراف المعنية الى حل الخلافات القائمة بينها بالطرق السلمية لاعادة الحياة الطبيعية الى عمان (٢) .

عندئذ وفجأة قبل عرض القرار على التصويت ، قررت اللجنة عدم الاستمرار في بحث الموضوع وتأجيله الى العام التالي « لضيق الوقت » ؟

ب — وفي الدورة السادسة عشر للجمعية العامة عام ٩٦١ أعيد عرض القضية على اللجنة الخاصة التي استمرت في بدء مناقشتها للموضوع الى وفد عماني

(١) وثيقة الامم المتحدة رقم ٤٥٢١ / A

(٢) وثيقة الامم المتحدة رقم ٦٧ / A / SPC / Ll

مؤلف من الشيخ طالب بن علي والشيخ سليمان بن حمير والسيد محمد الامين عبد الله الذي تكلم باسم الوفد مشيراً الى تمتع عمان باستقلالها وحريتها منذ قرون عديدة ، وان هذا الاستقلال قد تأكد بمعاهدة سيب لعام ٩٢٠ التي تعتبر معاهدة دولية ، كما أوضح أن الاعتداء البريطاني كان بسبب رفض امام عمان تسليم سيادة بلده ومواردها الطبيعية الى بريطانيا .

وقد أيد عدد من مندوبي الدول المختلفة رأي ممثل امامة عمان وشدد بعضهم على أن القضية تتلخص بكونها حرباً واعتداءاً استعمارياً طمعـــاً في البترول العربي .

وقد أعاد المندوب البريطاني ذكر الحجج والأدلة التي أوردها عام ٩٥٧ امام مجلس الامن في الدفاع عن نفسه وعن سلطان مسقط ، وأشار الى اعتراض مجدد وارد الى اللجنة بتوقيع سلطان مسقط وعمان يعترض فيه على سماع أي وفد من عمان ، مدعياً أنه وحده الممثل الحقيقي لشعب عمان وان الامم المتحدة لا تملك حق مناقشة امور تدخل حصراً ضمن الاختصاص الداخلي لسلطنته .

وفي نهاية المناقشة ، قدمت ١٦ دولة من بينها الدول العربية مشروع قرار يتضمن ذات المبادىء والمطالب التي اشار اليها مشروع القرار المقدم عام ٩٦٠ ، وكان المندوبون العرب أكثر حظاً هذا العام اذ عرض مشروع القرار على التصويت في اللجنة فأيدته ٣٨ دولة في حين صوت ضده ٢١ دولة وامتنع ٢٩ مندوباً عن التصويت ، الا أن هذا القرار عندما عرض على الجمعية العامة للتصديق عليه نهائياً فشل في الحصول على أكثرية الثلثين المطلوبة ، وبذلك فقد أخفق المندوبون العرب مرة اخرى في الحصول على قرار او تصريح دولي بضمان حق شعب عمان في تقرير مصيره . وهنا لا بد لنا من ايراد ملاحظة بدت واضحة عند التصويت النهائي ، اذ انخفض عـدد

الدول المؤيدة للقرار أمام الجمعية العامة الى ٣٣ دولة بدلاً من ٣٨ دولة التي أبدته أمام اللجنة السياسية الخاصة ، ومن البدهي ان مرد ذلك يعود الى الضغط والنفوذ الاستعماري البريطاني على بعض الدول لتغيير موقفها .

ج — وعاودت الدول العربيـة الكرة في الدورة السابعة عشر للجمعية العامة عام ١٩٦٢ اذ تقدم مندوبوها الأحد عشر بطلب ادراج الوضوع في جـدول الأعمال نتيجة استمرار سياسة القمع والاضطهاد التي تطبقها بريطانيا وفشلهـا في احلال السلام في المنطقة[1] ، وكرر مندوبو كلا الجبتين في اللجنة السياسية الخاصة ايراد الحجج والاسانيد التي تدعم وجهة نظرهم والتي سبق ان اوردوها في دورات سابقة ، كما وتجلت المناقشة بظهور مزيد من الاهتمام من عدد من الدول التي طالبت بالحصول على معلومات اضافية عن حقيقة الوضع في عمان عن طريق ارسال لجنة أو مندوب خاص عن الامين العام للمنظمة الى المنطقة .

ARCHIVE

وفي ختام المناقشة اعادت الدول العربية مع بعض الدول الصديقة الاخرى تقديم مشروع القرار الذي سبق وقدمته خلال العامين الماضيين فحصل على تأييد ٤١ دولة مقابل معارضة ١٨ دولة وامتناع ٣٦ دولة عن التصويت ، ورغم هـذا التقدم في التأييد فقـد فشل مشروع القرار في كسب أكثرية الثلثين المطلوبة في الجمعية العامة للتصديق عليه نهائياً .

وكذلك فقد لفت النظر موقف المندوب البريطاني عندما تكلم باسم سلطان مسقط داعياً لارسال مندوب خاص ، وبصفة شخصية عن الامين العـام للمنظمة ، لزيارة السلطنة والحصول على المعلومات «الحقيقية» عن كثب ، اذ كان كلامه تأكيداً

(١) وثيقة الامم المتحدة رقم ٨/١٠٥٤٩

لسيطرة بريطانيا واستعمارها لهذا الجزء العربي والا لما تكلم ممثل بريطاني نيابة عن « سلطان عربي » وهناك احد عشر مندوباً عربياً يمكنهم التكلم باسمه والدفاع عن حقوقه .

د — واستجابة لدعوة سلطان مسقط فقـــد ارسل الامين العام للامم المتحدة السيد هربرت ديربينغ السفير السويدي في اسبانيا مندوبا شخصيا عنه للاجتماع بالسلطان وكلفه بمهمة « تقصي الحقائق » عن الاوضاع في عمان ، وقـد زار السيد ديربينغ المنطقة في اواخر شهر ايار من عام ٩٦٣ وعاد ليقـدم تقريره للامين العام[1] والذي يتضح منه النقاط التالية :

١ — لم يكن التقرير شاملاً اذ لم ترد فيه وجهة نظر القادة العمانيين ، كما لم يحدد رغبات وأماني شعب عمان .

٢ — لم يتمكن السيد ديربينغ من الاطلاع على كافة المجالات التي يريدها لأنه كان ملزماً ببرنامج معين ومقيداً في صلاحياته .

٣ — يستخلص من التقرير ان بريطانيا تفرض سلطتها على جميع النواحي الاقتصادية والسياسية والعسكرية في عمان وليس لشعب عمان أي قول في ادارة شؤونه ، كما لم يوضح التقرير ماهية العلاقة بين السلطان وبريطانيا .

٤ — يستشف من التقرير بأن السلام مستتب والحالة مطمئنة في المنطقة .

٥ — رفضت بريطانيا السماح لممثلي الامام بمرافقة بعثة ديربينغ واقتصرت على السماح لممثلي السلطان .

هـ — وفي نهاية عام ٩٦٣ عندما طالبت ١٣ دولة عربية باعادة بحث قضية عمان امام الجمعية العامة[2] ، كان امامهـا مادة جديدة للبحث الا وهي تقرير

(١) وثيقة الامم المتحدة رقم ٥٥٦٢ / A

(٢) وثيقة الامم المتحدة رقم ٥٤٩٢ / A

السيد دريبينغ ، فضلا عن ان الدول العربية عمدت هذه المرة الى تغيير سياستها تجاه معالجة القضية وطالبت باعتبارها قضية استعمارية يجب بحثها في لجنة الوصاية (اللجنة التي تبحث في شؤون الاقاليم والمناطق التي لازالت تحت الوصاية او غير المتمتعة بالحكم الذاتي) بدلا من بحثها في اللجنة السياسية الخاصة اسوة بالسنين السابقة ، واوردت الدول العربية في مذكرتها التفسيرية لايضاح هذا الطلب بأن الأمم المتحدة لايمكن ان تقف بدون اهتمام وغير مكترثة امام مصير شعب يناضل للحصول على حريته واستقلاله ، وكنتيجة لسياسة الاضطهاد المستمرة ولرفض بريطانيا تطبيق قرار الأمم المتحدة رقم ١٥١٤ الصادر عام ١٩٦٠ والخاص بمنح الشعوب والمناطق المستعمرة حريتها واستقلالها ، فان على لجنة الوصاية بحث هذه القضية باعتبارها قضية استعمارية ، ولقد نجحت الدول العربية – من حيث المبدأ – في طرح الموضوع امام هذه اللجنة رغم اعتراض المندوب البريطاني على بحث الموضوع اصلا وعلى احالته الى هذه اللجنة بالذات بصورة خاصة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

واستمعت اللجنة عند بدء مناقشتها للموضوع الى الشيخ طالب بن علي الهنائي كممثل لوفد عمان ، والسيد فارس غلوب ممثلا لرئيس لجنة حقوق عمان[١] حيث بسطا امام اللجنة بالاضافة الى باقي المندوبين العرب وانصارهم النقاط التالية :

١ – الصراع القائم في عمان عبر عنه الامام بانه « شعب عربي يناضل ضد الاستعمار البريطاني ويلتمس انهاءه واسترجاع حقه في الحياة والحرية والديموقراطية .

٢ – تشير جميع الادلة التاريخية الى وجود عمان كدولة مستقلة ذات

(١) محاضر جلسات اجتماعات لجنة الوصاية ( الاجتماعات رقم ١٤٩٥–١٤٨٩ ) .

سيادة رأس هذه الدولة الامام الذي يمارس سلطات متعددة منها دينية واخرى دنيوية .

٣ — بعد قضاء عمان على غزو البرتغال لأراضيها تعرضت للاستعمار البريطاني الذي تجلى بعقد معاهدة حماية مع الموظف الاداري لامامة عمان في مسقط ، وكذلك المعاهدة التي عقدت مع السلطان والتي حددت فيها سلطة الأخير في التصرف قبل مشاورة بريطانيا والحصول على موافقتها ، وغيرها من المعاهدات التي فرضتها السلطات البريطانية وحولت فيها السلطنة الى « محمية » من الناحية الواقعية ان لم يكن من الناحية القانونية .

٤ — السبب الرئيسي للغزو البريطاني عام ٩٥٥ يعود الى رفض الامام غالب بن علي منح امتياز استغلال البترول للشركات البريطانية ، وقد بدا هذا الغزو المسكري واضحا في اعتداء عام ٩٥٧ فضلا عن ان هذا التدخل المسكري يخالف احكام ميثاق منظمة الأمم المتحدة ومبادىء القانون الدولي العام .

٥ — ان المعاهدات التي عقدها السلطان مع بريطانيا قد جعلت منه اداة طيعة تحركها بريطانيا كما تشاء بعد ان سلبته استقلاله ، والدليل اننا نجد الآن مستشارا بريطانيا يدير شؤون الدفاع والخارجية فضلا عن العديد من الضباط الذين يشغلون الرتب العسكرية الرئيسية في جيش مسقط .

٦ — عمد الاستعمار البريطاني الى تقسيم عمان الكبرى الى تسع وحدات منفصلة ، وخلق بذلك امامة عمان ، وسلطنة مسقط ، وسبع مشيخات صغيرة اخرى ، وهكذا فان مسقط كانت جزءاً من عمان وليس العكس .

٧ — اشار المندوب السوري الى ان جوهر القضية لا يتعلق بمعاهدة سيب

اوفي مدى حتى عمان بالاستقلال عن مسقط ، وانما في انهاء السيطرة والاحتلال البريطاني عن كليهما وتحريرهما باعتبارهما بلدا واحدا ، وهكذا لايمكن بحث موضوع عمان منفصلا عن مسقط بل يجب بحث موضوع كليهما من قبل الأمم المتحدة وطالب ببحث الموضوع امام لجنة تصفية الاستعمار ، اذ ان هناك تشابها كبيرا بين قضية عدن التي تنظرها لجنة تصفية الاستعمار وبين قضية عمان ، وقد اجمعت الدول العربية على تأييد الطلب .

ولقد احتدم الخلاف اثناء المناقشة العامة في لجنة الوصاية بين المؤيدين الموقف العربي الذين يعتبرونها قضية استعمارية ، وبين المناهضين لهذا الموقف ، بينما وقف فريق ثالث حائراً بين تأييد هذا وذاك وكانت حجتهم الرئيسية في ذلك ان الموضوع كان يعالج سابقا على اساس انه اعتداء بريطاني على على عمان عن طريق مادعته بريطانيا بمساعدة سلطان مسقط لقمع الثورة الداخلية ضده في حين ان الأمر اختلف الآن واصبح يعالج على انه استعمار بريطاني لكل من مسقط وعمان يجب انهاؤه . لذا فقد طلب عدد من المندوبين تشكيل لجنة خاصة لدراسة القضية وتوضيح جميع نواحيها .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفي ختام المناقشة قدمت ١٨ دولة من بينها الدول العربية مشروع قرار تضمن فقرتين فقط تعترف الاولى لشعب عمان بحقه في تقرير مصيره والاستقلال، وتدعو الفقرة الثانية لجنة تصفية الاستعمار لدراسة الوضع في عمان ولتقدم تقريرها الى الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها التاسعة عشرة . وكنتيجة لبعض الاتصالات الدبلوماسية ورغبة في الحصول على تأييد بعض الدول ، وافقت الدول العربية على حذف الفقرة الأولى من مشروع القرار الذي قدمته واكتفت بالفقرة الثانية [1] .

(١) وثيقة الامم المتحدة رقم ٨٧٣ A / C4 / L

كذلك قدمت ١٢ دولة من دول امريكا اللاتينية مشروع قرار يدعو الى تشكيل لجنة خاصة مؤلفة من خمس دول يعينهم رئيس الجمعية العامة لبحث جميع جوانب القضية العمانية وتقديم تقرير عن ذلك الى الجمعية العامة في دورتها التاسعة عشرة .

ولقد وافقت لجنة الوصاية على اعطاء مشروع القرار الثاني افضلية في التقديم على مشروع القرار الأول الأمر، الذي ادى الى عرضه على التصويت اولاً، فحصل على اغلبية ٩٥ صوتاً مقابل دولة واحدة معارضة وامتناع سبع دول عن التصويت ، وبنجاح هذا القرار لم يعد من الممكن عرض المشروع العربي على التصويت وفقاً للأصول الاجرائية المتبعة في اللجنة ، ولقد صدقت الجمعية العامة على هذا القرار بتاريخ ١١/١٢/٩٦٣ وتحت رقم ١٩٤٨ وباغلبية ٩٦ لصالحه مقابل معارضة دولة واحدة وامتناع اربع دول عن التصويت .

و — واستناداً الى هذا القرار فقد اعلن رئيس الجمعية العامة عن تشكيل لجنة عمان الخاصة من دول افغانستان ونيبال وكوستاريكا ونيجيريا والسنغال ، وفي الاجتماع الاول للجنة انتخبت سفير افغانستان رئيساً لها ، كما انها طلبت بعد ذلك من سلطان مسقط الموافقة على زيارة اللجنة لعمان والسماح لها بالاطلاع على حقيقة الوضع ، ولكن السلطان رفض السماح للجنة بزيارة اي جزء تابع لسيطرته ، ووافق على الاجتماع بشخص واحد من اعضاء اللجنة وعلى ان يتم الاجتماع في لندن .

وفعلاً اجتمع السيد عبد الرحمن بازواك سفير افغانستان ورئيس اللجنة بسلطان مسقط السيد سعيد بن تيمور في لندن خلال شهر ايلول ٩٦٣ والذي

كرر في الاجتماع عرض ادعاءاته بأن القضية العمانية من صلاحياته الداخلية البحتة بصفته حاكماً لدولة مستقلة ذات سيادة وليس للأمم المتحدة حق التدخــل في الموضوع ، كما اشار الى ان عائلته تحكم مسقط وعمان باعتبارها دولة واحدة منذ اكثر من ٢٠٠ سنة .

وبعد ذلك ، تابعت اللجنة اعمالها فزارت الكويت والقاهرة والدمام حيث قابلت امام عمان الذي كرر اقواله التي ادلى بها امام لجنة الوساطة في الامم المتحدة ، كما استمعت اللجنة الى عدد من اصحاب الشكاوى واللاجئين المقيمين في البلاد العربية المجاورة لعمان هرباً من اضطهاد السلطان لهم ، واطلعت على مختلف آرائهم واتجاهاتهم وتلمست مطالبهم .

واقد قدمت لجنة عمان تقريرها الى الامين العام للأمم المتحدة (١) في مطلع عام ٩٦٥ واوردت فيه عرضاً لأعمالها واتصالاتها ومقابلاتها ، كما جاء في نهايته خلاصة لاقتراحاتها ورأيها بالنسبة لقضية عمان تضمنت النقاط التالية :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١ — ان قضية عمان مشكلة دولية تتطلب دراسة خاصة من قبل الجمعية العامة للأمم المتحدة وهذه المشكلة نشأت من السياسة الاستعمارية والتدخل الخارجي في مسقط وعمان .

٢ — مصلحة السلام في المنطقة توجب التوصل الى حــل ، والطريق الوحيد هو دخول جميع الاطراف المعنية في مفاوضات للوصول الى الحل المطلوب مع عدم تعصب كل منهم لموقفه السابق ومع امتناع كل منهم عن القيام بأي عمــل يعوق الحل السلمي .

---

(١) وثيقة الامم المتحدة رقم ٥٨٤٦/A

٣ — يجب على الجمعية العامة انشاء « لجنة المساعي الحميدة » لتقوم بدور الوسيط في المفاوضات للوصول الى تحقيق المطالب القانونية لسكان مسقط وعمان .

٤ — على الجمعية العامة ان تدعو كلاً من سلطان مسقط وامام عمان بذل جهودهما لحل المشكلة عن طريق لجنة المساعي الحميدة ، كما ان على الجمعية العامة أن تدعوا بريطانيا لاستعمال صداقتها مع السلطان لتسهيل أمر المفاوضات .

٥ — على الجمعية العامة أن تطلب الى الدول العربية بذل جهودها لتشجيع وانجاح هذه المفاوضات .

لم تتمكن الجمعية العامة من دراسة ومناقشة هذا التقرير او اتخاذ قرار بشأن ماجاء فيه من توصيات خلال الدورة التاسعة عشرة الماضية ، وذلك نتيجة الأزمة المالية التي تمر بها الامم المتحدة وأثر هذه الأزمة على حق الدول الأعضاء في التصويت أو عدمه ، الأمر الذي أدى الى تجميد نشاط منظمة الامم المتحدة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهكذا وفي المستقبل القريب، عندما تعود منظمة الامم المتحدة الى ممارسة عملها الطبيعي ونشاطها الفعال ، فان الدول العربية ستجد فرصة اخرى لترفع صوتها عالياً مدوياً مطالباً بانهاء الاستعمار عن مسقط وعمان وكلها أمل بازدياد عدد الأنصار والمؤيدين لتحقق الاستقلال لشعب مسقط وعمان كما حققه من قبلهم العديد من شعوب الدول الآسيوية والأفريقية خلال السنوات الماضية الاخيرة .



# الآداب

## الكتاب والموضوعات



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

# الترجمة والتراجمة

## بين الاغراب في اللفظ والوضوح

بقلم عبد الغني حسن — القاهرة

حين ترجم المرحوم عادل زعيتر ، شيخ المترجمين العرب في العصر الحديث ، بضعة عشر كتاباً في خلال العقد الخامس من القرن العشرين ، قام جماعة من النقاد العرب يتهمونه بالميل الى ايثار اللفظ المُعجَمي[1] الغريب في الترجمة ، على اللفظ العربي المألوف . بل اتهمه قوم بالحذلقة والتعالم والتباهي بالثروة اللغوية ، حتى ولو كانت مهجورة أو مطمورة في بطون المعاجم ، وقد قامت عليه تلك الضجة بالذات حول ترجمته لكتب : حضارة الهند للدكتور غوستاف لوبون ،

---

(١) هو اللفظ الذي يُحتاج الى المعاجم في الكشف عن معناه .

والنيل لإميل لدفيج ، وحضارة العرب لغوستاف لوبون أيضاً ، ونابليون لإميل لدفيج .

على أن هذا الميل الى « الاغراب » الذي كان موضعاً للنقد – بل اللوم – عند المرحوم عادل زعيتر ، لم ينفرد به وحده دون النَّقَلة والمترجمين المحدثين . فقد سبقه الى هذا الاغراب في ألفاظ النصوص المترجمة الى العربية الشاعر خليل مطران ، حين قام بترجمة بضع من روايات شكسبير .

ولم يسكت النقاد على هذه الظاهرة عند خليل مطران منذ ظهرت الترجمات الاولى لبعض هذه المسرحيات منذ أكثر من أربعين عاماً . فحين صدرت مسرحية « تاجر البندقية » عن دار الهلال سنة ١٩٢٢ معربة بقلم شاعر الاقطار العربية ، عدها الادباء والنقاد خطوة كان لا بد منها لنقل شكسبير الى اللغة العربية ، وإن كانت قد جاءت متأخرة في القرن العشرين ... والحق أنها جاءت في أوانها من عصر النهضة الحديثة ، ولم تتخلف عن الظهور في الوقت المناسب ؛ فان القرن التاسع عشر كان حافلاً بترجمة العلوم ونقلها الى لغة الضاد ، ما بين طب وفنون عسكرية ، وهندسة ، وبيطرة ، وطبيعة ، وزراعة وما إليها ، لشدة حاجة العرب اليها في نهضتهم الجديدة يومذاك . أما الآداب فلم يكن لها من المحل ما للعلوم ؛ ولهذا جاءت ترجمة الروائع الادبية متأخرة عن ترجمة حقائق العلوم . ومن هنا رحبت الدوائر الادبية والفكرية في مصر والعالم العربي بخطوة خليل مطران في ترجمة روائع شكسبير – أو بعضها – الى العربية . وكانت فرحة الادباء أكثر ، لأن شاعراً عربياً ملحوظ المكان ، ذائع الصيت ، يتصدى لترجمة شاعر انجليزي عالمي ؛ فان الشاعر أقدر على فهم الشاعر ، وأكثر ادراكاً لخوافي معانيه ، وفروق ظلاله ، وسبحات خياله . .

ولكن القراء – حتى في سنة ١٩٢٢ – لاحظوا أن خليل مطران قد ارتضى

في الترجمة والتعريب طريقة الميل الى الغريب الآبد من الفاظ اللغة العربية ، فهو يعدل عن اللفظة السهلة السمحة المأنوسة المألوفة الفصيحة، الى لفظة غريبة موحشة في الغرابة ، مطمورة في المعاجم ، أو مبثوثة في نص شعري أو نثري قديم . ولم تكن الضرورة تحوج « الخليل » الى هذا العدول، أو تضطره بحال الى هجر لفظ صحيح مألوف ، الى لفظ غريب ، آبد ، مهجور . .

وفرح أنصار « الغريب » بهذا النهج في الترجمة الذي سار عليه خليل مطران في ترجمة شكسبير ، ولكن أنصار التسهيل والتيسير ضاقوا بعمل مطران، وحملوه على الحذلقة التي لاداعي لها ، ولا فائدة منها ، ولا ضرورة اليها ، أو على المباهاة والتكثر بمعرفة ألفاظ لغوية لا يعرفها عامة القراء . حتى لقد تساءل بعضهم: هل ترجم خليل مطران شكسبير حبا في شعره وتقديراً لقيمته الفنية ، أم حبا في عرض طائفة من الألفاظ المعجمية الغامضة ؟

ARCHIVE
http://ArchiveBeta.Sakhrit.com

وكان أجرأ نقاد خليل مطران في منهجه هذا ، الشاعر الكاتب المفكر ميخائيل نعيمة ، الذي لم يبال باعتبارات المجاملة ، أو مقتضيات الملاطفة ، وخاصة نحو شاعر كبير شهير مثل « الخليل » ، فنقد المترجم من ناحية الاغراب اللفظي نقداً شديداً صريحاً ، يقول فيه : (لو أن المعرب صرف على التدقيق في الترجمة مقدار ماصرف من الجهد في انتقاء أوابد المفردات العربية وشواردها ، لما كان على ترجمته من غبار سوى تعقدها ... فهي تسير متعثرة متشبكة ، بين عبارات شكسبير تترادف بجلال ، وتكر بسهولة كالنهر الواسع العميق . ولو أتيح له أن يطالع شكسبير في الأصل ، لرأى ـ ولا بد ـ أن اللغة الانجليزية قد نبذت في ثلاثة أجيال كثيرا من مفردات شكسبير وتراكيبه . واذ ذاك كان يدرك أن اللغة كيان حي ، وأنها أبداً تكتسب وأبداً تنبذ ، وأن ماتنبذه يصبح ميتاً ، وأن

مايموت منها لا يقوم حتى القيامة ؛ وان لا نفع لكاتب أو شاعر من التفتيش بين القبور اللغوية عن كلمة ميتة ، أو تركيب مهمل ، الا اذا كان يقصد ان يدهشنا بطول باعه في اللغة . اذا لم يكن ذاك قصد المعرب ، فما قصده من مثل تلك المفردات وهي أثقل على السمع من التي تفسرها ؟ بل ما مقصده ، وقصد الكثيرين من الذين لا يزالون ينهجون نهجه ، من تكريس فسحة في آخر كل صفحة من الكتاب لتفسير غوامضه اللغوية ، لاسيما ما كان منها من نوع تفسير الماء بالماء ؟ لماذا يضع لنا رقماً بجانب « لاغرو » ويرسلنا الى أسفل الصفحة لنرى أنها تعني « لا عجب » ؟ )

واستمر الناقد ميخائيل نعيمة يعدد الألفاظ المعجمية الغريبة التي استعملها مطران في الترجمة ، واضطر الى تفسيرها في هوامش المسرحية وحمّل سلوك خليل مطران على محملين اثنين لا ثالث لهما ... فأما أن المترجم عربي يكتب بالعربية لأبناء العربية ، ولا حاجة — اذ ذاك — الى تفسير ما يكتب . واما أنه يخاطب أبناء اللغة العربية بلغة أعجمية لا يفهمونها ، وتحتاج الى شرح وتفسير في الهوامش وكان أولى به أن يخاطبهم بلغة يفهمونها ... وفي الحالتين لم تكن هناك ضرورة للشروح والتفاسير ، الا اذا كان قصد المترجم من وراء هذا أن يقول لقرائه : انكم والله لقوم جهل ؛ لا تعرفون من لغة أجدادكم وشلا من بحر ما أعرفه أنا !

وتساءل الناقد مرة أخرى : أترجمت مسرحية شكسبير الى العربية للقارىء العربي أم للسامع والمتفرج العربي المشاهد لها على المسرح ؟ واذا كان مطران قد حل مشكلة استعماله الغريب بتفسيره له في هوامش الكتاب ، فماذا يفعل اذا مثلت الرواية على المسرح ؟ أيجعل كل ممثل يستأني ويتوقف — في خلال تمثيل دوره — عند كل لفظة غامضة ، ليقول للمتفرجين : أيها السادة ؛ ان هذه الكلمة معناها كذا وكذا ؟

فان حق المشاهد والمتفرج على المسرحية ممثلة ، ليس أقل من حق القارىء لها مقروءة ..

ومضى الناقد ميخائيل نعيمة يسوق من امثلة الالفاظ الغريبة في الترجمة المطرانية لشكسبير مايؤيد به وجهة نظره ، في اسلوب تهكمي قائلا : فما اجمل أن يقف شيلوخ ـ يقصد شيلوك على المسرح سائلا باسانيو : « ما أخبار التجارة في المصفق ؟ » ثم أن يلتفت نحو الجمهور قائلا: سيداتي وسادتي ! إنني أعني بالمصفق: البورصة . بل ما اجمل امير مراكش يهز حسامه بيمينه ، ويتبجح بانتصاراته ، ويشكو غرامه بالشكل الآتي : « ... ولو اقتضاني غرامي أن أكافح كل قرم ( إلى الجمهور : أعني بالقرم : البطل ) عنيد قهار شديد ، بل لو سامني ( الى الجمهور: أعني بسامني : كلفني ) انتزاع رضيع الوحش عن ضرع أمه ، أو مناوأة الضيغم الهصور ( الى الجمهور : أعني مقاتلة الاسد ) وقد احتفزه القرَم ( الى الجمهور : أعني بالقرَم : الجوع ) ... وهلم جرا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتمنى الناقد ميخائيل نعيمة على الشاعر خليل مطران مترجم شكسبير لو أنه سلك في ترجمة بقية مسرحياته مسلكاً آخر ، يهتم فيه بعبارته العربية من حيث سلامتها ، محافظاً على رونق الاصل المترجم وجلاله ، ويستعيض عن غير المألوف والجميل من المفردات بالفصيح المألوف ، والبسيط الجميل ، ويقلع عن تفاسيره وشروحه اللغوية في اسفل كل صفحة ، ويدرس كل شخص من أشخاص الرواية درساً مدققاً ، حتى يراه مجسماً أمام عينيه ، فحينئذ لايشق عليه أن يعرب مايقوله ذلك الشخص بعبارات توافق اطواره ومداركه ، وتنطبق كل الانطباق على دوره ، بالنسبة الى ادوار البقية من الاشخاص . كما تمنى عليه ان لاينسى أن شكسبير قد وضع رواياته لتمثل ، وأن أكثرها لايزال يمثل على مسارح اليوم ،

وأن على من يترجمها أن يفعل ذلك بلغة قابلة للتمثيل، وللاستماع والفهم من الشاهدين..

وقد حاول سليمان البستاني في ترجمته لإلياذة هوميروس، في احد عشر الف بيت من الشعر العربي الرصين، أن يجتنب ـ ما امكن ـ حوشي الكلام ووحشيه، طمعاً ـ كما قال في مقدمة ترجمته ـ بأن لاتحقره الخاصة، ولا يغلق فهمه على العامة، ولم يلجأ الى استعمال الغريب من الألفاظ في التعريب إلا مضطراً، حين تلجئه لفظة وضعية، او قافية مستعصية.

والشرط الذي صاغه الاستاذ ميخائيل نعيمة على هيئة أمنية في الترجمة، يضيف جديداً الى جملة الشروط التي وضعها الادباء والمفكرون العرب للترجمة والنقل، ويجعل للفظة المسموعة في عملية النقل الى لغة أخرى مكان الاهتمام، كاللفظة المقروءة تماماً، فان القارىء والسامع يستويان في حقهما من الوضوح والافهام. ومن هنا ـ ايضاً ـ كان الاهتمام بالترجمة «اللسانية»، التي تحدث بين المتخاطبين ويقوم بها شخص ثالث يسمى «الترجمان» أو «المترجم». وهو عمل كان ـ وما زال ـ يتولاه قوم يحسنون الترجمة «العفوية» أو الترجمة بنت الساعة، من غير حاجة الى تقييد في ورق أو تسجيل في كتاب.

وهذا النوع من «الترجمة» التخاطبية لايشارك في بناء نهضة علمية أو أدبية، شأن الترجمة للروائع الأجنبية المكتوبة، ولكنه يحل مشكلة التخاطب بين من لايعرفون الا لغتهم القومية، او لايعرفون ـ على الأقل ـ لغة من يخاطبونهم. فهنا تقوم الضرورة باقامة مترجم بين الطرفين المتخاطبين. وهؤلاء التراجمة ظهروا قديما منذ أتصال العرب بغيرهم من أهل الحضارات الأخرى

كالفرس والروم قبل الاسلام ، ولكنهم كانوا حينذاك على قلة من العدد تبلغ حد الندرة ، واخذوا منذ ظهور الاسلام وقيام حركة الفتوح والانسياح في أقطار الأرض يتزايدون عددا ، حتى أخذوا يظهرون بشكل واضح في القرن السادس الهجري ، حين بلغت حركة الاتصال بين الشرق والغرب أشدها في خلال الحروب الصليبية . فكان قيامهم ضرورة اقتضتها نشأة الصلات السياسية والتجارية بين الدول العربية الاسلامية من ناحية ، والدول الاجنبية من ناحية أخرى . وقد اشار « ديماس لاتري » في كتابه عن المعاهدات والسلام والوثائق التجارية بين العرب والمسيحيين ، الى هؤلاء التراجمة في الميدان التجاري بين الشرق والغرب ، فكانوا كما يقول : ( طائفة من العمال لاغنى عنهم في الهيئات التجارية المعروفة باسم دور المكوس ، في الثغور التي تصل اليها التجارة الاجنبية . وكانت الصفقات التجارية جميعا لاتكاد تتم الا بوساطة هؤلاء التراجمة الذين كانوا يؤلفون غالبا نوعا من النظام الطبقي ، وكانت أقوالهم حجة في كل مكان . وكانت السلطات المحلية تنتخب هؤلاء التراجمة بادىء ذي بدء من بين المسلمين والنصارى واليهود ، وكان لايستغنى عن وجود بعض هؤلاء التراجمة عند إبرام المعاهدات أوعند تفسيرها اذا اقتضى الحال ذلك ، وذلك عند غموض النص مثلا وفي هذه الحالات كان يثبت بصفة خاصة في آخر المعاهدة اسم المترجم الذي قام بترجمتها ) .

واتسع مجال استعمال هؤلاء التراجمة اللسانيين بعد العصرين الأيوبي والمملوكي ، وزادوا أهمية وعملا في الدولة العثمانية حتى قبل الفتح العثماني للشام ومصر سنة ٩٢٣ هـ ـ سنة ١٥١٧ م ، ثم دخلوا ميدان السفارات حين نظمت

العلاقات السياسية بين دول العالم ، واقتضت عمليات السياحة ورؤية الآثار ومعالم البلاد قيام طائفة من هؤلاء التراجمة أو المترجين الذين يتولون شرح الآثار والمعالم للسياح والزائرين . وما لفظة « دراجومان » Dragoman الا كلمة « ترجمان » العربية المعرّبة ، تناولها التحريف كما هو الشأن دائماً في أكثر ماينقل الى اللغات من كلمات .

وترجمة التخاطب هذه لاتعنينا الا من حيث الاشارة اليها في معرض لايجوز اغفالها فيه ، وان كانت لم تترك لنا أثراً منها ـ لأنها تذهب مع الريح ـ الا مايجيء عرّضا في بعض كتب التواريخ حين الحديث عن مقابلات تمت بين ملوك ورؤساء وقادة وفاتحين . كالحديث الذي تم بين الوفد العربي الذي أوفده سعد ابن أبي وقاص في خلال فتح العرب لفارس ، وبين يزدجرد ملك الفرس . وقد اختار سعد رجال وفده من أهل النجار والحسب ، واصحاب الرأي ، وذوي المنظر والمهابة ، ولم يكونوا بالطبع يعرفون الفارسية . فاستأذنوا بالدخول على ملك الفرس ، ومعه وزراؤه ووجوه مملكته ، فلما دخلوا عليه أمرهم بالجلوس ثم قال لترجمانه : سلهم ماجاء بهم وما دعاهم الى غزونا والولوع ببلادنا ؟؟ أمِنْ أجل أنا أحجمنا كم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟ فرد عليه النعمان بن مقرن رئيس وفد العرب ، ذاكرا تاريخ ارسال النبي محمد عليه السلام ، وما كان من شأنه مع العرب ، وما كان من شأن العرب معه ، ودخولهم في دينه ، والدعوة الى دين الاسلام ، وهو الدين الذي سنّ الحسن ، وقبّح القبيح . وما زال ماضيا في كلامه وتهديده لملك الفرس ، الى أن رد عليه الملك بكلام طويل .

وقد ترجم المترجمون كلام يزدجرد ، ونقله مؤرخو العرب في لغة عربية

فصيحة عالية الأسلوب، ترتفع الى اسلوب الصدر الاول من الاسلام في لغته. وصار نص هذا الحديث الفارسي المرسل في الهواء، والمترجم والمدون بعد ذلك، وثيقة تاريخية وادبية معاً، تجدها في كتب التاريخ والأدب، وينقلها مؤرخ عن مؤرخ، ومؤلف عن مؤلف. وبالطبع ليست عبارة هذا الحديث هي عبارة «الترجمان» العفوية التي نقلها بين الوفد العربي وملك الفرس، ولكن مدوني التاريخ الاولين من العرب ورواة المغازي والفتوح قد ابرزوا لنا مثل هـــذا الحديث المترجم في بيان عربي يتلاءم مع لغة العصر الذي دون فيه.

ويلاحظ أن التراجمة اللسانيين أو تراجمة التخاطب لايغربون في الالفاظ حين يترجمون، فليس عندهم من الوقت مايسمح بالبحث عن لفظة آبدة، أو اصطياد كلمة شاردة، وانما قصدهم الافهام والبلاغ السريع للمواد بدون تكلف أو تعسف، على الضد من الذين ينقلون النصوص المكتوبة، فأن الوقت عندهم يسمح لهم بالبحث وراء اللفظ الغريب الآبد لو أرادوه..

ويلاحظ كذلك أن المترجم الذي يغرب في الألفاظ حين يترجم، يغرب كذلك في الألفاظ حين يؤلف.. لأن الاغراب طبيعة فيـه سواء أكان مترجماً أم مؤلفاً.

والسهولة على كل حال أحسن، وأبلغ الى الفهم، وقد تكون مطلباً عسير المنال على من برومه. وما سهولة الفاظ ابن المقفع في النثر، وسهولة الفاظ أبي العتاهية في الشعر - مع امتناعهما على المريد - الا أحسن مثال على مانقول..

# في شعر بدر شاكر السياب



بقلم الدكتور ابراهيم السامرائي

بغداد —

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

السياب من شعراء العراق المجددين ، ولعله كان من اوائل من حمل راية التجديد ، وقابل بشعره الجديد شعراء الجيل الماضي .

وقد رزق - عليه الرحمة - الشاعرية المتدفقة ، وهو واحد بين السابقين ان لم يكن اول هؤلاء .

هو شاعر ثري ، جمع له من الآلات والأدوات والف من مجموع ذلك ثقافة واسعة متشعبة أعانت شاعريته المتدفقة على النماء وعلى ادراك الأمور وتصويرها بكفاية قل نظيرها .

ومن مادة هذه الثقافة ادراك الشعر القديم وتذوق خاص للغرر من فرائده ، وهو يجيد صناعة تأليف الكلام ، مدركاً اسرار استعمال الالفاظ حتى لكأنك امام فحل من الفحول الذين غبر عليهم الزمن لولا انه يفجؤنا هنا وهناك بشيء مما الفنا استعماله من لغة هذا العصر .

وأنا أثبت الآن من قصيدته « مرثية الآلهة »(١) :

بلينـــا وما تبلَى النجوم الطوالع
ويبقى اليتامى بعدنا والمصانع (٢)
ويبقى« كوب» الجالب الكوب كالصدى
يغص المنادي بالردى وهو راجع
كأن الأميبىَ توأم وهـــو توأم
لها فهو في منجىً من الموت قابع

---

(١) انشودة المطر ( دار مجلة شعر . بيروت ) ص ٤١

(٢) في البيت الاول تضمين لمطلع قصيدة لبيد من الشعراء الجاهليين :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الديار بعـدنا والمصانع

غير أن السياب قد غير « الديار » فأثبت « اليتامى » . و « المصانع » في بيت السياب غير « المصانع » في قول الشاعر الجاهلي ، فالسياب يريد بها جمع مصنع الكلمة المشهورة . أما « مصانع » لبيد مايصنعه الناس من الآبار والأبنية وغيرها . قال الاصمعي : هي مساكات لماء السماء يحتفرها الناس فيملؤها ماء السماء ويشربونها .

ولكنـه الفود الذي يزحف الورى

الى حيث ترمي مقلتيه المطـــامع

أعنفـاء من صحواء نجـــد تقحّمت

بهـــا مغوبَ الشمس البعيد الزعازع

أم النّسل من أهوام فوعون هاجع

وقته انتفاضَ الدود منه المبـــاضع

ومن ليس يحيا لن يُوى وهو هالك

فلو كان يحيـــا ماعـدته الفواجع

وما كان الا اسماً « كوبَ » ابن مثله

به يُدمغ اثنان : الورى والبضائع

والقصيدة طويلة اجتزأت منها بهذه الابيات لتكون دليلاً على أن السياب قد وعى فرائد القديم وشوارده . غير أنه حتى في هذا القديم صاحب نظر جديد، وان الشكل القديم الذي عقد عليه قصيدته صرفه الى معان وأفكار جديدة هي نبات هذه البيئة التي يحيا فيها . ولم يلبس هذه المعاني الجديدة هذا الثوب القديم في هذه القصيدة ليس غير ، فقد بدا له ان يجمع بين هذا الشكل القديم وبين الجديد الذي أعلنه السياب وغيره من الشعراء الشبان دون أن يحس القارىء في هذا الجمع نفوراً او اضطراباً .

ومن ذلك ماجاء في قصيدته العامرة « من رؤيا فوكاي »[1] حيث انطلق السياب فيها بشعره وخواطره وافكاره ذات الشكل الجديد ، حتى اذا ذهب في

(١) انشودة المطر ص ٤٦



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ذلك شوطاً بدا له أن يطيل نفسه فيتخذ من بحور الشعر المشهورة ماتوسم فيه أن يواتم ذلك النهج الذي بدأه في أول القصيدة ثم يستمر على هذا النحو من عودة الى القديم فرجوع الى الجديد حتى يسرد في قصيدته هذه ماشاء أن يفرغه فيها مما اقتضاه الموضوع . وإليك شيئاً منها :

هيايَ ... كونَغاي ، كونغاي (١)
مازال ناقوس ابيكِ يقلق الماء
بأفجع الرثاء :
« هياي .. كونَغاي ، كونَغاي » ،
فيفزع الصغار في الدروب
وتخفق القلوب
وتغلق الدور بيكين وشنغهاي
من رجيع : كونغاي كونغاي
فلتحرقي وطفلك الوليد
ليجمع الحديد بالحديد

ويستمر الشاعر في هذا النغم الجديد ثم يعدل عنه الى شيء آخر من نغم يقوم على الوزن الواحد والقافية الواحدة وهكذا يزاوج بين النمط القديم والنمط

---

(١) تشير هذه الكلمة الى اسطورة صينية وهي ان ملكاً اراد ناقوساً ضخماً يصنع من الذهب والحديد والفضة والنحاس . وكلف أحد الحكام بصنعه ، ولكن المعادن المختلفة أبت أن تتحد واستشارت كونغاي — وهي إبنة ذلك الحاكم — أحد العرافين بالأمر فأنبأها بأن المعادن لن تتحد مالم تمتزج بدماء فتاة عذراء ... وهكذا القت كونغاي بنفسها في القدر الضخمة التي تصهر فيها المعادن ... فكان الناقوس ... وظل صدى كونغاي يتردد منه كلما دق :
« هياي .. كونغاي ، كونغاي » .



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الجديد، وكأنه يريد أن يؤكد أن الجديد لا يقتصر على التحرر من الوزن والقافية، وان القديم لا يقتصر على الحفاظ عليها ليس غير . وهو يقول في القصيدة نفسها:

تلك الرواسي كم انحط النهار على ... أقصى ذراها وكم مرت بها الظلم
فما فرحن بآلاف الشموس، ولا ... من الف نجم تردى مسها ألم
صماء بكماء لم تأخذ ولا وهبت ... ولا ترصدها موت ولا هرم
لو أودع الله إياها أمانته ... لنالهن على استيداعها ندم
ولا اقتسمن مع الأحياء مادفعت ... من جزية لاتوفى حين تقتسم
عن كل قهقهة من صرخة ثمن ... وما استجد دم إلا وضاع دم
وما تحمل آلام المخاض ولم ... يقرب من النور الا الفكر والرحم
وإن يكن أسعد الأحياء أكلها ... فانما هو اشقاهن لا جرم
«قابيل» باقٍ وان صارت حجارته ... سيفاً وان عاد نوراً سيفه الخذم
ورد «هابيل» ماقاضاه بارئه ... عن جانه ثم ردت باسمه الأمم

ثم يستمر في هذا النفس المنسجم مثيراً مسائل وأفكاراً جديدة وان كان لبوسها قديماً على غير مانعهده في شعر السياب من الانطلاق والتحرر من اشياء من قيود الوزن والقافية . ويمضي في هذه القصيدة محافظاً على الوزن الذي درج فيه، مغيراً القافيه في المقطوعات التي تلي هذه المقطوعة فهو يقول:

ماذا تريد العيون السود من رجل ... قد حاش زهر الخطايا حين لاقاها
زهراً على جسمي المحموم أقطفه ... في باقة من جراح بث أصلاها
هذا الربيع الذي تهدي شقائقه ... ريح المنايا الى قلبي برياها
أزهار تموز ما أرعى : أسلمه ... في عتمة العالم السفلي إياها ؟
أم صل حواء بالتفاح كافأني ... وهو الذي أمس بالتفاح أغواها؟

وهو يعمد الى هـذا الاسلوب نفسه من المزاوجة والمصاحبة بين الشكل القديم والشكل الجديد في قصيدته «بور سعيد»(1) فيقول :

يا حاصد النـــار من أشلاء قتلانا … منك الضحايا، وان كانوا ضحايانا
كم من ردىً في حياة وانخذال ردىً … في ميتة وانتصار جـاء خذلانا
إن العيون الـتي طفئت أنجمها … عجّلن بالشمس أن تختار دنيانا
وامتدّ كالنور في اعماق تربتنا … غوس لنا من دمٍ واخضلّ موتانا
فازٌ لزّلي يا بقايا كادَ أولنـــا … يبقى عليها ، من الأصنام ، لولانا
نحن الذين اقتلعنـــا من أسافلها … لاةً وعزى وأعليناه إنســـانا

قد اسلفت ان السيد السياب واسع الثقافة ، واتساع ثقافته يعينه على أن يأتي في شعره بآفاق جديدة يفتقر اليها اقرانه من شعراء هـــذا الجيل المتأخر . نقرأ شعره فيبدو لنـا حشد من الاشارات للأساطير التي تتجلى في شخوص من الآلهة والأبطال والفلاسفة وغير هؤلاء . وهو يسرد هذه الأساطير ليفيد منهـا العبرة والحكمة والفكرة الجديدة يأخذها اغريقية احياناً كثيرة غير انك لا تعدم أن تجد من بينها إشارات لأساطير شرقية هندية أو صينية كما انك واجد من ذلك مايمت الى تاريخ العراق القديم ، أو قل مايتصل بهذا الشرق عامة . يشير اشارات كثيرة الى « المسيح » والى مايتصل بالثقافة النصرانية كما يشير الى شيء مما ورد في القرآن الكريم ، وانك واجد ايضاً شيئاً يتصل بالذهنية الشعبية العربية القديمة كما سنتبين . وأنت تـدرك كل الادراك ان الشاعر مطلع على شيء كثير من الأدب

(1) انشودة المطر ١٨١

العربي الحديث وهو يلمح الى هذا في شعره . فهو يقول مثلاً في قصيدته « مرحى غيلان » (١) :

. . . . .

فكأن أودية العراق
فتحت نوافذ من رؤاك على سهادي : كلُ وادِ
وهبته « عشتار » الأزاهر والثمار . كأن روحي
في تربة الظلماء حبة حنطة وصداك ماء
أعلنت بعثي يا سماء
هذا خلودي في الحياة تكنّ معناه الدماءُ
« بابا ... » كأن يد المسيح
فيها كأنَّ جماجم الموتى تبرعم في الضريح
تموز عاد بكل سنبلة تعابث كل ريح
« بابا ... بابا ... »
أنا في قرار بويبَ (٢) أرقد في فراش في رماله
أنا بَعْلُ : أخطر في الجليل

. . . . .

بابا ... بابا
بأسلم الأنغام أية رغبة هي في قرارك ؟
« سيزيف » يرفعها فتسقط للحضيض مع انهيارك

(١) انشودة المطر ١٨
(٢) بويب نهر في قرية الشاعر

فانت تقرأ هذه الابيات فتقع فيها عينك على شخوص قديمة اخذت من هنا وهناك لتستقر في هذا النظم الجديد ثمن « عشتار » الى « تموز » من الآلهة البابلية القديمة الى « المسيح » الى « بعل » الى « سيزيف » . على انك لاتعدم أن تجد بيئة الشاعر القروية ماثلة كل المثول ، وسنعرض لهذا .

ولعل في هذه الاشارات القديمة في أدب السياب شيئاً مما اولع به ادباء الغرب ، فقد استوحوا آلهة الاغريق واشاروا الى أساطيرهم حتى أمست هذه من المسائل المعروفة للقارىء الغربي . فأنت لاتجد مسرحية من مسرحياتهم الحديثة الا كان فيها في الغالب شيء مما أشرنا اليه . وكأن هذا الأدب الاغريقي لم يعد كافياً لهم فقد جنحوا الى مافي العهد القديم والعهد الجديد من فوائد اقتنصوها وأدخلوها في أدبهم .

وهو في هذه القصيدة مخاطباً طفله الصغير « غيلان » يقول :

**ياظلّيَ الممتد حين أموت ، ياميلاد عمري من جديد :**
**الأرض ( ياقفصاً من الدم والأظافر والحديد**
**حيث « المسيح » يظل ليس يموت أو يحيا كظلٍّ**
**كبد بلا عصب ، كهيكل ميّت ، كضُحى الجليد**
**النور والظلماء فيه متاهتان بلا حدود )**
**« عشتار » فيها دون « بَعْل »**
**والموت يركض في شوارعها ويهتف : يانيامُ**
**هبّوا ، فقد ولد الظلامُ (١)**
**وأنا « المسيح » أنا السلامُ**

(١) كان كهنة ايزيس ينطلقون، في منتصف ليلة ١٢/٢٥ من كل عام هاتفين في شوارع الاسكندرية : لقد وضعت العذراء حلها وقد ولدت الشمس .

وهو في قصيدته مرثية الآلهة يشير اشاراته المعهودة الى الأساطير التي عمر بها شعره مفيداً من ذلك فائدة جعلت شعره زاخراً بالصور حافلاً بالحركة فهو يقول : (١)

ولما تشظى قلب نرسس وانثنى ... يلم الشظايا منه شار وبائعُ
وغذّى بها القلب الذي حين ذاقها ... غـا فيه نابا كوسج ٍ فهو قاطعُ
هوى كل عال من إله وسافل ... الى حيث ما من راحل ثم راجعُ
وأفضى الى العرش السديمي معدن ... ءالمتاح من احداق «ميدوز» لامعُ

و « ميدوز » هولة في أساطير الاغريق تحيل من تلتقي عينه بعينها الى صخر .

وهو يقول في « حقائق كالخيال » (٢) :

أزهار تموز ماأرعى : أسلمه ... في عتمة العالم السُّفلى إياهـــا
أم صِلّ حوّاء بالتفاح كافأني ... وهو الذي أمس بالتفاح أغواها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

و « تموز » هذا هو أدونيس إله الخصب والنماء ، وحبيب عشتروت — أوفينوس — إلاهة الحب وهو يقضي نصفاً من السنة — الشتاء — في العالم السفلي مع برسفون ، والنصف الآخر — الصيف أو الربيع — على الأرض مع فينوس .

وفي قصيدته « قافلة الضياع » (٣) يقول :

---

(١) انشودة المطر ٤٣ .

(٢) المتحدث في هذه القصيدة مريض في مستشفى الصليب الاحمر في هيروشيما ، مصاب بالزهري الذي افترس دماغه حتى عاد يتخيل اشياء لاوجود لها ، ولكنه ـ من خلال أوهامه ودون وعي منه ـ يصور جانباً مما حدث في هيروشيما حين القيت عليها القنبلة .

(٣) انشودة المطر ٥٩

أرأيت قافلة الضياع ؟ أما رأيت النازحين ؟

. . . . . . . .

. . . . . . . .

السائرين الى وراء

كي يدفنوا « هابيل » وهو على الصليب ركام طين ؟

- « قابيل ، أين أخوك ؟ أين أخوك ؟ »

جمّعت السماء

والاشارة الى « هابيل » و « قابيل » معروفة ، والأسفار القديمة تثبت ما كان من أمر قابيل وهابيل وآدم وحواء وقصة خروجها من الجنة .

ويصف في هذه القصيدة مأساة اللاجئين الفلسطينيين . وتبرز في وصفه الصور المثيرة التي يتخيلها والتي يعين على تصورها هذا الواقع المؤلم المرير فيقول :

النار تصرخ في المزارع والمنازل والدروب

في كل منعطف تصيح : « أنا النضار ، أنا النُضار »

من كل سنبلة تصيح ومن نوافذ كل دار

« أنا عجل « سيناء » الاله أنا الضمير ، أنا الشعوب

أنا النضار ! »

وفي هذا إشارة الى العجل الذي صنعه اليهود من الذهب واتخذوه إله يعبدونه من دون الله ولم يكترثوا لتعاليم موسى وشريعته .

وهكذا يسلك في جميع قصائده التي يعقدها على موضوع من موضوعات



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذا العصر ، أو قل على مشكلة من المشكلات أو مأساة من المآسي التي يعانيها شعب من شعوب ارضنا هذه فيستحضر في قصيدته شخوصاً لم يدرجوا على أرضنا هذه بل عاشوا في اذهان امم سبقتنا بقرون عديدة او ربما كانوا من متخيلات تلك الامم البائدة .

وفي قصيدته « رسالة من مقبرة »[1] مخاطباً المجاهدين الجزائريين يقول :

وعند بابي يصرخ المخبرون :
« وعرٌ هو المرقى الى الجلجلة ،
والصخر ، ياسيزيف ما أثقله
سيزيف ... انّ الصخرة الآخرون ! »

. . .

هذا مخاضُ الارض لاتيأسي
بشراك يا أجداث حان النشورْ
بشراك في « وهران » أصداء صورْ .
سيزيف ألقى عنه عبء الدهور
واستقبل الشمس على « الأطلس »
آه لوهران التي لاتثور

وفي هذه الابيات يستحضر الشاعر « سيزيف » وقارىء الآداب القديم يعرف ذلك جيداً . والجلجلة الجبل الذي حمل المسيح صليبه الى قمته .

وقد يكون موضوع القصيدة في شعر السيد السياب مما يحيط به في بيئته التي خرج منها ، وهو في هذه الموضوعات يستحضر ظروف تلك البيئة ويصورها

---

(١) انشودة المطر ٧٨

بريشة الحاذق الصناع فيأتي على ظروف قريته « جيكور » كما في قصيدته « مرثية جيكور »[1] غير أنه على دأبه يرنو ببصره بعيداً عن ظروف هذه القرية فيسري عبر التاريخ الطويل فيقول :

يا صليب المسيح ألقاكِ ظلاً        فوق جيكور طائر من حديد
يالظل كظلمة القبر في اللو        ن و كالقبر في ابتلاع الخدود
والتهام العيون من كل عذرا        ءَ كعذراءِ « بيت لحم » الولودِ
مر عجلان بالقبور العواري        من صليب على النصارى شهيد
فاكتست منه بالصليب الذي ما        كان إلا رمز الهلاك الاكيدِ :
لارجاء لها بان يُبعث المو        تى و لا مأمل لها بالخلودِ
ويل جيكور ؟ أين أيامها الخُضْ        رُ و ليلات صيفها المفقود

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ربما لا نلقى الشاعر أحفى بالصليب وبالمسيح وبما يتصل بهذا اللون من الثقافة الشرقية النصرانية مثل بدر السياب وما أظن أن الشعراء النصارى استحضروا في شعرهم شيئاً مما استحضره السياب في هذا الموضوع . وقد تذكر وانت تقرأ هذه الألوان النصرانية مارون عبود من كتاب العربية اللامعين الذي ثقف العهد القديم فأفاد منه في أدبه مادة ممتعة .

وفي هذه القصيدة أيضاً اشارات أخرى بعضها تاريخي وبعضها مما عرف في الثقافة الشعبية . فهو يقول :

لا عليك السلام يا عصر « نعمان بن عيسى » وهنتَ بين العهود
ذلك الكائن الخرافي في جيكور ، « هومير » شعبه المكدود

(١) المصدر السابق ٩٣

جالس القرفصاء في شمس آذار وعيناه في بلاط « الرشيد »
يمضغ التبغ والتواريخ والأحلام ، بالشدق والخيال الوئيد
مازال « البسوسُ » محمومة الخيل لديه ، وما خبا من « يزيد »
نار عينين ألقتاها على « الشمر » ظلالاً مذبحات الوريد !
كلما لزّ شمره الخيل أو عوّى أبو زيده التحام الجنود
شد راحاً وأطلق المغزل الدوار يدعوه للمدار الجديد

. . . . . . .

فهو يتحدث عن أحدهم يدعوه بـ « نبهان بن عيسى » ويصفه كأنه « هو مير » وهو مير الشاعر الاغريقي الأعمى ، ثم يمضي في وصف حاله وكيف يقص الحكايات القديمة كقصة حرب البسوس وقصة مقتل الحسين بن علي ( ر ) وقاتله « شمر بن ذي الجوشن » ، والشمر في أذهان العامة شيء مخيف فهو مرتد ثياباً حمراً وعيناه تقدحان شرراً ، وربما نسي أن يشير الى أن العامة حين كانوا يمثلون مقتل الحسين لا بد أن يكون من يمثل دور « الشمر » أعور .

كما يشير الى قصة أبي زيد الهلالي .

ولعل من مجموع ذلك تبرز صورة واضحة للقرية التي درج فيها صاحبنا السياب .

وفي قصيدته « العودة لجيكور » (١) يشير الى اسطورة عما اعتقدها المجوس ، وهي بزوغ كوكب عرف منه المجوس ان « المخلص » قد ولد فهو يقول :

**في صيف جيكور السخي الثري**

(١) المصدر السابق ١٠٨

أسريت أطوي دربي النائي

بين الندى والزهر والماء

أبحث في الآفاق عن كوكب

عن مولد للروح تحت السماء

عن منبع يُروى لهيب الظماء

عن منزل للسائح المتعب

وفي القصيدة نفسها يخاطب « جيكور » ويناجيها مناجاة حزينة عاطفية فيقول :

من ينزل المصلوب عن لوحه

من يطرد العقبان عن جرحه

من يرفع الظلماء عن صبحه ؟

ويبدل الأشواك بالغار ؟

أواه ياجيكور لو تسمعين

وهو يتخذ من جيكور بيته المقدس أو قل المكان الذي يأوي اليه وهو من أجل هذا يستحضر « حراء » و « حراء » هذا هو الغار الذي هبط فيه الوحي على النبي محمد ( ص ) . وحين هاجر الى المدينة اختبأ فيه وقد جاء في الأثر ان العنكبوت حاكت بيتها على بابه فبدا مهجوراً ولم يهتد المشركون الى محمد. والسياب يلمح الى هذا فيقول :

هذا حراثي حاكت العنكبوت

خيطاً الى بابه

يهدي اليّ الناس . اني أموت

والنور في غابه

قلت في غير هذا المكان : ان الشاعر قد زود بمادة اعانته على ايضاح الكثير من الصور فجاء شعره غنياً بالاشارات المفيدة . ومن مواده التي أفاد منها الثقافة الاسلامية فهو يشير الى ماورد في مظان هذه الثقافة كلما جدت الحاجة الى ذلك . هو يشير مثلاً الى «البراق» وهو الجواد الذي أسرى عليه النبي من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، ليلة معراجه . كما يشير الى قصة الغراب الذي أرشد قابيل كيف يدفن أخاه بعد أن قتله وهي القصة التي ترد في القرآن الكريم .

غير أن زاده من الالمام بالأساطير الاغريقية زاد وافر يدل عليه اشاراته الكثيرة التي حفلت بها مجموعته « أنشودة المطر » . وانت تستطيع ان تجرد من هذه المجموعة جملة من شخوص تشير الى اساطير وآلهة عرفها الاغريق الأقدمون . على أنه وهو يشير هذه الاشارات الغريبة مخلص كل الاخلاص لبيئته التي درج فيها ، مصور الوانها أجمل تصوير لا يبتعد عنها الا ليؤكد وجوده فيها .

السياب عراقي نشأ في أقصى الجنوب حيث الماء والشجر والخضرة وغاب النخيل وشط العرب والمد والجزر . وأنت لاتعدم أن تجد وجود هذه جميعاً في كل صفحة من صفحات هذه المجموعة الممتعة .

ولنسمعه في مقطوعة من قصيدته « مرحى غيلان » يقول :

أنا في قوار « بويبَ » ارقد ، في فواش من رماله
من طينه المعطور ، والدمُ من عروقي في زلاله
ينثال كي يهب الحياة لكل أعراق النخيلِ
أنا بَعْلُ : أخطر في الجليلِ . . .
على المياه أنثُ في الوَرَقات روحي والثمار



ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

والماء يهمس بالخرير يصلّ حولي بالمحار
وأنا بويبُ أذوب في فرحي وأرقد في قراري .

ويتجلى في هذه المقطوعة طبيعة بصرية جنوبية يبرز فيها النخيل والماء والرمل وما يتناثر عليه من أصداف المحار التي يعبث بها الصبيان . ومثل هذا كثير في شعر السياب .

رحم الله السياب الذي أخلص لفنه وأخلص لبيئته ووطنه .



# فضلات الغني

للكاتب الأمريكي هيرمان ملفيل
ترجمة : ملك أبيض العيسى



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حدث ذلك عام ١٨١٤ اثناء الصيف الذي اعقب الفترة التي تذوقت فيها حلوى الفقير اول مرة . لقد نصحني طبيبي ان أقوم برحلة في البحر . كانت معركة واترلو قد وضعت حداً لمأساة حروب نابليون الطويلة وانطلق عدد كبير من الأجانب لزيارة اوربا . وصلت لندن حين كان الأمراء المنتصرون يحتشدون هناك في ضيافة جديرة بألف ليلة وليلة ، جديرة بطبقة نبيلة تجيد التذوق الرفيع والأبهة ، جديرة بأكثر النبلاء والملوك ذوقاً وتهذيباً ، ضيافة الأمير جورج ولي عهد بريطانيا .

كنت قد رفضت حمل بطاقات تساعدني على دخول المجتمعات اللندنية ، واكتفيت بواحدة منهـــا تعرفني الى مدير المصرف الذي اتعامل معه . وكنت أهيم هنا وهناك بحثاً عن احسن الاستقبالات التي يمكن أن يحظى بها مسافر مغامر ، اعني تلك التي تلقيها المصادفات على طريقه الذي تخطه المصادفات .

سأغفل كل شيء لأنقل اليكم تجربـــة اقتضتني مدة ساعة من الزمن باشراف صديق تعرفت عليه في الشارع العام في « شيب سايد » . كان يرتدي زياً رسمياً لانه يمارس عملا رسمياً ثانوياً في البلدية لاادري ماهو على وجـــه التحديد . وكان ذلك اليوم يوم عطلة عنـــده . كان حديثه يدور بصورة رئيسية حول هيئات البر والاحسان اللندنية . وقـــد اصطحبني لزيارة واحدة أو اثنتين منها وراح يحدثني باعجاب احســـان اخرى . ثم ابتدرني ، بينما كنا نعود الى شيب سايد ، قائلا

« اذا ماكنت على شيء يسير من حب الاطلاع على هذه المواضيع فدعني اصطحبك ايها السيد ، الى اكثر اعمال الاحسان اهمية ، انه ذلك الذي يشرف عليه اللورد رئيس بلديتنا رغم ان الاحسان هذه المرة لم يضطلع به اللورد الرئيس وحده ، وانما اتفق ان اسهم في صنعه أباطرة وملوك وامراء . هل تذكر الحدث الهام الذي جرى بالأمس ؟

– أتعني ذلك الحريق المؤسف الذي وقع على طرف البحيرة والذي ألقى بكثير من الفقراء على ارصفة الشوارع ؟

– لا . ليس ذاك ماأعني . ان حدث البارحة هو الوليمة الضخمة التي أقامتهـــا دار البلدية على شرف الأمراء . من منا لايذكر ذلك ؟ لقد قدم الطعام كله ياسيدي في آنية من الذهب والفضة الصرفة تقدر قيمتها بمائتي الف استرلينية اعني مليوناً من دولاراتكم اما اللحوم والخمور والمفارش والخدمة فلا تقدر تكاليفها بأقل من خمسة وعشرين الف ليرة استرلينية أي مايعادل مائة وخمسة وعشرين الف دولار من نقودكم .



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

– نعم اذكر ذلك جيدا ياصديقي . ولكني لااظنك تسمي اطعام الملوك بهـذا الثمن الباهظ احسانا . اليس كذلك ؟

– لا بالطبع . لقد تمت الوليمة بالأمس اما الاحسان فيتلونها اليوم . وكيف تريد ان يكون الامر مختلفاً مادمنا بصدد الحديث عن امراء ؟ أرى اننا اصل في الوقت المناسب . تعال نحن هنا في كينغ ستريت . وهناك غير بعيد يقع بناء البلدية أتراك تتوق حقاً الذهاب اليه؟

– بكل تأكيد ياصديقي العزيز . اني على استعداد لسير معك حيثما اردت فما جئت هنا الا للتجول والمشاهدة .

وتحاشينا المدخل الرئيسي الذي كانت تسده الجماهير المزدحمة وادخلني مرافقي من باب جانبي خاص افضى بنا الى فسحة ذات جدران اربعة عالية دونما سقف تقع خلف البناء . كان المكان لايقل بشاعة عن فسحة « فايف بوينتس » ذات الأسوار القاتمة وكان مزدحماً بجماهير هزيلة جائعة متوحشة تتصارع وتتصارع في سبيل هدف غامض ، يحمل كل من افرادها بطاقة زرقاء قذرة .

قال دليلي :

« ليس من طريق آخر امامنا . لايمكننا الدخول الا مع الجمهور . حاول من فضلك ارجو ألا تكون مترددا افضل ذلك ، ماراًيك ؟ ان المشهد جدير بأن يرى فاحتفال خيري ضخم كهذا لايحدث كثيرا . هناك الاحتفال السنوي الذي يقيمه اللورد رئيس بلديتنا ولكنه على روعته لايساوي شيئا اذا قيس بما سنراه اليوم .

وبينما هو يتحدث ، فتح باب ارضي من بعيد وهرولت الجماهير القذرة نحو القبة المعتمة . أشرت الى دليلي موافقا على اقتراحه ثم انزلقنا الى جوار المجموعة الضخمة وماهي الا لحظة حتى اصبحت عودتنا الى الوراء شبه مستحيلة بعد ان اندفعت الجماهير الصاخبة خلفنا ، ولم استطع اذ ذاك الا ان اهنىء نفسي لحصولي على دليل مدني ورسمي في الوقت نفسه يعطيه لباسه الرسمي نفوذا وسلطة جليتين حيثما سار .

كان وضعي كما لو أن جمهرة من آكلة لحوم البشر كانت تدفعني الى شاطىء وثني . كانت الكائنات البشرية تزأر من الجوع لان البؤس في مدينة كلندن يصيبها بنوع من السعار ، بينما فعل الريف فعله في تهدئة الأعصاب . ولذلك رأيتني وانا اراقب الجموع الهزيلة المتوحشة اعيد الى مخيلتي صورة عين امرأة كوتر الهادئة الزرقاء . وحين بلغنا هذا الحد ، رفع دليلي آداة معقوفة لامعة من الفولاذ الى اعلى من رأسه كان يضعها حتى هذه الساعة في حزامه ( لم اكن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اعرف ماهي ولكنها لم تكن سيفا ) ثم هدد بها البؤساء لردعهم عن ايذاء الاجنبي الذي كنته.

وكما يتقدم الحطاب في الغابة الكثيفة كنا نغوص ببطء تحت القبةالمخزنة حيث تترددأصداء زئير الجماهير . كنا نتقدم أبدا الى الأمام ، الى الأمام في الظلمة الرطبة ثم على طول سلم حجري يفضي الى باب كبير . وهناك كانت الجموع الموبوءة تزحف منتشرة على ضوء النهار الساطع بين جدران وتحت قبة مملوءة بالنقوش اعادت الى ذاكرتي هجوم الجماهير الكاسح في اروقة فرساي . وماهي الا لحظات حتى وجدتني اصاب بالدوار في زحمة الصعاليك داخل مبنى البلدية الشهير .

وهنا حيث اقف الآن ، حيث تقف الجموع المتراصة ، كان قد جلس قبل أقل من اثني عشرة ساعة صاحب الجلالة الامبراطور الكسندر عاهل روسيا ، وصاحب الجلالة فريدريك غليوم ملك بروسيا ، وصاحب السمو الامير جورج ولي عهد انكلترا ، والسيد دوق ولنجتون ذو الشهرة العالمية ، مع مجموعة رفيعة من القادة العسكريين المظفرين ومن نبلاء انكلترا وسادة القارة الاوربية .

كانت الجدران تموج من هنا وهناك ، كغابة حين تورق ، كانت تموج برايات المنتصرين التي تزينها . وكان المرء لايرى من الخارج شيئا ، ربما لأنه لم يكن هناك نوافذ على اقل من ارتفاع ثمانين قدما عن سطح الارض . ووجدتني هناك معزولا عن أية وجهة نظر أخرى ، محاطا بمشهد واحد رائع ، رائع من كل الوجوه الا اذا وقع النظر على الارض فقد كانت الارض هناك لاتقل قذارة عن اي جحر او وجار للكلاب . كانت عوارضها الخشبية العارية مفروشة بالفضلات والبقايا المتنوعة التي تركها حفل البارحة على طول الصالة الكبيرة ، بينما كانت الصقالتان المتوازيتان من خشب الصنوبر العاريتان البشعتان القذرتان ، تحملان بقايا اقل كثافة . ومايلبث ان يتبادر الى ذهنك ان الرايات الملونة انما وضعت لتناسب ملوك الحفلةالسابقة، اما الأرض العارية فقد تركت لتناسب شحاذي هذا اليوم .

كانت الرايات تنظر الى الارض من عليائها كما نظر الفتي من شرفته الى لازار المجذوم .

كان صف من الخدم يوقف تدفق جماهير الغوغاء النافذة الصبر بمقابض الحراب ولولا ذلك لانقلب حفل الاحسان هـــذا الى حفلة سلب ونهب . وكانت مجموعة اخرى من الموظفين الذين يرتدون الأثواب المحلاة بالذهب يوزعون بعض المآكل المجتزأة والاغذية الباردة وفضلات الملوك . كان الشحاذون يمرون الواحد تلو الآخر ثم يهزون بطاقاتهم الزرقاء عاليا



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويتلقون في مقابلها اما بقايا متهدمة لديك بري او قالج فطيرة سلب منها اللحم والجزء الاساسي حتى ليخالها المرء حافة قبة قديمة تخلى جسمها عنها .

وهمس دليلي في اذني قائلا :

— ما ابهاها حفلة للاحسان ! انظر الى هذه الفطيرة التي تلتهمها تلك الفتاة الشاحبة . اني لأكاد اجزم بأن امبراطور روسيا بالذات قد أصاب منها في الليلة الفائتة .

وهمست :

— ذاك محتمل جدا . يخيل الي حقا ان امبراطورا او ملكا شديد النهم قد وضع يده عليها .

— وذاك الديك البري ... نعم ذلك الديك الذي فاز به الآن الصبي الذي يرتدي القميص الممزق ! لاريب في أن الأمير ولي العهد قد تعشى منه ...

كان طرفا عظام القص قد حفرا دوئما رحمة ، فما يظهر الك منه الا عظام الجذع عارية يزينها الجناحان والقوائم التي لم تمس .

واستطرد دليلي :

— نعم ، من يدوينا قد يكون صاحب السمو ولي العهد قد طعم من هذا الديك البري نفسه .

— أنا لاأشك فيما تقول . يخيل الشاظر ان سوء مفرم الى حد لايوصف باللحم الأبيض في الطيور . ولكن أين رأس نابليون على طبق ؟ لقد خطر لي أنه لابد ان يكون الصنف الرئيسي في هذه الوليمة .

— انك اليوم ذو مزاج مرح « أيها السيد » ان القوزاق انفسهم تتناهم موجة الاحسان في دار البلدية . انظر الى بلاتوف الشهير زعيم القوزاق ( لقد كان حاضرا هو أيضا وليمة الامس ) لقد اخذ حرينتمن دون شك ، في قطعة الخنزير هذه . انظر اليها ! ان العجوز الذي لايلبس قبعا هو الذي يمسك بها الآن ، انه يلتقطها دون ان يخطر له توجيه الشكر للقوزاقي الطيب المحسن الذي تخلى عنها له . آه ! هاهو ذا رجل آخر اقوى منه يلتقطها من يده . انه يقع ارضاً .. يارب ارحم ! ان الطبق الآن شبه فارغ . لم يبق منه الا فتات غلاف القطعة الذي اعملت الأيدي فيه تقطيعا .

ووجهت لمرافقي الملاحظة التالية :

– يقال ان القوزاق ياصديقي شديدو النهم بالمواد الدسمة . أرى ان احسان زعيمهم لم يبلغ الحد الذي تصورته .

– خذ الحفلة في مجموعها فهي بالرغم من كل ذلك حفلة خيرية رائعة . انظر حتى يأجوج ومأجوج هناك في طرف الصالة الآخر يضحكان مرورا بهذا المشهد ..

ونبهته :

– ألا ترى معي أن الشمات ، كائنا من كان ، قد اخرج هذا الضحك اشبه مايكون بالسخرية ، بضرب من السخرية اللاذعة ؟

– يخيل لي ياسيدي ان ذلك يتوقف على الطريقة التي تنظر بها الى الأشياء . انظر الآن اني اراهن بليرة ذهبية على ان السيدة زوجة الورد رئيس البلدية قد وضعت ملعقتها الذهبية في قطعة الجيلاتين المذهبة هذه . انظر الى ذلك العجوز الذي تشبه عيناه قطعة الجيلاتين كيف دفع بها الى بلعومه والتهمها لقمة واحدة .

وهمست :

– الراحة لقطعة الجيلاتين !

– ماأنبلها ، ما أكرمها ، ما أروعها حفلة خيرية ! انك لاتجد مثلها الا في بريطانيا التي تغذي حتى شحاذيها بالجيلاتين المذهبة ..

– على رسلك ياصديقي ! أتريدني أن اصدق انها تغذيهم بها ثلاث وجبات كل يوم . ألا تعتقد بان هذه الجيلاتين ليست غاية مايعطى هؤلاء الفقراء . ألا ترى ان الأفضل لهم هو الحصول على شيء من الخبز ولحم البقر وعلى عمل يؤدونه ، عمل مأجور ؟

– ولكنهم لم يأكلوا هنا مجرد شيء من الخبز ولحم البقر . ان عشاء الملوك واولياء العهد وقادة الجيوش لايقتصر غالبا على الخبز ولحم البقر . ان الفضلات لتختلف . قل لي بربك هل ينتظر ان تكون فضلات الملوك كفضلات السنجاب ؟

– هيه انت ! نعم انت الذي اقصده .. تنح قليلا أو خذ شيئا من الطعام وابتعد عن الطريق . اليك شيئا من الفطير . خذه واشكر الله على انك تذوقت نفس الطعام الذي أصابت منه السيدة دوقة دوفونشاير . أتسمعني أيها الشحاذ الجلف ؟

والتفت الى دليلي قائلا :

– انه لايعنيني ، أليس كذلك ؟ لايمكن أن يكون قد خلط بيني وبين الآخرين !

واجاب دليلي وهو يبتسم :

– ولم لا ؟ انما يحكم على الناس بمن يجتمعون اليهم . انظر الى نفسك ، ليست قبعتك وحدها هي التي دعكت ومالت الى جانب رأسك ، ولكن بزتك نفسها قد اتسخت وتمزقت في مواضع عدة . ثم صرخ بصاحب الثوب الاحمر :

– لا ، انه صديق مسكين ، اؤكد لك انه متفرج فقط .

واجاب الثوب الاحمر وهو يحيي دليلي بلهجة ودية مما يدل على انه زميل له :

– آه ! أهذا أنت صديقي؟ حسنا ساعد زميلك على الخروج قبل ان يبدأ الزحام الكبير الذي يتأخر ذلك . انتبه لقد بدأ . هيا اخرج به . .

كان قد تأخر في اصدار الايعاز . فما أن فرغ الطبق الأخير حتى انطلقت الجماهير التي لم يهدأ جوعها في صراخ وحشي هز الرايات كريح عاتية ، وملأ الجو برائحة نتنة كرائحة القاذورات . ثم اندفعت الى الصالات الخشبية وقطعت الحواجز وطفق المساكين يفجرون غيظهم في الصالة وهم يرفعون اذرعتهم العارية التي تشبه اجزاء اعضاء المضلات ، حتى ليخيل اليك كأن غيظا ملجما ، كأن رغبة غاضبة وحشية تملكتهم فجأة ، وكأن نصف الساعة الوحيدة التي شاهدوا خلالها ابسط مظاهر الابهة التي تميز الولائم الملكية ، كأنما عملت اللقيمات القليلة من الفطائر المفرغة ، من الديوك البرية المسلوبة ، من جيلاتين اللحم والسمك التي سرق اكثرها : كأنما عملت هذه اللقيمات القليلة التي استطاعوا التقاطها على اشعارهم ببشاعة الصدقات . ولذلك كانوا تحت تأثير هذا المزاج الغاضب الذي اجتاحهم فجأة او تحت تأثير غرائز لايعرف كنهها . كان هؤلاء المساكين اخوة لازار ، يبدون على استعداد لان يبصقوا فتات السادة الذي يطعمونهم بالحقارة .

وهمس دليلي بقوة :

– من هنا ، من هنـــا . . . تمسك بظهري كما تفعل النحلة ، لقد رأى زميلي اشارتي وأجاب عليها بان فتح لنا هذا الباب الخاص ، ادفع نفسك اليه . . . ادفع نفسك . . . بسرعة . . ها هي قبعتك المجعدة . . . اما بزتك فلاشأن لي بما يصيبها . . ادفعني على هذا الرجل . . ألقه ارضا ، تماسك جيدا ، احن جسمك . والان ، هيا اركض ففي ذلك سلامتك ! ها ، هنا يتنفس المرء بحرية ، الشكر لك يا الهي . مهلا يبدو انك قد أصبت بالدوار ، هولا؟!

- لاتزعج نفسك ان الهواء سينعشني .

وتنشقت الهواء غير مرة ، فاحسست شيئا من الانتعاش .

ـ والان ياصديقي العزيز قدني حالا ، ودون دوران ، الى شيب سايد . يتحتم علي ان اعود فورا الى الفندق .

ـ ليس في استطاعتك ، على كل حال ، ان تسير على قدميك الى هناك . انظر الى هندامك ، يجب أن أبحث لك عن عربة تمتطيها .

واجبت موافقاً وانا آخذ بعين الاعتبار أسمالي الممزقة بأسى ، وألقي بعد ذلك نظرة حسد على لباس دليلي السليم وقبعته التي تتحدى الصدمات وتمتنع على التمزق .

وقال مرافقي الطيب وهو يدلني الى عربة اجرة ، انا وأسمالي :

- ها انت قد نجوت . عندما تعود الى وطنك ، يمكنك ان تتباهى بانك حضرت أروع حفلات الخير في انكلترا . ولن تنسى بالطبع ان تشير الى ان المعركة التي نشبت لم تكن الا معركة طبيعية لابد منها في مثل هذي الظروف . الوداع .

ثم اضاف وهو يتجه الى السائق القابع على مقعد :

- جيهو ، انتبه الى انك تحمل سيدا في عربتك ، انه خارج من حفلة الاحسان التي تقيمها دار البلدية . وهذا ما يفسره مظهره . اذهب الآن وتذكر ان وجهتك : حانة لندن ، فليت ستريت .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

. . .

لتنقذني السماء ، السماء ذات الرحمة الواسعة ، من حفلات الاحسان الرائعة في لندن ! هذا ما كانت تهمس به تنهداتي تلك الليلة وانا اقبع في سريري بجسمي الذي طحن طحنا .

ولتنقذني السماء ايضا من حلوى الفقير وفضلات الغني .



# رباعيات طائشة

شعر علي الجندي



. . أليل مدينة أموات
ووراء ستار الصمت تصوّح كلماتي!
وعلى أرض الساعات أطوّح خطواتي
فكأني حارس ليل مهترىء القسمات . .

. . ووراء ضروع الوجد المسعوره
أتخيّل روحاً تشنق مقهوره
فأحاول أن أقتحم البوب المهجورة . .
لكني أسقط، لا أملك غير صلاة مبتوره!!

. . .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يا أيها النهار يا انتصار لهفة الجنون والشباب
يا هيكلا للعفن السعيد والذباب
توجتني بالورق البالي وبالهباب
وأنت . . لم ترحل عن الديار ، لم تعبر لنا بباب ! !

. . وعورة الشمس غدت نهباً لأعين الحجاره
تنهشها ، تخمشها وموشها تفترع البكاره
تسألنا الشمس ونحن في طريق العودة الرعناء للمغاره :
ماذا تبقى لغد المجهول غير حسرة الخساره ؟ !

. . .

. . يبعث من أغوار موتي القديم بيت شعر
مشحونة كلماته بوهج الشذا والخمر .
محدبٌ معناه ، مشحوذ على حجارة السكون
. . لكنه يظل واحدا ، يموت في بداية النعوت !

. . .

أبحر خلف الطيف والعباره ،
أثير في طريق هَوَسي غباره
أسأل دار الجن عن أغنية
ماجنة وأنتقي الشراره ! . .

. . .

.. هذي الليلة شوقٌ بحويٌ القسماتْ
هذا الصمت يهزُّ الاعماق بثير الشهوات
وضياؤك منسكب حولي ، مرُّ النغمات
فكانَّ إهابك يغدو دنياي ، يظللني ،
يملأ صدري بالآهات !

. . يابنت الفجر البدويّ
يادنُّ الخمر الليلي

ياباقة زهرٍ شتوي
ياحزناً يعبرني دوماً

يحملني نحو البرّيه
فاطول وشاح الحوريه
وأقول بأنك في هوَسي : ثوبٌ الصوفيّ

. . .

تحترق الألوهة الشمعيّه
فما تنير دوبنا

لكنها تثير في آفاقنا الصيفيّه
زوابع الشروق و . . الحريه ! !

. . وفارس النجوم والنيازك القديه
مغترفٌ همومه من منهل الضياء

لايعرف الحنين للسماء

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يركع في صحوانه ، مبتهلا لقدمي قيمه ! . .

. . .

. . يلحُ عليَّ هذا الليل بالسهد ،
يريق لهيبه الزبقيَّ عن عمد
خلال دماي يبعدني عن الدرب الحريريّ
كأنَّ جنازة اللحظات قافلةٌ ،

على خط حديديّ

. . .

. . وأنت ياعكازة الضرير
ياربة الشرور
ياقطعة من الضمير
يالهباً يراقص الثياب في حبور ! !

. . .

. . زوديني بالحنين الجاهل المرّ ، اسكريني
ياابنة الأفيون ياأفعى على رملي الحزين
أترعي بالعلقم الغبيّ صدري . . واهجريني ،
فعلى بوّابة الايمان وشمٌ من ظنوني . .

. . .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

.. سُدّت الأبواب في وجهي على درب الجليلِ
وتوارى نجمها الصيفي عني في ذهولي
.. أيها المدلج نحو الفجر ماترجوه ولىّ
والذي شئت إلهاً ، لحجار الليل صلىّ ! !

. . .

.. وليل الضيق والأشواق والوحده ،
يمرُّ خلال صبح الحب والصور الربيعيّه ،
يغلُّ وراء اسراري فلا ردّه
فيصلبني على شُبّاك أغوارٍ شتائيه ..
.. وتمحو في سماواتي الصليبيه
سحابات بلا لون ، ولا غيث جليديه
فأشعر أن قلب الليل في صدري
ولكني ..
أعيش الصبح محترقاً ولا أدري ،
وأبدع كل مافي الكون في حبي وفي شعري !



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

## مجموعات « المعرفة » المجلدة

يسر ادارة مجلة « المعرفة » أن تعلم قراءها واصدقاءها عن وجود كميات محدودة من مجموعات مجلة « المعرفة » منذ صدورها مجلدة - كل أربعة اعداد في مجلد واحد - وادارة المعرفة مستعدة لارسالها لطالبها بثمن ٢٠ ليرة سورية لمجموعة السنة الواحدة المؤلفة من ثلاثة مجلدات يضاف اليه اجرة البريد للخارج ، حسب رغبة صاحب الطلب .

يرجى أن يكتب الى محاسبة مجلة « المعرفة » وزارة الثقافة والارشاد القومي - دمشق - مع ارفاق الطلب بالثمن المذكور . والمحاسبة مستعدة لتقديم المعلومات اللازمة بشأن التحويل من الخـــارج والارسال بالبريد العادي أو الجوي وفق الطلب .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

# الفنون

## الكتاب والموضوعات

- فنانو العودة الى ماقبل رفائيل
  **للناقد الانكليزي وليام لابكن**
  ترجمة عبد العزيز علون

- الصابر
  **مسرحية للأديب الصيني لوصن**
  ترجمة خليل الهنداوي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

# فنانو العودة الى ماقبل رفائيل

• للناقد الانكليزي وليم لابكن
• ترجمة عبدالعزيز علون

## الفصل الأول

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كان بين تلاميذ جون سيل كوتمان عندما كان استاذ رسم في مدرسة كلية الملك ، صبي غريب وأجنبي المظهر . وكان ابنا لشاعر ايطالي وقائد وطني يعيش منفياً في لندن . كان هذا الصبي دانتي غابرييل روزيتي الذي ساهم مع ميلليس وهولمان هنت ليؤسسوا فيا بعد اخوة العودة الى ماقبل رفائيل . وقد وضعت كتب عدة لتبيان الرائد بينهم وتحزب المؤلفون لأحدهم ضـــد الآخرين وحاولوا أن يكشفوا العامل الفعال بينهم في تأسيس اسلوب جديد في ميدان التصوير الزيتي . ولكن الحقيقة التي اهملتها اكثر هذه الكتب هي أنه لم تظهر هذه الثورة حتى التقى

الثلاثة عام ١٨٤٨ . وقد انعشت الاخوة بالمواهب المتنوعة والامكانات الخاصة . وبذلك تمكن اعضاؤها واصبحوا قادرين في آخر الشوط على الانتصار على النقد المعادي والألسنة التي تصدت لهم .

وقد رأى راسكين في روزيتي « القوة الذهنية الرئيسية » في الاتحاد . وكانت ناره وحماسته واحساسه الشاعري خير معين للجماعة ولكن حظه من الناحية التقنوية كان أقل من الثلاثة . وكانت له أفكاره ولكنه كان ضعيفاً في ترجمتها الى لغة الرسم والتصوير وكما كان يعوزه النشاط الذي يسند النظام الضروري ليكمل نواه في حقل التعبير . وبمقابل ذلك فقد كان ميلليس غير مشهور بأرائه ولكنه كان يتمتع بقوى مشهودة تكمن في عينه ويده . وكان عبقرياً لامعاً في التقنية ولم تعجزه مشكلة في ميداني الرسم والتصوير . ولم يكن لهولمان هنت طواعية ميلليس أو مثل روزيتي . ولكنه كان جاداً الى درجة كبيرة في احترام غاياته وكان صلب الرأي عنيداً في قراراته . وقد جمعت صلابته الآخرين بحزم وربطت جهودهم بالمثل العالية .

ولعله من المفيد أن نأخذ فكرة سريعة عن أصل مؤسسيها الثلاثة قبل أن نعرف ماضي حركة العودة الى ماقبل رفائيل ومستقبلها . فقد ولد وليام هولمان هنت أكبر الثلاثة سناً في وود ستريت في جيب سايد في ٢ نيسان من عام ١٨٢٧ . وكان والده مديراً لمستودع المدينة . وقد أجبر الوالد ابنه على العمل في مكتب وكيل المقاطعة معارضاً بذلك رغبة الابن – كان آنذاك في الثانية عشرة من عمره – في أن يكون فناناً . وشجع الوكيل مبول هنت الصغير الفنية كما سمح الأب لابنه أن ينفق راتبه الشهري اجرة لدروس كان يتلقاها من مصور اشخاص . وفي عام ١٨٤٣ سمح لهنت ان يكرس نفسه فنان وأن يغامر بنفسه وعلى نفقته . وواصل الصبي ببسالة . وكان يدرس نصف الاسبوع في المتحف البريطاني ويربح قوته بالتصوير في الأيام الثلاثة الباقية . وأخيراً دخل مدارس الأكاديمية كتمرن وهناك كسب صداقة زميله ميلليس الذي كان اصغر منه عمراً . واستمر هنت يدرس ويحصل قوته بنفسه .

وكان جون ايفيريت ميلليس أصغر الثلاثة . وولد في ساوثامبتون عام ١٨٢٩ . وقد انحدر من عائلة نورماندية سكنت جيرسي . وقضى طفولته المبكرة في تلك الجزيرة في لوغويهاوس Le Gualhouse بالقرب من سينت هوليرس St. Holiers . وكان والده مقدراً لموهبته الفنية الضخمة وفرح بابنه وشجع قدرته التي ظهرت في رسومه . وفي ١٨٣٧ جاء أهل هنت ليعيشوا في شارع غوير Gower في لندن وهناك أرسل هنت الصغير الى مدرسة هنري ساس Henry Sass الفنية في بلومس بري عملاً بنصيحة الفنان الايرلندي السير مارتن آرشر

شي « ١٧٦٩ - ١٨٥٠ » والذي كان مديراً للأكاديمية الملكية . وهنا كان تفوقه تفوقاً على ظواهر الطبيعة ذاتها فقد ربح الميدالية الفضية لجمعية الفنون عندما كان في التاسعة من عمره فقط وسمح له بدخول مدارس الأكاديمية الملكية كأصغر تلميذ عمل هنـــاك ، وانظر المشرفون الى « الطفــل » كما كان يسمى على أنه معجزة في النضوج ورأوا في أعماله مايؤهله لينافس لورانس الشاب .

وقد صور لوحته الأولى بالزيت عندما كان في الثانية عشر من عمره وفي ١٨٤٥ أي عندما كان في السادسة عشر أصبح بامكانه ان يربح ١٠٠ جنيه في العام وذلك عن طريق تصوير خلفيات اللوحات لأحد الزبائن وبيع بعض لقطاته Sketches . وفي العام التالي عرض لوحته الكبيرة الناضجة والمسماة « بيزارو يمسك إنكا بيرو Inca of Peru » والموجودة حالياً في متحف فيكتوريا وألبرت في ساوث كينسنغتون . وفي العام التالي أي ١٨٤٧ منح الميدالية الذهبية على لوحته « شباب الرجال من قبيلة بنيامين يمسكون عرائسهم » ولا نلمح في هاتين اللوحتين أي ميل من الفنان للثــورة على اسلوب التصوير المستعمل في تلك الايام وكلتاهما تتبعان طريقــة William Etty وليام إتي « ١٧٨٧ - ١٨٤٩ » دون ان تأتيا بشيء جديد وكان وليام إتي قريباً في طريقته من فن السير جوشوا رينولدز وكانت ألوانه غنية ولكنها ثقيلة ومظلمة وخلاصة القول أنه كان يتبع معايير التقليدية ، وتعرف ميلليس على هولمان هنت في مدارس الاكاديمية ، ولعلهما أحبا بعضهما في التصوير ولم يرضيا بفن هذه المرحلة وربما ناقشا أهدافاً وسبل جديدة في سرهما . ولكنهما لم يبديا في اعمالهما أي بلورة لايمانهما قبل أن يتعرفا على روزيتي .

وقد درس روزيتي الفن في اكاديمية كاري Cary's Academy في بلومزبري ولكنه لم يتمكن من دخول صف التصوير الحي . وعمل في آنتيك سكول Antique School في الأكاديمية الملكية في عامي ١٨٤٥ - ١٨٤٦ ولأن دانتي غابرييل روزيتي ولد في لندن عام ١٨٢٨ فقد كان أصغر من هولمان هنت بسنة واكبر من ميلليس بسنة ايضاً وبالرغم من تقاربه من عمرهما فقد كان أقل منهما بكثير من ناحية السيطرة الفنية ولذلك أجبر على الرســم من التماثيل العتيقة المهملة بينما كانا يرسمان ويصوران من النماذج الحية . وكان روزيتي يحس ان عمله ممل وكان يجن بشغف الحياة ويتطلع لما حوله ليرى أين يمكنه أن يحصل حدساً فنياً ليرتفع به عن مستواه . وقد جذبته كثيراً لوحة رآها في معرض واسمها « فتاتنا عشية السبت » وذهب الى مصورها فورد مادوكس براون Ford Madox Brown واتخذه لعبة المبتدأ له . وقد

ارتاب براون وتردد قبـل قبوله ، ووجد روزيتي أن طريقة استاذه الجديد الحدسية تتضمن الجلوس لتصوير دراسات للطبيعة الصامتـة ولكنها تسمح له بأن يستعمل الفراشي والألوان . وسرعان ماغلبه الضجر من هذا النظام وأعلن انه قد أصبح تعباً من تصوير « اواني المطبخ Pots and Pars » في الوقت الذي يتلىء رأسه بلوحات مثيرة تحتضن نسـاء رومنسيات وفرساناً ولذلك انصرف عن مرسم براون بعد تدريب لم يستمر اكثر من اربعة اشهر .

لم يكن فورد مادوكس براون Ford Madox Brown « ١٨٢١ — ١٨٩٣ » فقط عضواً في أخوة المودة الى ماقبل رفاييل ولكنه كان يحن الى أهدافهم ويؤيدها . وكان فنه قريب الصلة بفنهم ولذلك نجد ان اي تقدير له يتوقنا الحديث عن هـذا الوجه من وجوه التصوير البريطاني ، وكان مادوكس براون أكبر من هولمان هنت بستة سنين . وقد ولد في كاليس Calais عندما كان دافيد والاتباعيون يعرضون على فرنسا قيمـاً فنية جديدة وعندما باشر بالتصوير حوالي ١٨٣٥ هوجمت هذه القيم الاتباعية بعنف من قبل الحركة الرومانسية التي جذبت مادوكس براون . وكان منذ طفولتـه على احتكاك بحركات الفن في القـارة ، في الوقت الذي لم يكن فيـه المصورون الانكليز يقتربون منها . درس في بروغز Bruges وفي غنت Ghent وآنت ورب Antuerp حيث تتلمذ على يدي المصور الرومانسي التاريخي البلجيكي بارسون Barsn ويبرز Wappers وعمل ثلاث سنوات في باريز . وكانت امنيته تنحصر في أنه يريد أن يصبح مصور لوحات تاريخية كبيرة وفي عام ١٨٤٤ جاء الى انكلترا ليدخل المسابقة لتصوير زخارف قاعة وست منستر . ولم ينجح في هذه المسابقة ولذلك ذهب في العام التالي الى روما حيث تعارف مع مصورين ألمانيين غريبين هما كورنيليوس Cornelius واوفربك overbek وكان هذان الفنانان يعيشان حياة أشبه بالرهبنة ، وعلى انهما وضعا نصب اعينهما أن يقتديا بأسلوب المعلمين الايطاليين الذين سبقوا رفاييـل فبامكاننا أن نعتبرهما أول فنانين رادا الطريق الى ما قبـل رفاييل . وقد كان كورنيليوس واوفربك كاثوليكيين ورعين يعملان في الأقبية وكانا اشبه بمصوري الأديرة في القرون الوسطى يحضران نفسيهما للعمل بالجلد والسهاد والصوم ، وليخلصا اعمالهما من لوثة الجسم الانساني فقد كانا يتجنبان استعمال النماذج البشرية . واذا كنا نشك بان يكون مادوكس براون قد تأثر بتصويرهما فانها بدون شك قد فتحا عينيه على روعة اعمال المصـورين الايطاليين المبكرين وجعلاه يدرك أن هناك اكثر من طريقة للنظر الى الطبيعة .

ولا يسعنا الا ان نقول ان المتذوقين من ابناء القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر كانوا ينظرون الى « المعلمين القدامى » على أنهم يبدأون حيث نرى نحن أنهم

ينتهون . فنحن ننظر الى رفائيل وميكل آنجلو وليوناردو دافنشي على انهم نهاية مطاف لمدرسة من المصورين الكبار ولكن أسلافنا كانوا يميلون الى اعتبارهم بداية لمدرسة عظيمة ، ويرون في أتباعهم من أمثال انيبال كراكي Annibale carracei « ١٥٦٠ – ١٦٠٩ » و دومني كينو Domenichino « ١٥٨١ – ١٦٤١ » وكارلو مراتي Carlo Maratti « ١٦٢٥ – ١٧١٣ » معلمين أيضاً مع اننا ننظر الى فنهم على أنه فن انحطاط وتدهور .

وقد أصاب كورنيليوس واوفربك في تفضيل المصورين الذين جاؤوا قبل رفائيل على هؤلاء الذين لحقوه ولكنهم اخطأوا خطأ فادحاً لوقوفهم عند تقليد لوحات المصورين الايطاليين البدائيين بدلا من الخروج الى الطبيعة مباشرة ليفعلوا مثلما فعل اولئك . وهكذا نرى أن المصورين الالمانيين قد ارتكبا ذات الخطيئة التي وقع بها المصورون الايطاليون المتأخرون ، واصبح فنهما مجدباً لذات السبب لأنه كان « مرق المرق » اي أنه كان فناً يرتكز بمجمله على فن سبقه .

وقاد تأثير المصورين المسيحيين الاوائل مادو كس فورد، لا ليقلد أعمالهم دون أن يبصر، وانما لينظر الى الطبيعة بنفس النظرة التي نظر بها اولئك . وعندما نظر أدرك أن الطبيعة كانت اكثر بريقاً مما تبدو عليه في لوحات معاصريه البريطانيين . فمنذ أيام رينولدز أملى السيرجورج بيمونت Sir Gorge Beaumont رأيه القائل ان على اللوحة الجيدة ان تكون بنية ، واصبح هذا الرأي شائعاً ومع أن بعض مصوري المناطق قد تمردوا على هذا الرأي كما رأينا فاننا لا نجد مصور أشخاص انكليزي يمارس بشكل جدي هذا الرأي قبل أن يبدأ فورد مادو كس براون وفنانو العودة الى ماقبل رفائيل بعرض أعمالهم .

كيف ظهرت سنة اللوحات البنية ؟ تفسير ذلك سهل جداً . فقد لاحظ المصورون أن لوحات المعلمين الكبار من امثال رامبرانت وتيتيان وتنتوريتو وآخرين بها مسحة من اللون البني وسبب ذلك عائد ليس الى الاصـــبغة التي استعملهـــا المعلمون وانما ايضاً الى مرور القرون الى مايسمى « درجة اللون الزمنية » واستعمل المصورون طرقاً اصطناعية ليجعلوا لوحاتهم تبدو بنية وكان من عادتهم ان يصوروا على ارض بنية من القار ، كل ذلك لاعطاء لوحاتهم ميزة أخاذة من النور الذهبي البني والظل الرامبرانتي وقد لجأوا الى ذلك ليلاقوا الاطراء في حياتهم ، وناقض فورد مادو كس براون التدريب العام في أيامه وذلك عندما صور لوحاته على ارضية بيضاء وسرعان ما اصبحت الوانه اكثر بريقاً وصدقاً في نقل الطبيعة .

وفي ذات الوقت الذي عاد مادو كس براون فيه الى انكلترا عام ١٨٤٦ وانتهى الى



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هـذه النتـائج وهو مستقل الرأي ، كان هنت وميليس يهمسان لبعضها بذات الآراء وراح يقوم طريقة في التصوير قريبة جداً من تلك التي انتهى اليها الاخوان الذين ستعرج بالحديث عنهم .

## الفصل الثاني

كان روزيتي وهولمان هنت يحبان شعر كيتس دون ان يعرف احدهما الآخر ولذلك سرعان ما التقيا وتعارفا بسبب ذلك . وفي عام ١٨٤٨ اقنع روزيتي مادوكس براون ليتخذه طالباً وأرسل هنت لوحة الى الأكاديمية في تلك السنة وكانت قصيدة كيتس سبباً في الهامها وفي المذكرات التي كتبها هنت في شيخوخته ذكر كيفية التقائه بالفنان الذي كان أصغر منه عمراً حيث التقيا في رواق العرض وما تلى ذلك .

جاء الي روزيتي ( هكذا كتب ) يصرخ بصوت عال أن لوحتي « أمسية القديس آغنس Agnes » كانت افضل لوحة في المجموعة المعروضة... واقترح علي بصراحة أن آتي معه وأرى اعماله . وقبل ذلك لم يكن بيننا اكثر من تحيات مقتضبة في المدارس التي لم يكن ليداوم عليها الا لماماً وبشكل غير منتظم . وكان هناك يجذب اليه شلة من الطلاب الشاغبين الذين كانوا يشبهون الجماعة التي تلتف بميليس . وكان هذا النوع من الطلاب يكافأ على لقطات اصيلة . وكانت مواضيع روزيتي تختلف عن مواضيع ميليس لاختلاف صفيهما . ولم يكن بها حقائق جديدة ومختارة وانما كانت تمثل فرساناً يلاحقون سيدات . وبعد ايام قليلة جاء روزيتي الى مرسمي .

ونستخلص من هذا القول أن روزيتي ترك مادوكس براون واشترك مع هولمان هنت في مرسمه وبارشاد هذا الأخير صور لوحته الاولى المسماة « صبا مريم العـذراء » وكان من الطبيعي أن تقود هذه العلاقة الى علاقة بصديق هنت ميليس. وقد قيل أن فرصة تأسيس الاخوة وقعت عشية التقى الاصدقاء الثلاثة في منزل والدي ميليس ليشاهدوا اعمال الحفر التي تنتسب الى التصوير الجداري المبكر في ايطاليا والذي صنع في كامبو سانتو في بيزا . وكما روى هنت فان روزيتي كان هو الذي أصر على أن يكون الخاتم متيناً وأن يعطى طابع « الأخوة » . وأصل تعبير ماقبل رفائيل ورد على لسان أحد النـاس عندما فضل متعجباً المصورين الذين سبقوا رفائيل على هؤلاء الذين لحقوا به « لماذا انكم عندها Pre - Raphaelites (١) » .

(١) Pre ومعناها قبل - Raqhaelites تعني رافائيليون .

وبذلك ظهر للوجود هذا الاسم الذي افصح بشكل لبق عن اهدافهم . وكانت هذه الأهداف هي أن ترسم الطبيعة بأمانة ودقة وأن يستعيد المصور الاخلاص الكبير الذي اتسم به المصورون الايطاليون الأوائل . ومما لاشك فيه أن روزيتي قد ضمن البند الأخير تعبيراً شعرياً هائلا .

على هذا النحو تأسست الأخوة وامتدت العضوية الى أخي دانتي غبرييل « وليم روزيتي » والى ثلاثة من اصدقائهم النحات وولنر Woolner وجيمس كولنسن Gammes Collinson و ف . ج ستيفنس F. G. Stephens وربما اختير جيمس كولنسن لقوة لوحته « الولد الشحاذ ديبوت » والتي عرضت في اكاديمية ١٨٤٧ ولو لم يتوقف كولنسن عن العرض بعد عام ١٨٧٠ ويتقاعد في دير لكان بدون شك شخصية فذة في الاخوة . وأشهر لوحاته « القديسة اليزابيت من هنغاريا » والتي صورت عام ١٨٥١ والموجودة حالياً في رواق جوهانسبرغ . ولكن سرعان ماهجر وليام روزيتي وستيفنس التصوير وأصبحا كلاهما ناقدين فنيين وحملت مقالاتهما الفصيحة والمتحمسة الجمهور على الاهتداء وتقييم اعمال الاخوة الآخرين .

ليس من الغريب أن يجتمع طلاب الفنون او الفنانون الشباب ويشكلوا نواد وجمعيات وأن يعقدوا اجتماعات منظمة ويناقشوا اهدافهم وطرقهم ومثلهم العليا ، ولكن الاغرب ان ينتهي بهم الحديث الى لاشيء . بالنسبة لميليس وهنت فقد قادهما الحديث الى ثورة في التصوير . وبالنسبة لروزيتي فقد قاده الحديث ايضا الى عمل قريب من الخلود لدى قيامه بأول جهد . وفي ١٨٤٨ عرض ميليس « سيمون والحنيايا » وهي عبارة عن لوحة مبنية على اسلوب ايتي Etty . وفي ١٨٤٩ عرض « لورانزو وايزابيلا » الموجودة حالياً في ليفربول . ولم يستطع أن يتحاشى الفجوة التي حصلت بين اللوحتين لأنه شغل بالاجتماعات السرية للاخوان وبتشجيع الرفقاء . وكانت لوحة « ريانزي Rienzi » خطوة الى الأمام تماثل في حساسيتها لوحته « امسية القديس اغنز » وأفضل من ذلك كله كان ماحصله روزيتي في لوحة « صبا مريم العذراء » . وأخيراً صور لوحة مثل « لورنزو وايزابيلا » وليس بها لمسة من لمسات البساطة التي وجدناها في لوحته الاولى ومليئة بالتقليد وتحتذي سبيل المعلمين الايطاليين الأوائل في كونها تدريباً على المهارة . لقد كان هذا عملاً ذكياً من قبل الاخوة ولكنه لم يكن ذات الشيء الذي صمم ان يصل اليه اخوة ماقبل رفائيل .

وربما يبدو جهد روزيتي في شبابه طفولياً عندما يقارن بما وصل اليه ميليس ولكنه يعتبر مثلاً لانتاج حركة ماقبل رفائيل في اتجاهها الخلص ومحاولاتها التي لم تتكامل بعد في أن تقدم ماتراه عين المصور . ولقد أخبرنا هنت ان كل جزء من التفاصيل في هذه اللوحة قد صور

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مباشرة عن الحياة تحت اشرافه وأنها تحكي الكثير عن تأثيره الطويل الذي جعل أكثر الاعضاء رومانسية يصورون في العام الاول من الاخوة أكثر اللوحات قرباً من الطبيعة .

وكانت مشكلة روزيتي تكمن في وفرة الخيال الشعري وكان يريد دائماً ان يصور الاشياء عن ذهنه « ينتزعها من رأسه مباشرة » في وقت كانت يده وعينه بحاجة لأن يثقف عن طريق الجهد المبذول في تصوير مايكون أمامه . وقد قام هولمان هنت رأخلى بينـــه وبين الموضوع الرومانسي ونفذ ذلك بطريقة فذة طالما اشتاق اليهـــا روزيتي ، ولكنه أصر أن تؤخذ كل لتفاصيل المشهد الخيالي من الاشياء الواقعية فعلاً وبعد أن تمرد روزيتي في مرسم مادوكس براون على تصوير الموضوعات المبتذلة مثل أواني المطبخ جاء الوقت ليقوده هولمان هنت ليصور ذات الموضوعات بفرحة كبيرة لأنها تتضمن زهرة السوسن الرمزية التي كان يعتقد أنها الغاية التي يرسم من أجلها . ولأول مرة في حياته اهتم بالاشياء لأنه وجد أنها تساعده في التعبير عن افكاره .

وكان يستعير الكتب الكبيرة من أبيه وستائر النوافذ من منزل والديه في شـــارع شارلوت Charlotte وجلست أمامه أخته كريستينا كنموذج للعذراء ، كما جلست أمه في موقف القديسة آن واستعار ثياباً ليلية لطفل ليصور شخصاً ثانوياً صغيراً وربما يفسر هـــذا سبب ضعف جسم الشخص الموجود في الزاوية بالنسبة الى رأسه . ولكننا اذا ماتذكرنا ان روزيتي كان يصور كل شيء في اللوحة لأول مرة لشعر أننا مضطرون للوقوف عن الاشارة الى الاخطاء والدهشة الكبيرة امام اعجاز ماوصل اليه روزيتي .

وعرضت لوحتا « رنيزي » و « لورنزو وايزابيلا » في اكاديمية ١٨٤٩ كما عرضت لوحة « صبا مريم العذراء » في رواق هايدبارك الذي يعرف بالمعرض الحر ولكن هذه الاعمال لم تجذب الجمهور الا فيما ندر وخاب أمله وحتى أن احرف التوقيع بـ / . ب لم ينتبه اليهـا أحد وعلى كل لم يثن هذا الفشل من عزم الثوار الشباب الذين نشروا دعاية أقوى عن طريق لوحات جديدة وبواسطة مجلة النطفة The Germ التي استطاعوا بواسطتها أن يبسطوا آراءهم وعقائدهم

وبدت فكرة النشر من مذكرات كان يسجلها هنت وروزيتي في الصيف ويعدانها لمجلة وذلك خلال جولة لهما في فرنسا وبلجيكا . وكانا يسجلان آراء سريعة تأتي في حينها ولذلك وجدا لدى عودتهما ان الآراء شخصية ولا يمكن نشرها في النطفة . وكان حكمهما على اللوحـــات التي رأوها في الخارج حكماً قاسياً فقد اعجبا بفان آيك Van Eyck وبالمصورين الفلامنكيين الاوائل بينما اعتبرا اعمال المصورين من رامبرانت الى روبنز مرفوضة ولخصا هذا الرفض بكلمتين « قامة قـــذرة » .

واستنتج ان على اللوحة ان تحتوي بجانب الرسم الصحيح والتصوير الجيد على فكرة محترمة ولم يصلا الى هذه النتيجة الا بعدما شاهدا اعمالا كثيرة في اوربا . وتلاؤماً منهم مع هـــذه العقيدة التي اضيفت الى قواعد الاخوة فقد راح هنت وميليس وروزيتي يختارون مواضيع جدية للوحات التي صمموا على عرضها في ١٨٥٠ . وصور هنت لوحته المعروفة باسم « ارسالية مسيحية مبكرة تنجو من دروئس » وصور ميليس لوحته المشهورة « المسيح في منزل اقربائه » . كما صور روزيتي لوحة Ecce Ancilla Domini « النبأ » او « تنبئك الملائكة » كما اطلق عليها روزيتي اولا . وابتعد روزيتي عن اتجاه ماقبل رفائيل قليلا بعد ان كان في العام السابق اكثرهم قرباً واصبحت اعماله الجميلة والغريبة رؤى لأشياء لاترى ، او بالأحرى اشياء وهمية او فيضاً رومانسياً يفصح عنه الخاص ، وجلست اخته كريستينا كنموذج للعذراء ايضا كما جلس توماس ولتر كنموذج لرأس الملاك الكبير .

وأمسك ميليس بمبادىء حركة ماقبل رفائيل بعنف وتخلص من تقليد المصورين الايطاليين البدائيين تقليداً ذكياً وفاق هنت نفسه وانتزع كل التفاصيل من الطبيعة في لوحاته المدروسة وحتى يحصل على الحقيقة المطلقة حمل ميليس القماش الى دكان نجار ليصور التفاصيـــل . وصور جسم جوزيف على نسق جسم النجار وهكذا كما قال « الطريقة الوحيدة للوصول الى ضبط العضلات » ولما لم يكن باستطاعته ان يحصل على الاغنام فقد اشترى رؤوساً من قصاب وصور منها القطع . ونلاحظ في لوحته أن الاغنام لاترى في اللوحة الا على شكل رؤوس بينما تختفي أجسامها خلف الأغصان المجدولة .

وعندما فتحت أكاديمية ١٨٥٠ . تلمس الناس بشكل أوسع وجود الاخوة وعرفوا عقائدهم ولم تبق هناك حاجة ليشتكي هؤلاء من عدم التفات الجمهور لهم ، وأثارت اللوحـــات الثلاث عاصفة من النقد انصبت غاضبة على رأس ميليس واخطأ الناس في معنى « ماقبل رفائيل » وظنوا ان هذه الجماعة من المصورين الشباب قد صمموا على ان يكونوا « افضل من رفائيل » وانهم يستحقون الضرب لسخفهم ووقاحتهم ، وضربوا ما استحقوه فقد كتب ناقـــد في جريدة « ان طموحهم عطش مريض يبحث صخاباً عن طريق الغرور فقط . انهم يلعبون لعبتهم بواسطة المفاجأة والانفراد والفظاظة » .

والاسم الذي تعرف به لوحة ميليس الآن « دكان النجار » كان عبارة عن كلمة احتقار اطلقها على هذا العمل اعداء حركة ماقبل رفائيل ، وعندما عرضهـــا الفنان لأول مرة في

الأكاديمية اطلق عليها مجرد كلمة مقتطفة من زكريا « الاصحاح الثالث عشر بالفصل السادس » .

وعندما يسأله احدهم ماهذه الجروح في يديك ؟ فعندها سيجيب : هذه الجروح التي تلقيتها في منزل اصدقائي .

والطابع الانساني الذي يحملنا نحب اللوحة هذه الايام كان في تلك الايام ذاته سبباً للهجوم عليها . فقد اتهم ميلس بافتياده المنقد الى المستويات البشرية المنحطة الى مستوى تمنى الشفقة الانسانية ومساعدتها .. ووصفت اللوحة بأنها « تجديف سوري » ينفض عنه العقلاء « باشمئزاز وقرف » وحتى أن تشارلز ديكنز اشترك في الهجوم العام وقال رأيه في كتاب « كلمات منزلية » House Hold Words :

اننا نرى في الوجه الامامي من دكان النجار صبياً احمر الشعر بشعاً معقوف الرقبة باكياً يبدو انه قد اصابته وخزة من عود صبي آخر كان يلعب معه بمزاح قريب يمسك به امام امرأة تتأمل وهي راكعة ، ان المرأة فظيعة في بشاعتها « هذا اذا افترضنا ان بامكان المرء ان يعيش برقبة مخلوعة لحظة » انها تقف بين الاشخاص المصورين كوحش في اكثر كباريهات فرنسا خسة او امرأة احط اماكن الشرب في انكلترا .

ولما كانت لعنة الروائي المشهور تنصب على الاشخاص اكثر مما تقترب من الصورة فانه لمن الممتع ان نعرف ان « الطفل الباكي » كان نويل هامفريس Noel Humphreys الصغير وهو ابن لمهندس معماري بينما الواعظ المتحمس بشاعته كانت السيدة زوجة هنري هودكنسن Mrs Henry Hodgkinson . ولم يصور شخص في اللوحة من نموذج محترف بالرغم من أن جسد القديس يوسف مأخوذ من جسم النجار بينما رأسه مأخوذ عن والد ميلس .

لقد أثرت حملة القدح على دخل الاخوان فانصرف ولنر عن النحت لفترة من الوقت بعد أن فشل في مسابقة لعمل تمثال لوردس ورث Words Worth في ذكراه وأبحر الى استراليا بحثاً عن الذهب . واخيراً عاد هناك الى النحت ولاقى نجاحاً متواضعاً في سنواته الاخيرة في كل من استراليا وانكلترا بتماثيله النصفية . وتصارع هولمان هنت مع الفقر يائساً عندما لم يستطع والداه ان يعيناه كما فعل ذوو ميلس وروزيتي واضطر ان يتسلم عملا مثل غسل واصلاح اللوحات الجدارية التي رسمها ريجود Rigaud « ١٦٥٩ – ١٧٤٣ » في منزل الاقانيم الثلاث Irinilgtouse . واشتغل ستيفنس مع هنت في هذا العمل ووجد وليام روزيتي مكاناً في مكتب الدخل البري . اما ميلس الذي صب عليه الهجوم كانت حالة افضل العصبة فقد وجد عميلاً اسمه فارر Farrer وكان لدى هذا الشجاعة ليدفع له مبلغ ١٥٠ جنيه



ARCHIVE

من اجل لوحة وافصح عن إيمانه بالفنان عندما ضرب صفحاً عن كل النقد المادي . ووجد مشتر ايضاً للوحة من اعمال هنت في وقت متأخر من ذات العام وكان هنت قد هجر الاصلاح وباشر بتصوير لوحة فاخرة « سيدان من فيرونا » والموجودة الآن في رواق الفن في برمنغهام وفي ذات الوقت بدأ ميليس يصور لوحته المسماة « ابنة رجل الغابة » وقد توصل كلا الفنانين في هذه اللوحات وبالتصوير على أرضية رطبة بيضاء الى مزيد من بريق اللون يفوق ما انتجاه من قبل . وتفاخرا بعثورهما على اسرار المعلمين الايطاليين الاوائل . وقد أفشى هنت بالسر الى مادوكس براون الذي اصبحت لوحاته اكثر وضوحاً ولماناً في الوانها بعد عام ١٨٥١.

وبدأ روزيتي يصور بالالوان الزيتية موضوعاً اخذه من قصائد براوننغ Browning ولكنه لم ينه اللوحة ولذلك كان على ميليس وهنت ان يتحملا الهجوم مجدداً والذي قام عندما عرضت لوحاتهما في اكاديمية ١٨٥١ . وعرض ملليس بالاضافه الى لوحة « ابنة رجل الغابة » لوحة « ماريانا ابنة المنزل الريفي المحاط بالخنادق » ولوحة « عودة الحمامة الى السفينة » ثم اخبر هو وهنت بأن لوحتيها « منافية للذوق وعبارة عن انتاج مستهجن » وانها لاتعرض شيئاً الا « الافكار الصبيانية » « والادعاء » و « الفتنة المحرمة » ولكنهم لم يخلوا في هذا العام من المدافعين عنهم فقد بدأ وليام روزيتي منهجه كناقد في وأوضح اهداف ومثل فناني ماقبل رفائيل في اعمدة المتفرج The Spectator . وظهرت رسالتان مهمتان تتضمنان تقييماً رحب الصدر طيب القلب ظهرتا ونشرتا في « الازمان The times » وتحملان توقيع « خريج اكسفورد » وعرف كل انسان ان الكاتب هو جون راسكين العظيم . وظهر في نفس العام مجلد المصورين المحدثين والذي به كتب راسكين عن ميلليس وهولمان هنت مايلي :

« ان اعمالها التي تتمتع برسم تام وبهاء اللون هي اجود الاعمال المعروضة في الاكاديمية الملكية ولدي أمل كبير انها سيكونان ركيزة لمدرسة في الفن تواقة لعمل اكثر مما رأينا على مدى القرون » .

وانه لمن الصعب ان نصنف ونبالغ بالتأثير الكبير الذي كان اساسه تصريحات راسكين هذا الذي كان يعتبر دكتاتوراً يشرف على الذوق في انكلترا . ومن هنا بدأ يختلف الشوط ويصبح لمصلحة الاخوان ولكن الوقت كان قد تأخر بالنسبة لهنت ، فقد عادت اليه لوحته من الاكاديمية وكان لايملك شروى نقير ولم يكن لديه مايسد عوزه ويعينه على انتظار الايام الجيدة وكان يقلع عن التصوير ويذهب باحثاً عن الثروة في مزرعة للاغنام في استراليا عندما جاء ميليس ووالده لانقاذه . وكان ميليس يملك بعض المال وهبه عندما وجد أن والديه لايحتاجان له .

وبذلك اعطى الفرصة لهذا الرفيق ليعاود الكرة . ولقد ربطت هذه المساعدة السخية الاخوين الاثنين الى بعضها برباط متين وقضيا أواخر ايام الصيف واوائل الخريف في الريف بالقرب من سوربتون Surbiton يبحثان عن طرف جانبي من نهر التيمس يناسب لخلفية لوحة « اوفيليا » التي كان ملليس قد صمم على تصويرها . وكانا يدرسان المروج ليجدا مشهداً ملائماً للوحة هنت الناقدة المسماة « الراعي الأحور » ، ولم يكن على هنت ان ينتظر طيلة هذا الوقت فقد انتهت وعرضت اكمل لوحة له قبل ان يعلم أن الشوط قد اختلف فبينما كان هو وميلليس يصوران في الحقول جاءت رسالة تخبرهما ان اكادمية لفربول liverpeol قد منحت جائزة بخمسين جنيهاً لمصور لوحة « سيدان من فيرونا » .

وتضمنت لوحة « الراعي المستأجر » جوهر حركة ماقبل رفائيل واصابت أعلى علامة بها . فالراعي الجسور الذي راح يغازل جيلة لعوباً بينا هاجم ذئب اغنامه ، كل هـــذه الحكاية تتضمن درساً في الاخلاق لانتبه له واكشف ألوانه البراقة والشبيهة بالحلي وتفصح عن أمانة دقيقة في تصوير الطبيعة . عندما عرضت هذه اللوحة في اكادمية ١٨٥٢ كانت المعركة قدحسمت بالرغم من وجود معارضة لاتنكر فان اللوحة المنتسبة الى حركة ماقبل رفائيل قد اصبحت الآن نوعاً من انواع التصوير المقبول وبدأ بعض العارضين الآخرين في الا كادمية يغيرون تدريباتهم ويصورون باسلوب مشابه .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد ربح هؤلاء ولكن العقد الاخوة بدأ ينفرط . كان وولنر في استراليا وكان كولنس يفكر في ان يتقاعد في دير . واصبح وبليام روزيتي وستيفنس بشكل قاطع كاتبين واسوأ من ذلك كله أن دانتي غبرييل روزيتي اقترب من نهايته ولم ينتج بين عامي ١٨٥٠ — ١٨٥٣ لوحة كبيرة وانحدر في هوة أدب داتي واشتغل فكره بالشعر ولم يعد ينتج الا لماماً بعض اللوحات المائية الصغيرة وشجعه راسكين الذي اصبح مموله الرئيسي وراح يشجعه في هذا المجال بحبيه وبمدحه . وفي ١٨٥٣ اي في العام الذي صور له « نظام التسريح » ، انتخب ميلليس للاكادمية الملكية للفنون وفي العام التالي صور هولمان هنت وباع لوحة « نور العالم » بمبلغ اربعمائة جنيه وابحر الى فلسطين املا في ان يصور حوادث في حياة المسيح ويضمنها صدقاً كبيراً وذلك باستعمال طبيعة البلد الذي عاش به السيد المسيح وظل هولمان هنت حتى النهاية اكثر اقطاب حركة ماقبل رفائيل تقبلاً من الجمهور .

وبعد مغادرة هولمان هنت بفترة قصيرة خف تأثيره في انكلترا وصورت لوحتا «اوراق الخريف » والفتاة العمياء في عام ١٨٥٥ وكانتا لوحتين من لوحـــات حركة ماقبل رفائيل

الصحيحة ، وكانتا آخر ماباركه راسكين من انتاج ميليس . ومع السنين القادمات اصبح ميليس لوحده واضطرب وبالرغم من ان اعماله لاقت نجاحاً سريعاً لدى الجمهور واصبح منهجه بعد الآن يلاقي النجاح المنقطع النظير فان لوحاته افتقرت لتلفف جذبة هولمان هنت والشعر روزيتي . وانخفض المستوى العاطفي لاقبال الفنان وكادت اعماله تصبح مبتذلة واصبحت موضوعاته مطروقة ودب الخمول في اسلوبه في التصوير ولعل أفضل مثل على اسلوبه المتأخر لوحته « فقاعات » هذه الصورة الملفتة التي شاعت كاعلان لشركة لصانعي الصابون ، ولكن انتاجه الذي يعلو الى مستوى اعماله الاولى كان بعض صور الاشخاص واشهرها صورة جون شارلز مونتاغ John Charles Montague وكان جون رقيباً مسرحاً من فرقة الرماة السادسة عشر وصوره ميليس في زي فرسان الحرس ، وصورت هذه اللوحة في ١٨٧٦ أي بعد مرور ثلاثة عشر عاماً على انتخابه للاكاديمية الملكية . وفي ١٨٨٥ منح لقب بارون . وفي ١٨٩٦ أي بعد وفاة لورد ليتون نصب مديراً للاكاديمية الملكية . كانت في تدهور وسرعان مامات بعد زمن قصير من انتخابه في ١٣ آب من ذات العام ودفن في كاتدرائية القديس بول بجانب سلفه العظيم السير جوشوا رينولدز Goshua, Reynolds .

## الفصل الثالث

في هذه الفترة جاستقدما روزيتي في درب جديد بحثاً عن الطبيعة التي كانت تبـــدو في اعمال هولمان هنت ولكنه تحاشى تفاهة القصص التي حاول تركيبها ميليس واضحت لوحاته حيناً بعد حين كالأحلام في هربها من الحياة الى عالم خيالي بعيد . وتجنب روزيتي ابتذال ميليس وانصرف عن العرض بعد ان اعتمد على تمويل راسكين والمعجبين الآخرين ولم يعد يعرض اعماله الا في مرسمه .

وفي عام ١٨٥٧ ذهب روزيتي الى اكسفورد وفي رأسه فكرة وهي ان ينفذ لوحات جدارية في قاعة المناقشات في جمعية الاتحاد وهناك جمع حوله شلة من الطلاب النجباء وكان المهم ويليام موريس من كلية اكستر Exeter وادوارد برن جونز « ١٨٣٣ — ١٨٩٨ » ولكن الطقس في انكلترا ولسوء الحظ خطر على صور الفريسكو الحقيقية وسرعان ماطمست ولم يعد بالامكان رؤيتها وظلت بقايا هذه اللوحات امام التاريخ ترمز الى وجه جديد من نشاطـــات حركة مافبل رفائيل حيث تلاشى العنصر الطبيعي في هذه المرحلة وحل مكانه حنين رومانسي زخرفي

الرجوع الى العهد الوسيط (١) . واصبح روزيتي قائداً لهـــذه المدرسة الجديدة بدون منازع وملهماً اي انه اخذ مكان هولمان هنت بالنسبة للاخاء الأصلية ، واستمر الناس ولزمن طويل يدعون اللوحات التي ينتجها روزيتي واتباعه بأعمال ماقبل رفائيل مع انه اصبح من الواضح ان هذا الانتاج ليس له علاقة كبيرة بحركة ماقبل رفائيل الاصلية وانما تشكل جانباً من جوانب مادعي بعد « الحركة الجمالية » (٢) .

وفي ١٨٦٢ توفيت ايليانور سيدال Eleanor Siddal التي ظلت عشر سنوات تقوم بدور الموديل امام روزيتي وتلهمه دائماً ، فهصر الحزن قلب زوجها المفتقد ولم يعد اهلا للعمل. وبعد سنتين عاد الى التصوير بالألوان الزيتية ووصل الى ذروة هذا الفن في لوحته « السيدة ليليث » التي صورها عام ١٨٦٤ وفي لوحة « المحب » التي صورها ايضاً بين عامي ١٨٦٥-٦٦ وقد اشتق موضوعي اللوحتين من نشيد الانشاد لسليمان وفاق فيها بوتشيللي حيث صور جمالاً نسائياً شهوانياً وخطا خطوات بعيدة عن لوحاته المحافظة التي كان يأخذها الفنـــان الشاب من الانجيل . والبس موضوعه رداءمن العهد الوسيط واقحم نفسه في رومانسية قصص الجنيات وحلق لونه البراق الذي لم يصل اليه هذا المصور في اعماله السابقة .

ويمكن ان نقسم اعمال روزيتي المصورة الى ثلاث مراحل تهيمن على كل منها امرأة تعيش بجانب الفنان ففي المرحلة الاولى كانت اخته كريستينا وفي المرحلة الثانية زوجته ايليانور سيدال وكانت ملهمة المرحلة الثالثة السيدة زوجة وليام موريس ، واجمل لوحاته العديدة التي استلهمها منها لوحة « حلم النهار » والموجودة حالياً في مجموعة Ionides آيونايدس في ساوث كينغستون وبالرغم من انه قد صورها كنموذج لشخصيات متعددة فانه لم يستعملها بدلامن بياتريس حبيبة دانتي . وكانت هذه الشخصية وقفاً على زوجته . وفي ذكرى وفاة هذه الأخيرة بدأ يصور في ١٨٦٣ لوحته « بتيا بتريكس » والموجودة حالياً في رواق تيت ولم تنته هذه اللوحة الا في وقت متأخر . وهذه اللوحة بالنسبة الى روزيتي كما قال « لايقصد منها ان تمثل الموت بتاتا ، وانما ان نرجع اليه على انه شيء شبيه بغيبوبة . وفي اللوحة تجلس بياتريس في شرفة وتطل على المدينة ( فلورنسا ) وفجأة تعرج من الارض الى السماء» .

وتوفي روزيتي في برشنغتون في ١٨٨٢ ولكن تلامذته المشاهير حلوا محله باخلاص ، ونذكر منهم ادوارد برن جونز الذي كان قد قرر دخول الكنيسة وأحس ان عليه ان يصبح

---

(١) - Medisvalism

(٢) - Estheic Movement

مصوراً بعد ان التقى بروزيتي في اكسفورد . والاختلاف المهم بين الاستاذ والطالب يكمن في اختلاف مفهوم المرأة لدى كل منها ، فبينا يصور روزيتي المرأة العاطفية الطافحة بالدم نرى في نساء برن جونز جمالا روحياً نقياً يبدو لكثير من الناس ان صاحباته مصابات بفقر الدم . ومن جانب آخر تبتعد صور برن جونز كثيراً عن الطبيعة ومثلها في ذلك مثل اعمال روزيتي المتأخرة ، ونرى في اعماله لوحات احلام ، بها خيال من القرون الوسطى .

وعندما بحث روزيتي مثل اسلافه الايطاليين عن مثله في فلورنسا التي عاشت ايام دانتي بحث برن جونز الويلزي عن مثل تلائمه في البلاط الملحمي للملك آرثر Arthur واستلهم كلاهما من الشعور بالفروسية والقصص المغرقة بالخيال ومن المسافات البعيدة التي وصل اليها هولمان هنت في رحلاته واسلوبه الطبيعي ونجد ماينبت ذلك في اعتراف برن جونز الذي كان يتوق لأن يصور « الضوء الذي لايرى فوق البحر او في البر » .

وفي ١٨٨٤ عرض برن جونز لوحة من اشهر اعماله المعروفة وسماها « الملك كوفيتوا والصبية الشحاذة » في رواق كروس فينور Gros Venor . وبعد عامين اي عندما اصبح عمره ثلاثة وخمسين سنة انتخبته الاكاديمية الملكية للفنون بعد تلكؤ ، ولكنه لم ينسجم مع الاكاديمية ولم يعرض الا في فترات قليلة . وفي عام ١٨٩٣ اي قبل وفاته بخمس سنين اعاد التوقيع بمشاركته في الاكاديمية .

ARCHIVE

وبالاضافة الى لوحاته الزيتية واعماله المائية صمم عدداً من السجاد ونوافذ الزجاج المعرق لصديق حياته وليام موريس الذي قاده نشاطه الفني الحر الى اشغال قريبة من الابداع انصرف بها عن ممارسة التصوير مثل احياء الصناعات . ووجدت افكار روزيتي عن القرون الوسطى رغبة ملحة لدى موريس الذي ظل يحملها بحيوية لوقت طويل بالرغم من انه لم يتدرب على تمثيل افكاره والذي افتتح جمعية الفنون والصناعات ، هذه الجمعية التي كانت من اكثر الحركات الفنية ثماراً في العهد الفيكتوري ونحن ندين اليه لاانواه بانعاش السجاد والزجاج المعرق وادخال تحسينات كبيرة على الطباعة الجيدة وفي الاساس والفخار واوراق الجدران وفي الزخرفة الداخلية بصورة عامة . وعمر هولمان هنت اكبر فناني ماقبل رفائيل عمراً وبعد ان صور سلسلة من اللوحات المقدسة التي ليس لها مثيل في الفن الانكليزي سواء في حماسها الديني اوفي دقتها الجغرافية وتوفي بعد ذلك في ايلول عام ١٩١٠ وعمره يناهز الثالثة والثمانين.


من الأدب المسرحي الصيني الحديث
ترجمها عن الفرنسية
خليل الهنداوي
مسرحية للأديب الصيني
لوصن

**الزمان : في أي مساء**

**المكان : في أي مكان**

**الأشخاص :**

الكهل : بلحية بيضاء ، وجبة يغمرها الشيب ، ورداء أسود .

الفتاة : في العشر من عمرها ـ شعرها ـ وعيناها سوداوان ، برداء موشى بالسواد ، على عقدة بيضاء .

العابر : مابين الثلاثين والأربعين ، تبدو عليه سيماء التعب ، ذو نظرة صارمة ، وشعر أشعث ، وثوب له صدرية قصيرة سوداء . حقيبة معلقة بذراعه ، وحذاء عتيق ، يعتمد على عصا طويلة تبلغ قامته .

« في الشرق بعض أشجار متفرعة ، وآثار خربة . وفي الغرب حقول مهملة ، مقفرة ، يصعد فيها طريق نصف مشقوق . باب الكوخ صغير يطل على هـذا الطريق . وبجانب الباب جذع شجرة ميتة »

ARCHIVE
http://Archive.beta.Sakhrit.com

« الفتاة تتهيأ لتساعد الكهل على النهوض من مقعده »

**الكهل** ـ ياولدي ! لماذا تقفين ؟

**الفتاة** ـ ( وهي تنظر الى جهة الشرق )
هنالك انسان يقبل علينا . انظر !

**الكهل** ـ لاتشغلي نفسك به ! ساعديني على الدخول ، ان الشمس تغرب .

**الفتاة** ـ لا ... دعني أنظر !

**الكهل** ـ أي شيء أنت ؟ انك تنظرين كل يوم الى السماء ، الى الارض ، الى الريح . ألا يكفيك هذا كله ؟ لاشيء جميل للنظر ! والآن تريدين أن تنظري الى انسان لاتعرفينه ! ان الكائنات التي تظهر في ساعة الغروب لايمكن أن ننتظر منها أي شيء ... أي خير !

ان دخولنا الى الكوخ أفضل !

**الفتاة** – ولكنه قريب منا جدا ... آه ، انه سائل ..

**الكهل** – سائل ؟ ان ذلك ليدهشني !

( يظهر العابر ، بعد أن يتردد قليلا ، ثم يتقدم نحو الكهل )

**العابر** – عم مساء أيها العجوز !

**الكهل** – حسنا . . وأنت ؟

**العابر** – هل أستطيع أن أطلب كأس ماء ؟ ان السير الطويل أظمأني . وماهناك من غدير ، ولا ماء .

**الكهل** – حقا . . اجلس اذاً !

( للفتاة )

إيتيه بكوب ماء ! ولكن هيا !

( تدخل الفتاة الى الكوخ )

وأنت ، اجلس ! أرجوك أيها الغريب ! مااسمك ؟

**العابر** – ماذا أدعى ؟ أجهل ذلك . ان ماأتذكره جيدا هو انني كنت دائماً وحيدا . لذلك لاأعرف ان لي اسما . على طريقي يدعوني الناس بأي اسم كما يختارون . ولكني عاجزعن أن أتذكر هذه الأسماء، ولكنهم لم يطلقوا علي اسماً واحدا مرتين.

**الكهل** – حسنا ، ومن اين مقدمك ؟

**العابر** – ( يتردد )

لاأدري ... من بعيد كما أتذكر ... دائماً أمشي .

**الكهل** – حسنا ، ولكن هل أستطيع أن أسألك : الى أين تريد ؟

**العابر** – تستطيع بكل تأكيد ، ان الغاية هي اني لاادري ، وكما أتذكر ،دائما مشيت، أمامي قصدت . وكل مااتذكره اني قطعت طرقا كثيرة ، والآن حيث تراني ! أريد ان اكمل طريقي من هنا – ( مشيرا الى الغرب ) من أمامي . .

( تعود الفتاة بكوب خشبي فيه ماء وتقدمه للعابر )

**العابر** – ( يتناول الكوب )

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شكرا لك أيتها الفتاة الصغيرة !

( يجرع الماء على جرعتين ويرد الكوب )

شكرا لك . . حقا ، ان هذا الجيل . . لاأدري كيف اشكرك على احسانك !

**الكهل** – لاشيء يدعو الى هذا . . انه عمل ابسط مما تظن .

**العابر** – قد لايقدم هذا العمل لي خيرا ، ولكني الآن أشعر بأنني خير مما كنت . أريد ان أكمل طريقي . .

لابد . أيها العجوز – انك هنـــا منذ زمن بعيد فهل تدري أي مكان انا مقدم عليه ؟

**الكهل** – أمامك . . . أمامك لا ترى الا القبور .

**العابر** – القبور ؟

**الفتاة** – لا ، لا . . . هنالك ورود كثيرة ، وزنابق برية ، طالما تسليت بمرآها .

**العابر** – ( مطلقاً نظره الى الغرب ، مبتسماً )

حق ذاك ، هنالك ورود وزنابق برية ، وأنا ، ايضاً ، قضيت أوقاتا طويلة في التأمل فيها ـــ . ولكن قد يكون هنالك قبور . . .

( ملتفتاً الى الكهل )

وماذا بعد المقبرة أيها الرجل العجوز ؟

**الكهل** – بعد المقبرة ، لاأدري شيئاً . . . انني لم اذهب الى أبعد من حدودها .

**العابر** – ألا تدري اذاً ؟

**الفتاة** – لاأدري شيئا .

**الكهل** – كل ما اعرفه ، هـــذا هو الشمال ، والجنوب ، والشرق الذي جئت منه . . .

هذه هي المواضع التي تؤنسني . . . وربما آنست مثلك من الفتيان .

لاتضق ذرعاً بما اقول !

يخيل الي أنك مرهق تعباً ، بحيث أرى من الخـــير لك أن تعود أدراجك . فاذا اكملت طريقك فانك لن تبلغ النهاية .

**العابر** – لاأبلغ النهاية ؟



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

( يتأمل ، ثم يرفع رأسه )

لا ... ليس هذا بممكن ! يجب أن اكمل طريقي ! اذا عدت ادراجي فانني لن اجد مكاناً ، خالياً من الفوضى ، مكاناً ليس له مالكون ... مكاناً لايطردونك منه ، ولا يودعونك السجن ، لامكان ليس فيه ابتسامات كاذبة على الوجـوه ، ولا مكان لاتبلل فيه الدموع الجفون ... انني ابغض كل ذلك ، ولهذا لن اعود على آثاري .

**الكهل** – هــذا كله ليس بيسير . . . قد تنبع الدموع من اعماق القلب ، حزناً على حظك الحزين .

**العابر** – لا . . . لااريد ان ارى الدموع تنبع من اعماق القلب ، ولا اريد ان يحزن احد لحظي .

**الكهل** – في هذه الحالة ، لن يبقى لك الا ان تسير !

**العابر** – أجل ، لن يبقى لي الا أن اسير ... على أني ، احياناً ، اسمع صوتا يتردد امامي، يدعوني بلجاجة دون أن يترك لي أية راحة . ان مايؤلمني قـدماي الداميتان من السير الطويل ، انهما جرحتان ، تنزفان دما .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

( يرفع رجله الكهل )

لم يعد لي مايكفي من الدم ، انني في حاجة الى أن اشرب دما . ولكن اين أجد الدم ؟ وبعد ذلك ، لاأريد أن أشرب أي دم . . . وانما اريـد أن اشرب ماء يعوضني عما فقدته من دم . لابد أن الماء في كل طريق ، ولم افتقـد منه شيئا . ولكني اضوى بسرعة ، وما ذلك الا لأن الماء صار يغلب على دمي . واليوم ، لم اجد منفذاً الماء . قد يكون ذلك لأنني لم اذهب في سيري بعيداً .

**الكهل** – قد لايكون الأمر كذلك ... فالشمس قـد توارت في المغيب ، وأرى ان من الخير لك أن تستريح قليلا مثلي .

**العابر** – ولكن الصوت ... الآتي من بعيد يأمرني ان اكمل طريقي !

**الكهل** – اعلم ذلك .

**العابر** – ولكن ، هل تدري انت ماهو هذا الصوت ؟

**الكهل** – أجل ، انني اشعر به يناديني . . . لقد ناداني أنا من قبل .

**العابر** – أهو ذات الصوت الذي يدعوني الآن ؟

**الكهل** – هذا، لااستطيع البت به ، انه دعاني أكثر من مرة ، ولكني أصممت عن ندائه… ثم وقف عن النداء ، ولم احفظ له صورة واضحة .

**العابر** – أصممت عنه ؟

( بدهشة )

لا .. من الخـــير لي أن امضي ... لااستطيع أن استريح ! ولكن كم تؤلمني جراح قدمي المخضبتين بالدم !

( يتهيأ للرحيل )

**الفتاة** – اليك هذه العصبة من القماش ، شدها على قدميك !

**العابر** – شكراً لك يافتاتي !

( يتناول القماش )

حقاً ان هذا لكثير منك ! بهذا استطيع أن اواصل سيري الى ابعد ...

( يجلس وهو يشد القماش )

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولكن . . لا ! انه غير ملائم . . ان من الخير ان اعيده اليك . . لايكفي ليشد على قدمي . . ! ولكنه كان علامة احسان منك ، ولست بمالك مايعبر عن امتناني !

**الكهل** – ولماذا تستشهد بهذا الامتنان ، وماعساه يفيدك ؟

**العابر** – قد لايفيدني شيئا ، ولكن عندي ان هذه القطعة المعطاة حسنة تعـدل كل مافي العالم من جمال . .

انظر ! هل تستطيـع أن تجد عليّ شيئا شبيها بهذا ؟

**الكهل** – لايستحق هذا شيئا من الاهتمام .

**العابر** – أعرف ذلك ، ولكني لاأستطيع التخلص منه . ان بي خوفاً من ان أسير بهذه الهيئة :

اذا تقبلت صدقة فانا كعقاب لقي جثة ، يحوم حولهـا ، راغبا في أن يرى

هلاكها ، ويكون الشاهد الباقي لها . أو أن ألمس العالم كله عدا هذه الجثة ، وأتوسل في ان يغنى العالم كله ، حتى نفسي أنا ، لانني استحق المنة .. ولكني – حتى الآن – لاأملك مثل هذه القوة . وهب أنني ملكتها فانني لاأريد أن أراها تنتهي بهذه الصورة ، لأنه ما من أحد ، عادة ، يريد هذه النهاية ، لذلك فكرت في أن الأحسن لي أن أسلك سبيلي الذي اخترته ، وأما أنت – أيتها الفتاة – فان قطعتك رائعة حقاً لكنها صغيرة لذلك اود ان اردها اليك .

**الفتاة** – ( مرعوبة )

ولكني لاأريدها ، خذها ! احملها !

**العابر** – ( ضاحكا ) آه ! ألأني امسكتها بيدي

**الفتاة** – ( مشيرة الى حقيبته )

ضعها هنا او احفظها لتتسلى بها !

**العابر** – ( يخطر كئيبا )

ولكن ، هل استطيع أن أمشي وهي على ظهري .

**الكهل** – ذلك لأنك لاتريد أن تقف ، تعوزك القوة لحملها . استرح ! ثم يغدو كل شيء حسناً !

**العابر** – انك على حق ... الراحة ...

( يفكر قليلا ، وفجأة يهتز ويصغي )

لا . . . لاأستطيع يجب أن انطلق في طريقي !

**الكهل** – ألا تريد أن تستريح أبدا ؟

**العابر** – لابد من ذلك !

**الكهل** – اذاً ، فاسترح هنا لحظة !

**العابر** – ولكني لااستطيع !

**الكهل** – انك تؤمن دائماً بأن الخير لك أن تواصل السير !

**العابر** – أجل ، ذلك هو الخير لي ...

**الكهل** – حسناً ! في مثل هذه الحالة ؛ يجب أن تسير ...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

**العابر** – اسمحوا لي اذن ... انني شاكر جــداً ... وأنت ، أيتها الفتاة ! أرد لك القطعة ... فتناوليها !

**الفتاة** – ( مرعوبة ، تسحب يدها ، ثم تحاول الاختباء في الكوخ )

**الكهل** – احفظها ... واذا كانت ثقيلة تستطيع أن تطرحها في المقبرة حين تريد .

**الفتاة** – ولكن ... لا ... يجب ألا يطرحها !

**العابر** – حقاً ، يجب ألا أطرحها !

**الكهل** – ما عليك ، اذن الا أن تلفها بالورود ، والزنابق البرية .

**الفتاة** – ( ضاحكة )

حسنا !

**العابر** – آه !

( صمت لحظات )

**الكهل** – اذاً ، عم مساء ! أتمنى لك رحلة موفقة .

( ينهض ويتجه نحو الفتاة )

ساعديني على الدخول ! أنظري ! الشمس قد توارت في المغيب .

( يدخل الكوخ )

**العابر** – شكرا لكما ! وليرافقكما السلام !

( يتردد ، يفكر ، ثم يهتز )

لا ...... لاأستطيع . يجب أن أكمل طريقي ... من الخير لي أن أمشي !

( يرفع رأسه ويمشي نحو الغرب )

( الفتاة تساعد الكهل على الدخول ، ثم تغلق الباب ، والعــابر يخط طريقه الى الأمام في برية منعزلة ، بينما الليل يهبط خلفه )

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

# كتاب المعرفة




ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عرض وتلخيص: أديب اللجمي

- كتاب المعرفة — تكوين العقل الحديث
- مقابلات المعرفة — مع ايفو اندريتش
- رسائل المعرفة — جامعة المتوسط الصيفية
- المكتبة العربية — غابة الحجارة
  آراء في العربية
- فنون —
- اخبار الأدب والفن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حرص جون هرمان راندال في كتابه « تكوين العقل الحديث » على ابراز وحدة المعرفة البشرية ، ووحدة الثقافة الانسانية . وكأن المؤلف قد أراد تبيان اشتقاق العقل العلمي ( وهو العقل الحديث في مفهومه ) من العقل اللاهوتي الذي كان مسيطراً على تفكير الناس في العصور الوسطى وقبلها . على انه يعترف على تاريخ الانسانية ، تاريخ جهود وأبنية ، تتناولها يد الانسان بالتعديل المستمر ، فتتسع لتآلف التيارات الجديدة للحياة ، وان قصة هذا التاريخ قصة جدران قديمة شاخت ، فعملت فيها معاول التهديم ثم اعيد بناؤها بأشكال جديدة .

والمؤلف يزهو بأن « استكشاف عقل الجيل الجديد ، واتضاح الخطوط العديدة التي تدخل في تركيبه المعقد ، وارجاعها الى فجر ظهورها حين اخذ التاريخ ينسجها بعضها مع بعض ، عمل فيه نشوة تفوق نشوة القيام بنزهة في روما .. فالافكار هي اكثر الحضارة الانسانية بقاء وما نجده منها في العقل الحديث ، له جذوره في الماضي السحيق » .

تلك هي الفكرة الرئيسية لمجموع كتاب راندال الذي يقع في جزئين في ترجمته العربية . وسنعرض فيما يلي الأفكار الرئيسية التي تضمنها الجزء الاول من الكتاب .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ترتكز حضارة القرون الوسطى الى مبدأ أساسي . **هو الانسجام التام بين الفرد والمجتمع . فالمجتمع يقوم على تدرج في المراتب** ، لكل انسان فيه وظيفة أعدها الله له ، وعليه واجبات معروفة ، وله في الوقت نفسه حقوقه وامتيازاته . فكل فرد هو عضو في اقطاعية أو جماعة ، وكل اقطاعية بدورها عضو اساسي في المجموع .

يقول القديس توما الأكويني ، معبراً عن ذلك : « الانسان اجتماعي بالطبع ، لأنه يحتاج الى اشياء كثيرة ضرورية لحياته ، يعجز وحده عن صنعها أو الحصول عليها ، فيصبح بالطبيعة جزءاً من مجموع متماسك ، وذلك لتحصيل وسائل المعيشة . فهو يحتاج هذه المساعدة اذن لسببين : أولاً لكي يتمكن من الحصول على الضرورات الاولية للحياة . ويتم هذا في الوسط العائلي ، حيث يتلقى الابن من آبائه الحياة والغذاء والتربية وحيث تسهل المساعدات العائلية المتبادلة الحصول على تلك الضروريات . ثانياً ، لأن الحياة ضمن المجتمع تمكن الفرد ، لا أن يعيش فحسب ، ولكن أن يعيش حياة طيبة ، بفضل الفرص التي تأتي عن طريق التفاعل الاجتماعي ، وهكذا فان المجتمع المدني يساعد الفرد في الحصول على الضرورات المادية ، اذ يتجمع في المدينة الواحدة عدد من الصناعات لا يمكن أن تجتمع في العائلة الواحدة .

والمجتمع الدني يساعد الفرد أيضاً في حياته الاخلاقية (١) . »

المجتمع في القرون الوسطى ، طبقات ومراتب تقع الكنيسة ـ وهي السلطة الاولى ـ في رأسها، كما يقع الفلاحون في أدناها . فالزراعة هي المؤسسة الاجتماعية الأساسية ، والاقطاع هو النظام السائد وعقلية التطور تسربت الى هذا المجتمع عن طريق طبقة التجار ، ابناء المدن الايطالية ، وبخاصة مدن الساحل . كان الجهل يخيم على السواد الاعظم من الناس . حتى الرهبان والقساوسة ، كان أكثرهم أميين جاهلين ، وعدد قليل منهم كان يتمتع بالمعرفة، وقراءة كتب اللاهوت ـ باللغة اللاتينيـــة ـ . المجتمع بالنتيجة مجتمعان : الاول يمثل ما يسمى بمدينة الله Civitas dei والثاني بالمدينة الأرضية Civitas Terrena الحدود الفاصلة بينهما يصعب تعيينها ، ولكن قوى المدينتين كانت تخلق صراعاً أبدياً في نفس كل انسان . فالكنيسة هي مدينة الله وسلاحها سيف الروح ، والمجتمـــع العلماني هو المدينة الأرضية وسلاحه السيف الدنيوي .

إن الكون عند ابناء القرون الوسطى ممتلىء بأسرار ورموز ، على العقل الانساني ان يسعى لاكتشافها وحلها .. غير أن العقـــل يعجز ، بسبب حدوده ، عن أن يحل رموز الكون المعقدة، بالتفصيل . ومع ذلك ، كان فهم الكون الهدف الأساسي لكل علم يكوّن الحياة العقلية بكاملها في القرون الوسطى باستثناء التنبؤ عن حوادث الطبيعة أو ما يمكن ان نسميه اليوم «بالعلم الطبيعي» . **من هنا يتميز علماء القرون الوسطى بايمان شديد في معقولية الكون ، يستوي في ذلك العالم الصوفي الذي يبحث عن الحقيقة بالحدس والرؤيا ، والمفكر العقلي الذى يسعى اليها بالديالكتيك .** ان العالم يبحث عن معنى لكل شيء ، انه يعتقد بوجود الرمز ، في الطبيعة وفي كل كتاب ؛ **وعليه ان يعلم وظائف الاشياء وأهدافها .**

العالم — في مفهوم ابناء القرن الثالث عشر — **رمز كبير، سره الأساسي هو معناه، لا حوادثه أو أسبابها** . انه نظام ، قوامه التسلسل التصـــاعدي ، يبتدىء من الأدنى الى الأعلى ، من الحجارة والأشجار الى الانسان ، كأسراب الملائكة بعضها فوق بعض . **كذلـــك المجتمع ، يتدرج من التابعين الى السيد ثم الملك فالبابا** . وتعمل هذه المخلوقات كلها بدافع رغبتها في تحقيق الغاية الالهية . اما القوة المحركة لجميع الأشياء فقد كانت المحبة ، تلك

(١) المرجع ذاته ص ١٢٠



ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

« المحبة الالهية التي جعلت جميع الكائنات تطمح لأن تحقق ذاتها ، محبة اللهيب للنار التي تدفع به الى العلاء ، محبة العشب الذي هو اخضراره ، محبة الحيوانات وهي حيوانيتها ، محبة الرجل الشرير وهي طبيعته ، ومحبة الرجل الصالح لله وهو بيته ومسكنه ، ومن اعلى السماوات الى ادنى بقعة في الارض ، كان النزوع لتحقيق ارادة الله في الهدف الالهي القوة الكونية التي جعلت العالم يدور حتى تستطيع أعلى المخلوقات وادناها ان تقول : سلامنا وخلاصنا يكمنان في ارادة الله العليم القدير » .

واذا كانت ثمة « طريقة علمية » ، فهي تنص على ان نقطة الابتداء ليست ملاحظة الحوادث واثباتها ، وانما الاتفاق على عقيدة مقبولة . « سعادة الانسان الصحيحة هي في تأمل الحقيقة كما كان يقول القديس توما الاكويني . ان هذه العقيدة يمكن قبولها بالاستناد الى السلف والتقليد ، أي الكتاب المقدس . فقد وضع القديس اوغسطين قاعدة اصولية تنص على أن « سلطة الكتاب المقدس هي اكبر من جميع قوى العقل الانساني(١) » . **ونتج عن ذلك أنه حيث يقع تناقض بين الملاحظة العلمية والتوراة فالملاحظة يجب أن تهمل .**

وتأتي بعد الكتاب المقدس ، سلطة ارسطو ؛ ثم يأتي « العقل الطبيعي » الذي يؤخذ بأحكامه عندما تؤيدها آراء القدماء .

السمة الثانية للطريقة العلمية هي علاقة العقل بالايمان . هناك علاقة وثيقة بينهما حسبما يرى الاكويني : « يجب أن يكون مايمليه العقل بصورة طبيعية صحيحا كل الصحة .. ولايجوز الاعتقاد بأن قواعد الايمان وهي التي ايدها الله واثبتها بشكل بديهي هي غير صحيحة .. » فايماننا بالاسرار الالهية تؤيده المعجزات كما تؤيده عقولنا .(٢)

والسمة الثالثة للطريقة العلمية هي طبيعتها الجدلية ( الديالكتيكية ) : انها تبتدىء من مبادىء مقبولة وتستنتج منها نظاما كاملا ، وتتكون من سلسلة طويلة من التفكير ، يعتمد على البديهيات والازليات . **أما مقياس الحقيقة فليس هو التحقيق التجريبي وانما اتباع هذه الطريقة .**

ان الانقلاب في المفاهيم الذي حدث في عصر النهضة والاصلاح الديني ، والتمرد على كثير من اطر ومعتقدات القرون الوسطى واتجاه العقل في دروب جديدة — الى حد ما — ان كل

---

(١) ص — ١٧٢ .

(٢) الجزء الاول ص ١٧٦

هذه ترتد الى قوى عديدة ، لانوة واحدة . **لقد أخذت تعمل من ضمن الاشكال القديمة . وكانت كلها ، في رأي المؤلف وثيقة الصلة بالنمو الاقتصادي الذي شهده المجتمع الاوروبي في اواخر القرون الوسطى وبداية عصر النهضة .**

ان لهذه القوة الاقتصادية، كما يرى راندال(٣) المقام الاول في حدوث هذا الانقلاب الكبير .

« ان التجارة والثروات المادية هي وحدها التي التي تستطيع ان تفسر نشوء الحضارة الغنية المتنوعة التي عرفتها فلورنسا في عهد اسرة مديتشي ، او فرنسا في زمن فرنسوا الاول ، او المانيا في عهد لوثر ، او هولندا في زمن ايرازموس . » **لقد دخل رجال المال والاعمال عالم عصر النهضة ، وسرعان ما انطلقوا يحتلون في مجتمعه مكان القيادة . لقد نشأت الشركات والمصارف، واندفعت تبحث عن مزيد من الانتاج ،ومزيد من الاستثمار ، بتخطى نظام الحرف الذي كان سائدا في القرون الوسطى. وأخذ التجار يفتشون عن عوالم جديدة يغزونها ، فوجدوا الهند وأمريكا . « وبذلك حلت سلع المعيشة الضرورية محل السلع الكمالية في التبادل التجاري . واتضح ان المدن وحدات حد صغيرة وضيقة ،وأدركت التجارة حاجتها الى أفق قومي قادر على تأسيس الامبراطوريات الاستعمارية » .**

وقد اقتضى هذا النمو السريع تكييفاً جديدا جوهريا في مؤسسات المجتمع كافة استوجب ايضاً **اعادة بناء الحياة الفكرية بكاملها ،** فقد بدأت روح التسامح تنتشر- رغم كل الوان العنف من ذبح وقتل ومحاكم تفتيش - ،اخذت روح التسامح تقر بسلطة العقل والضمير الفرديين. ومع ان حركة الاصلاح لم تضف شيئا الى مضمون التعليم ، الا انها ساعدت كثيرا على انتشاره . فقد ارتفع صوت لوثر بقوة داعياً الى التعليم الشعبي . ويعود الى عهد اتباعه تأسيس معظم المدارس في المانيا للطبقات الكبيرة الدنيا والمتوسطة، كما يعود اليهم ايضاً فضل تأسيس المدارس الريفية التي عملت على انتشار التعليم في المانيا .

. . .

كان من نتائج النمو الاقتصادي في اوروبا ، وما استتبعه من امتداد التجارة وسيطرة ما يسمى برأس المال ، ان ظهرت في عصر النهضة معالم الثورة على الاقطاعية . ان الثورة التجارية -

---

(٣) الجزء الاول - الكتاب الثاني ص ١٩٥ - ٢٤٠

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على حد تعبير المؤلف – قد اوجدت « مفاهيم سياسية جديدة سيطرت على الفكر والعمل حتى يومنا هذا تقريباً ، كما اوجدت مثلا عليـا في العلاقات الدولية لم تتغير تغيرا ملحوظا منذ ذلك العهد (١) »

وقد لخص المؤلف هذه القوة السياسية التي تمت في تلك الحقبة بانها كانت **« استبـدال المثل الأعلى لعالم مسيحي موحد ، ضعيف الارتباط بعضه ببعض ، يعمل بارشاد من سلطة الكنيسة ، بمثـل اعلى آخر قوامه دول مستقلة مطلقة السيادة في اراضيها مسؤولة تجاه ذاتها ، تجد ضمانة افعالها في القوة(١) »** .

ان هذا التبدل في الاتجاهات الثقافية والسياسية يتكون من عناصر ثلاثة :

١ – ان حاجات التجارة والامتداد التجاري قد جعلت الجهود الاجتماعية لطبقة التجار – وهي الطبقة المتنفذة – تتركز حول الدولة .

٢ – نتيجة لهذا التركيز ، تقلصت حـدود المجتمع من الامبراطورية العالميـة ، الى الدولة القومية ذات الموقع الجغرافي والحدود الواضحة .

٣ – نتيجة للعاملين السابقين ، انتقلت السلطة من الكنيسة الى الحكومة المدنية .

ويلح المؤلف في هذا المجال على موضوع « التغيير الجذري الشامل في عقول الناس » اثر النمو الاقتصادي الذي اشرنا اليه ، وقد تجلى هذا التغيير في ظهور « الدول القومية » اي في ظهور الشعور القومي . هنا يقدم المؤلف وجهة نظر جديدة في مفهوم ، مايسمى بنشوء القوميات . اذ العرف الشائع لدى كثيرين من المفكرين ، يشير الى ان نشوء القوميات ، قد حدث في اواخر القرن الثامن عشر ، واخذ مداه ومجالات تحققه في القرن التاسع عشر . **ويرى المؤلف ان هذا الشعور القومي الذي اخذ ينمو في عصر النهضة ، قد تجلى بظاهرتين معاً : شعور شعبي بالارتباط في وطن معين ، ومع الافراد والجماعات الذين يعيشون فوق ارض هذا الوطن من جهة ، وشعور بالعداء نحو الاخرين اياً كانوا .**

كما تجلى هذا التغيير في قيام طبقة جديدة ، هي الطبقة المتوسطة ، اخذت تدريجياً بزمام السلطة نتيجة سيطرتها المتزايدة على اقتصاديات البلاد . ان هذه الطبقة المتوسطة ، هي التي رسخت مفهوم القومية الحديثة في رأي المؤلف . وتولدت عن هذا الشعور القومي ثقافة قومية اذ اخذت مختلف البلاد تطبع الكتب بلغاتها المحلية ، بعد اختراع

---

(١) الجزء الأول الكتاب الثاني – القسم ٨ ص ٢٨١ .
(٢) الجزء الاول ، الكتاب الثاني ص ٢٧٤

الطباعة طبعاً ، كما راحت تترجم الكتاب المقدس الى لغاتها العامية .

ويلخص المؤلف الثورة السياسية الجديدة ، في عصر النهضة والاصلاح ، في ان السلطة — من الناحية النظرية على الاقل — قد انتقلت من البابا الى الملك القومي ، ومن الملك القومي الى الشعب وفي الوقت ذاته اخذت السلطة الفعلية تنتقل من الكهنة والاقطاعيين الى الملك الذي كان يحكم لصلحة الطبقة المتوسطة ، ومن الملك الى ممثلي تلك الطبقة مباشرة .

. . .

وما ان هل القرن السادس عشر ، حتى اخذت هذه الافكار تنضج ، وتزداد انتشاراً ، تساعدها في ذلك الحروب الدينية ، والأهلية ، رغم ماقد يتبادر الى الذهن من عدم وجود علاقة بين هذه وتلك . في القرن السادس عشر ، تبلورت اتجاهات كثيرة : ظهرت نظرية الملكية المطلقة ، وظهرت مفاهيم جديدة حول الاتجاهات الدستورية والقانون الدولي ، والنظريات القومية الاقتصادية.

فلما جاء القرن السابع عشر ، أخذ المفكرون يعالجون هذه المفاهيم ويوضحونها كما أخذوا يشرحونها للناس في كتب وبحوث ومحاضرات ودروس . وقد أسهب المؤلف في عرض التطورات التي طرأت على هذه المفاهيم . ففي حديثه عن « نظرية القومية الاقتصادية » ، يقول :

« ان الطبقة المتوسطة ، مدعمة بالشعور القومي ، وحرص الهيئات الدينية على أن تحافظ على وجودها ، خلقت أولا الدولة القومية المطلقة من انقاض نظام القرون الوسطى ذي المراتب ، ثم حدت من سلطان تلك الدولة حين حاولت أن تهاجم الملكية والضمير ، وكانت هذه الحكومات القومية الجديدة تاخذ على عاتقها ، بعد تثبيت دعائمها ، تنظيم الحياة الاقتصادية وحدث في الحياة الاقتصادية ، ماحدث في الحياة السياسية : أي ان حركة التطور كانت تبتعد عن الوحدة الصغيرة ( كالنقابة والبلدة ) لتتجه صوب التزاحم الشديد على مستوى قومي واسع ... وهذان التغيران في تنظيم الوحدة الاقتصادية ، وفي توجيهها ، أديا الى النظرية الاقتصادية المعروفة بالاقتصاد التجاري ، او الميركانتيلية Mercantilism والتي قد يكون من الافضل تسميتها بالقومية الاقتصادية — وهي التي تنادي باستخدام التنظيم الاقتصادي لبناء دولة عظمى ، وبناء مثل هذه الدولة لتزيد من ربح الطبقة التجارية (١) » .

. . .

(١) الجزء الاول — الكتاب الثاني — ص ٣٠٨ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هكذا بدأ العصر الحديث : حرباً على مفاهيم القرون الوسطى من جهة ، واغناء للمفاهيم والأفكار الجديدة التي تفتحت عن بذورها إبان عصر النهضة من جهة ثانية .

ان اعظم ظاهرة في تقدير المؤلف تميز العصر الحديث الذي تفتح في القرن السابع عشر ، هي اتجاه الانسان نحو الطبيعة ، ونحو الحياة الانسانية كما يمكن ان يحياها البشر على سطح هذا الكوكب الأرضي . وقد استتبع الاهتمام بالطبيعة قيام ما نسميه بالعقل العلمي أو العلم بالمعنى الحديث للكلمة . « لقد انتج عن هذا الاهتمام المتزايد بالطبيعة والعلم والتثبت بالبحث والرياضيات والمنهج ، ان شهد القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر بحق ، بل قد شهدت قلة ضئيلة من اصحاب العقول المتنورة ، كوناً جديداً يتخذ شكله . فلقد حدثت ثورتان كبيرتان في الفكر . وما سياق التاريخ الفكري بعد ذلك الا سجل بالدرجة الاولى لتشرب عقائد الناس بنتائج هاتين الثورتين . وقد اصبح القرن الثامن عشر عصر « التنوير » لأن هذه النتائج كانت تنتشر بسرعة فائقة بين الطبقات المتوسطة . أما في اواخر القرن التاسع عشر ، فربما امكن القول ، إن العلم قد اصاب الخيال الشعبي . أما اليوم ، فليس في الغرب الا عدد ضئيل من الناس المحلين الذين حافظوا على عادات فكرية تحدرت اليهم من عصر مبكر ، ومع ذلك نجد في نفوسهم الى جانب هذه الأفكار القديمة اعتقاداً بعالم الطبيعة الجديد(١) » .

ويقدم المؤلف نموذجاً لهذه الثورة الفكرية التي تحققت ، من نصين ، الأول مأخوذ من عظة دينية لجون تولر Tauler ، وهو صوفي من القرن الرابع عشر : يقول : « ابنائي : يجب الا تبحثوا عن علم كبير . بل يكفي ان تدخلوا اغوار نفوسكم ، وان تفقهوا ماهي حقيقتكم الروحية والطبيعية ، . . . . ابنائي الاعزاء ، لن يعلمنا الروح القدس جميع الأشياء بحيث يمكننا التنبؤ بما اذا كان حصاد السهول او قطاف الكروم ، سيكون حسناً او سيئاً .... كلا يا ابنائي الاعزاء ، بل انه سيعلمنا جميع الاشياء التي نحتاجها في سبيل حياة كاملة وفي سبيل معرفة الحقيقة الالهية الخفية وقيود الطبيعة ، وخداع العالم ، وخبث الارواح الشريرة . » اما النص الثاني فهو من كتاب اتلانتا الجديدة Ne v Atlantis لفرانسيس بيكون يصف فيه مركباً انكليزياً يصل الى جزيرة فيها معهد كبير للبحث العلمي ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١) الجزء الاول ، الكتاب الثاني . ص ٣٥٧

ويأخذ حاكم الجزيرة للسافرين الى داخل هذا المعهد قائلاً : « لتحل بركة الله عليكم ياابنائي ..... ان غاية مؤسستنا هي معرفة الاسباب والحركات الخفية للأشياء ، وتوسيع حدود المملكة الانسانية ليستطيع الانسان صنع جميع الاشياء الممكنة(١) » ويقول المؤلف : ان تولر يمثل القرون الوسطى اما بيكون فهو نبي العهد الجديد .

. . .

وفي خلال عشرات من السنين فقط كانت الثورة العلمية قد عمت ارجاء اوروبا على يد المئات من العلماء والباحثين ، يأتي في طليعتهم ، ديكارت ، كوبرنيك ، كيلر ، غاليليو ؟ ويرى المؤلف

ان ثورة ديكارت كانت اهم من ثورة كوبرنيك ، لأنها خلقت علم الفيزياء الجديدة ، وسرعان ما انتصرت المفاهيم العلمية : الميكانيك ، تفسير الطبيعة الآلي ، السوائل اللامتناهيـــة ، القانون العلمي .

وقد خصص المؤلف الكتاب الثالث من الجزء الأول للافاضة في شرح التطور العلمي الكبير الذي حدث في نطاق فهم الطبيعة ، والسيطرة عليهـــا ، والتطور الذي حدث في موضوع الدين ، ونمو الحركة العقلية الدينية ، وفي علوم الانسان .

ويلاحظ أن بحث المؤلف في هذا القسم من الكتاب ، بحث معروف ليس فيـــه اشياء جديدة فعلاً .

ان مايلفت النظر في هذا القسم الأول من كتاب « تكوين العقل الحديث » هي الوقائع التالية : ان معالجة المؤلف لموضوعات الكتاب تتسم على وجه العموم بالتبسيط دون الغوص الى الأسباب العميقة لتطور الفكر الانساني ، كما يبدو أن فهمه لروح الفكر في القرون الوسطى فهم غير متمكن تمامـاً . يضاف الى ذلك ان المؤلف لم يتعمق في بحث اثر الفكر العربي على الفكر الغربي . وقد اشار الى ذلك المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل في المقدمة الطويلة التي وضعها لترجمة هذا الكتاب .

وغني عن البيان ان الكتاب في ترجمته العربية قيم ودقيق . ويستطيع القارىء ان يتحقق بسهولة من امانة المترجم ودقته في اختيـار الكلمات والتعابير المناسبة . ان الجزء الأول من كتاب تكوين العقل الحديث موجه بصورة خاصة الى جمهور المثقفين ، اكثر مما هو موجه الى كبار المتخصصين منهم ، وهو بهذه الصفة ، مؤهل لأن يقدم معرفة سليمة وواضحة لجميع اولئك الذين يعنون بتطور العقل البشري ، وبالدرب الذي قطعه حتى بلغ المرحلة التي يشهدها الانسان المعاصر .

وطبيعي أن يفرد المؤلف الجزء الثاني من كتابه للافاضة في شرح وتحليل الآفاق والميادين الحديثة للعقل البشري خلال القرن الماضي والقرن الحاضر وستقدم هذا الجزء الثاني الى القراء ، بعد صدوره الوشيك .

---

(١) الجزء الاول ، الكتاب الثاني ، ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



# مع ايفو أندريتش

● الحائز على جائزة نوبل عن كتابه
**( جسر على نهر الدرينا )**

● أجرى المقابلة والحديث لمجلة ( المعرفة )
**الكاتب الصومالي الدكتور جون فياني**

● ترجمة عن الانكليزية محمد جلال الخطيب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يعرف الكثيرون ، في مختلف أنحاء العالم ، اسم « ايفو أندريتش » معرفة جيدة. وترجمت كتبه الى لغات عدة ، بما فيها العربية ، قبل أن يمنح جائزة نوبل للآداب ؛ إذ قام الاستاذ القدير الدكتور سامي الدروبي بترجمة أشهر روايتين للسيد « أندريتش » وهما : « جسر على نهر الدرينا » و « قصة البوسنة ، أو وقائع مدينة ترافنيك » ، قبل أن يحصل مؤلفهما على أرفع جائزة للآداب بوقت طويل .

ولد « إيفو أندريتش » في مدينة « ترافنيك » بمقاطعة « البوسنة » عام ١٨٩٣ ، في عائلة يشتغل أفرادها بالصناعات الحرة . دخل المدرسة ثم الجامعة في « سيراجيفو » و « فيزغراد » ، ثم أتم بعض الدراسات العليا في « زغرب » و « كراكو » و « فيينا » وفي عواصم أوربية أخرى وحصل على الدكتوراه في التاريخ والدراسات السلافيـــة . والى جانب شهرته ككاتب كبير ، له شهرته كديبلوماسي مرموق ، وكان أحد المناصب التي شغلها مؤخراً منصب السفير اليوغوسلافي في « برلين » .

لقد نبهني الكثيرون من الكتاب اليوغوسلافيين الى أنه ليس من السهل مقابلة السيد « أندريتش » حتى ان احدهم وصفه لي بأنه « انطوائي » ، ويروى عنه أنه رفض مقابلة عدد من الصحفيين بدعوى حالته الصحية التي لا تسمح له بذلك ، الا ان مما ادهش الكثيرين انني استطعت رؤيته دون ان أهيء للمقابلة بالطرق الرسمية المعروفة ، ولقد تبين لي — فيما بعد — انه انسان يختلف كل الاختلاف عن ذلك الذي كنت أتوقع لقاءه .

وحين زرته في منزله ، كان في حجرة ملحقة ، يعد لي قائمة ببعض الكلمات العربية يستخرجها من أحد مجلداته القيمة الذي يحوي كلمات مأخوذة عن التركية ، جاءت من أصل عربي واصبحت تستعمل تلقائياً في لغتـــه ؛ بينما كانت زوجه النشيطة في المطبخ تقوم بالاعمال المنزلية المعتادة .

واستقبلني السيد أندريتش بحفاوة ، وشاركته زوجه في الاعراب عن اهتمامها الكبير بمشاكل الصومال ، والمشاكل الثقافية ، في مناطق أخرى من آسيا وافريقيا والعالم العربي . وقدمت لنا زوجه القهوة ، واشتركت معنا في الحديث الذي استغرق ساعة ونيفاً .

واجاب السيد أندريتش على سؤالي الاول على الارتياح ، وكان عن الكيفية التي أصبح بها كاتباً . قال : « حين كنت في الثالثة عشرة او الرابعة عشرة ، كتبت أولى قصائدي ؛ وفي السادسة عشرة أو السابعة عشرة نشرت أول قصائد لي في صحيفة المدرسة « بسيراجيفو » . ولعل من سوء الحظ ألا يكون لدي نسخ من تلك الصحيفة ، بالاضافة الى انني لا اذكر تلك القصائد ولا عناوينها في الوقت الحاضر ، فقد تصرم على هذا أمد طويل .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

**● سؤال : هل كان الأدب ميدانك المفضل في حقل الدراسة ؟**

**اندريتش:** لا . بل إنني لم أشارك في اية مدرسة أدبية معينة . فقد كانت دراستي قاصرة على التاريخ واللغات السلافية .

وشهدت السنة الاولى ، للحرب العالميـــة الاولى ، السيد « أندريتش » في السجن الذي زجت به فيه السلطات النمسوية — الهنغارية . فالحرب ، والسجن ، والمغامرة ، والشعور بالعزلة .. كلها اشياء نستجليها بوضوح من خلال

الـ « إكس بونتو Ex Ponto » التي لاتعدو كونها يوميات سجين ، او اعترافاً حزيناً من كائن يائس صغير ينشد — عبثاً — العثور على « سفينة خلاص ، خلال فيض الظلام الطامي ، الذي حطم الجنس البشري ، ومزقه كل ممزق. »

**أندريتش :** في عام ١٩١٨ كتبت « الطريق La Route » ، وقبل ذلك بضع قصائد أخرى . ثم تركت الشعر الى القصص ، فكتبت أربع قصص ، بين قصيرة وطويلة، نشرت كلها فيما بعد . وبعدعام ١٩٤٥ كتبت روايات أربع هي : « جسر على نهر الدرينا » و « قصة البوسنة أو وقائع مدينة ترافنيك » و « الآنسة Miss أو امرأة من سراجيفو » و « الباحة الملعونة La Cour Maudite » . وما زلت أعمل الآن في رواية أخرى هي — في الواقع — تتمة لـ « قصة البوسنة » . ولعلك تذكر أن « قصة البوسنة » تغطي فترة تنتهي بعام ١٨١٤ أو ١٨١٥ . أما الرواية التي أعمل فيها ، في الوقت الحاضر ، فتغطي فترة تليها ، تتراوح بين ثلاثين وأربعين عاماً .

● **سؤال ما الذي ألهمك كتابة هذه الروايات ؟**

**أندريتش:** ان التاريخ يشغل جل اهتمامي على الدوام . فقد ولدت ونشأت في مكان له أهميته التاريخية — مكان كان عرضة وملتقى لتأثير الشرق وتأثير الغرب ، وكان أكثر ما جذب اهتمامي في الأمر هو التناقضات ، فالتباس والصدام ، بين الشرق والغرب ، والديانات المختلفة — كالاسلام والمسيحية — ، والأبعاد النفسية الثنائية المتناحرة ، وعظمة الانسان وبؤسه ... كلها أشياء كانت تتمثل بكل وضوح ، في واقع « البوسنة » .

**وإزاء هذا عرضت لي تساؤلات كثيرة ، فمثلاً : كيف السبيل الى العيش بطريقة انسانية بين هذه التناقضات ؟ كيف تفهم الآخرين ، وكيف يفهمك الآخرون ؟ كيف تعيش بطريقة انسانية (١) ، أو كيف تتعايش مع الآخرين ؟**

● **سؤال : أي الكتّاب أو الأعمال الأدبية كان له أثره لديك في شبابك ؟**

**أندريتش:** لقد تأثرت في شبابي الى حد كبير بكل من « تولستوي » و « غوركي » و « تشيكوف » . ولما تقدمت في السن قليلاً بدأت أتذوق أعمال « توماس مان » وعدد من الكتاب الآخرين .

● **سؤال : أعتقد أنك قرأت كل أعمالهم من قبل ؟**

**أندريتش:** أجل . أعمال « بلزاك » و

---

(١) التكرار في الأصل (المترجم)

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

« غوته » و « دانتي » و « كافكا » و « ليوباردي » و « ألبير كامو » و « نوكنر » و « بيرانديللو » و « هيمنغواي » و « شتاينبك » الخ ...

**السيدة أندريتش** : ان زوجي يجيد كلاً من الألمانية والروسية والايطالية والفرنسية تماماً .

● **سؤال : الى جانب الصربوكروانية واللهجات اليوغوسلافية الأخرى المستعملة في مدينته الاصلية ؟**

**السيدة أندريتش** : أجل ، بطبيعة الحال كما درس الانكليزية وبمقدوره أن يقرأها ويكتب بها بشكل جيد ، الا أنه يعوزه المران ، مما يكلفه بعض العناء لدى التحدث بها .

**أندريتش** : سأريك مكتبتي قبل أن ترحل ... ان مايهمني بالنسبة للكتاب وأعمالهم ، ليس الشكل – اذ لا أهمية لذلك عندي على الاطلاق – وانما الجوهر . فالمهم بالنسبة إلي هو مايريد الكاتب أن يقوله ، وليست الكيفية التي يقول بها مايقول .

● **سؤال : ماهي الشروط اللازم توفرها للكاتب ، ليعبر عن آرائه ؟**

**أندريتش**: ذلك عائد الى مقدرته ، والى نزعته ومزاجه .

● **سؤال : ماهذا أردت . بل أردت معرفة شروط .. كالحرية مثلاً ، وغيرها من الشروط التي يظن الكاتب أنها ضرورية له ، ليعبر عن آرائه بحرية ، دون تدخل من جانب الدولة ، أو وجود مايعكر صفوه .**

**أندريتش**: : ان الكتاب أحرار في هذا البلد . وآراء الكتاب ، وحقهم في التعبير عنها بحرية ، أمران لاينكرهما عليهم أحد ، كما أنهما لايخضعان لرقابة الحكومة . وإنما الناقد الادبي هو الذي يطلق الحكم على مزايا عمل كاتب من الكتاب ، وعلى مثالبه .

● **سؤال : ماهي النصيحة التي تتوجهون بها الى الكتاب الشباب ؟ لقد بدأت في كتابة أولى رواياتي «مرارة النصر» ، وهي رواية تاريخية ، ولشدما يسعدني أن استمع الى نصيحتك .**

وبعد أن أبدى السيد « اندريتش » اهتماماً بالغاً بعملي هذا قال : **« إني أرجو لك وللكتاب الشباب الآخرين ، ألا يواجهوا من الصعوبات ما اعترضني في كتاباتي . لقد كانت حياتي – ككاتب – غاية في القساوة ، وواجهتني الصعوبات من الخارج ومن الداخل . واني لأتمنى مخلصاً ألا يعاني الكتاب الآخرون مثل هذه الصعوبات » .**

**سؤال : بحكم مهنتك الدبلوماسية ، هل قدر لك أن تعرض للقضايا العربية أو المشاكل العربية من قريب أو بعيد؟**

اندريتش : لسوء الحظ ، لا . الا أنني أكن كل اعجاب وعطف نحو الشعب العربي . ولقد كنت على اتصال غير مباشر بالعرب ، من خلال الاسلام ، وعن طريق عدد من الكلمات أدخلوها في لغتنا عن طريق اللغة التركية . لقد سافرت عام ١٩٦٢ الى الجمهورية العربية المتحدة كسائح فحسب ، لكن المرض أقعدني عن رؤية الكثير مما كنت أحب أن أراه . وقابلت عدداً من الكتاب المصريين ، وخاصة صديقي طه حسين. لقد كان بودي لو رأيت لبنان وسورية والاردن والعراق ، وأماكن أخرى كثيرة – بل وأتمنى لو تعلمت العربية أيضاً ، الا أن سني لايسمح لي بتحقيق مثل هذه الأمنية . ولكن العربية تدرس الآن في بعض جامعاتنا ، ولقد أبدى اليوغسلافيون اهتماماً كبيراً بتعلمها . واني أرى من الحق أن أقر بأنني تمتعت بزيارتي لمصر . وأضيف الى هذا أني أكن كل عطف ومودة واعجاب نحو العرب ، وكذلك نحو الافريقيين .

ثم قام السيد اندريتش ، بعد ذلك ، باطلاعي على مكتبته . فرأيت فيها المجموعة الكاملة لأعمال كل من بلزاك وغوته ، والمئات من الكتب والموسوعات .

## نظرة في بعض روايات اندريتش المشهورة .

إن أشهر روايات السيد اندريتش كما ذكرنا آنفاً ، أربع هي : « جسر على نهر الدرينا » و « قصة البوسنة أو وقائع مدينة ترافنيك » و « الآنسة Miss أو امرأة من سيراجيفو » و « الساحة الملعونة » ، وأشهرها الاولى والثانية ، اذ كانتا السبب في في حصول السيد اندريتش على جائزة « نوبل » للآداب . وكانت هذه الجائزة اعترافاً بمواهبه وبأسلوب الملاحم القوي الذي استخدمه في وصف الأحداث التاريخية .

ان « جسر على نهر الدرينا » رواية تزخر بالوشي التاريخي المتشابك . والاستغراقات – التي لاتحصى – في سرد الأحداث. انها تعرض تعاقب القرون وتداولها . ومن الأثر الذي تخلفه هذه القرون على وجه الارض وفي العقول البشرية ، يستولد « أندريتش » دراما هذا التعاقب ، لايقصد من هذه الدراما جوهرها وحقيقتها ، بقدر مايقصد أن يجعل منها عبرة ونموذجاً لذلك

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الخطوط العميقة الثابتة ، التي تكشف عن الأقدار المشتركة في تكوين موضوع تلك الدراما .

## الجسر، ولماذا اختاره أندريتش رمزاً؟

لكي نفهم الاسطورة التاريخية للجسر، ورسالته التي يؤديها، والبشائر التي يحملها للاجيال القادمة، يجب أن نفهم « أندريتش » بالذات أولاً ، ثم « البوسنة » موطنه الذي ظل تحت الحكم العثماني قروناً طويلة ، والذي تحرر ليستعمره التحالف النمسوي ـ الهنغاري .

**ان الجسر ـ الذي هو رمز لمنجزات الانسان ، ( رغم الطبيعة الزائلة لهذا الانسان ) ـ يباين ، في قصص « اندريتش » ، الفكرة الوجودية عن حياة الانسان ـ تلك الحياة التي تخفق دائماً في صراعها مع ما وراء المعرفة ، بالاضافة الى ما يملؤها من تعاسة وما يكتنفها من نكبات .**

ان الجانب الخيالي بأكمله ـ كطابع مميز لأعمال « أندريتش » الادبية ـ تفسره وتعبر عنه أشكال محسوسة في عالم الحقيقة . ففي أحد مقالاته المبكرة « وجوه » يتكلم عن « الحقيقة المجردة » وعن « الحجر » كقيمة جوهرية اصلية ، يقوم على اساس منها نظام خاص للفكر والرؤيا الروحية ، وهو اذ يتكلم عنهما ، يضفي عليهما قيماً خفية ، في نوع من الرمزية، ويعطيهما اتجاهات غير مطروقة، تقودنا الى معان متداخلة، تصحبها مرونة فائقة في الشكل والصياغة .

ان « اندريتش » ، بفعل من شعوره بأن « كل انتقال في هـذا الوجود يتم ضمن دائرة مغلقة ، وأن كل ماعدا ذلك ضرب من الوهم ؛ وأن كل مغامر يأمل بالسبق الى غايته ، انما يصل الى نقطة البدء فحسب ؛ وأن التطور ليس الا تكراراً مستديماً ، وأن الزمن والانسان لايعنيان شيئاً ـ قل او كثر ـ ؛ وأن التحول يعود في كل مرة الى نقطة بدئه » ، يتوق الى **البقاء**، ليبرهن أن الانسان لم يعش عبثاً. **واستمرارية الجنس البشرى أشبه بشيء ثابت على الدوام ، يصل انسان الماضي بانسان الحاضر ، و كذلك بانسان المستقبل؛ شيء يوحي الينا أن « الحياة معجزة يستحيل فهمها ، فهي تنعدم باستمرار، وتضمحل ، الا أنها تظل صامدة متينة كالجسر » .**

لقد اعطى « اندريتش » للحجر ، رمزه الطبيعي الحق ، اذ نزع الى تفسير الحقائق الروحية بأشكال مادية . فبعد أن ضاق **بالفناء** ، جعل من الحجر تجسيداً لمثله الأعلى في **البقاء**، ولذلك كان **الحجر** مادة أول جسر بناه في احدى أبرز قصصه القصيرة «جسر على الزيبا» ، تمهيداً

لجسر « فيزغراد » في روايته « جسر على نهر الدرينا » .

حين عاد « اندريتش » الى الماضي ، كان يهدف الى الوصول الى مثل أعلى في **البقـــاء** وفي النظام ، والى ازالة هذه **السديمية** التي تلف العصر ، ليتخلص من تلك السديمية التي تلف حياته الحاضرة كما كانت تلف العصور الغابرة . ولما فشل في العثور على نموذج لذلك **البقاء** وذلك **النظام** ، جرب أن يخلقه بنفسه . فحاول أن يفسر الرابطة بين « **الخالد** » و « **المتناهي** » وعن طريق هذه الرابطة ، استطاع أن يعطي لذلك النموذج معناه الذي اراده له .

ويقول اندريتش في اكس بونتو « **ExPonto** » :

« إن التفسير النهائي لجمل الأفكار ، وأبسط شكل يعبر عن كل مايلاقيه الانسان من متاعب وآلام .. إنما هو ( **الصمت** ) » ففي عالم هو « الشر الذي يترصد لكل نفس حية » وحيث « يمكن أن ينجم عن كل عمل بشري ، بل وعن كل كلمة ، أسوأ النكبات » تكون القاعدة التي يجب أن يلتزمها العقـــلاء « الذين عانوا صنوف البلاء ، وشهدوا الكثيرين في حالة النزع وعذاب الاحتضار » هي « أن ينقطعوا عن كل ماعداهم ، منطوين على أنفسهم » ؛ أي **أن يخلدوا الى الصمت** . « في الصمت السلامة » . إن خوف الحياة يقبع في أعماق هذا **الصمت** « لعل في الصمت الكلمات التي دفنت القلق والتعاسة » ، ولكن الصمت « كتفسير نهائي لجمل الافكار ، وأبسط شكل يعبر عن كل مايلاقيه الانسان من متاعب وآلام » هو في الوقت ذاته مفتاح القوانين ، وجرثومة البقاء ، ووقاية من شرور ماوراء المعرفة ، وعلاج للسديمية؛ وقد يتخطى ذلك « التفسير النهائي لجمل الأفكار » أطر التفكير البشري المقيد ، ليصل في نهايته المنطقية الى حالة من الصلابة المادية لاتدانيها فيها مادة أخرى؛ وقد يكون **الصمت** القوة المكملة في تلك **اللا تكاملية** التي تبدو لأندريتش حالة من حالات زوالية الانسان ؛ أو يكون ذلك التوافق أو الانسجام الذي يمنح المغامرة البشرية معنى من المعاني .

إن الروح تأخذ شكل الحجر ، « الحجر الذي نحتته اليد الصناع لتحقق غـاية معينة » ، بغية تحقيق الديمومة **والبقاء والجمال** . وهكذا تشكل « الكتلة الحجرية » و « الصمت » – الذي يرى فيه كيركغارد « الشيء الوحيد الموجود » – ملاذاً أمينـــاً من معنى العجز في سديمية الحياة ، وحافزاً صالحاً ، يجسد في رمزيته الغرض والمعنى اللذين لم يعثر عليهما أندريتش – « المنفي المعزول » – فيما يحيط به من أحداث ، ويعكس حقيقة الحياة على شكل حقيقة سامية عليا ، تخلق حياة جديدة من صنع المؤلفين ، بعيدة كل البعد عن الحياة الفعلية .

**ان الجسر لايمثل مجرد استمرارية**

**الحياة» المتمثلة في الانعدام والاضمحلال المستمرين في الحياة الفردية للانسان ، ولكنه يمثل أيضاً وحدة بناء الرواية :**

إنه يعطينا المفهوم الذي يجعل من الخبر التاريخي رواية متكاملة ، فهو — بالمفهوم الخارجي — إذن الممثل الرئيسي الذي تحركه الاحداث ؛ وتظهر صورته الظليـــة (١) في قلب كتابات « اندريتش » في آخر كل فصل ، حيث تنتهي — عادة — حقبة تاريخية أو فردية معينـة . وليس وروده في هذه المواضيع لمجرد الانتقال الى فصل تال ، ولكنه بمثـــابة المعلق المنصف الوحيد الذي يقذف في تيار الأحداث الجديدة المتغيرة ، نفس العنصر القديم على الدوام : عبارة تتكرر دائماً — بشكل موزون تقريباً — ، مع بعض التغيرات الطفيفة في الاسلوب ، ولكن حول ذات الموضوع ، بحيث يظل كل شيء على ماهو « لايتغير ولا يقبل التغير » .

**فالجسر على نهر الدرينا — اذن —** اسطورة تاريخية من الماضي ، تربط بين القرون وتعطي الديمومة معنى خاصاً . ان فكرة **الجسر** — المستمدة من حنين « وزيرسو كولوفيتش » الفلاح البوسنوي الصغير ، الى وطنه ، والذي لم يستطع أن ينسى بلده المخيفة القاسية التي غادرها صبياً صغيراً هي مع ذلك فوق مستوى الأوضاع البشرية .

ان الجسر — وهو ينحني فوق ضفتي النهر بقوته وعظمته الفردية ، ويدفن قواعده في جسد الأرض — يدفن نفسه أيضاً في أعماق الروح الوطنية ، ويزرع من ثم بذرة اسطورة تبقى أبد الدهور .

تبدأ الرواية حين بدىء ببناء الجسر الذي رافقتـــه عدة كوارث ، وارتوت حجارته بدماء الكثيرين ممن أرادوا به سوءاً . ومنذذلك الحين ، تتوالى الأيام ، وتمضي الحقب والقرون والاسطورة تنمو وتنسع ، وتتأثر مصائر الكثيرين بالصـة الحيـة ، لذلك الحجر الميت .. الميت من وجهة نظر الانسان فحسب .

ويشهد الجسر عنف الأتراك وطغيان ولاتهم ، كما يذكر جيداً وقائع غزوات العثمانيين وغاراتهم ، وغطرسة الفاتحين الجدد ، واصرارهم على تكبرهم وتعاليهم ، كما يشهد الانهيار البطيء المحتوم للحكم التركي .. ثم يشهد مجيء حكام جدد هم النمسويون ويبقى ثابتاً لايتغير ، خالداً تقصر دونه يد الدمار وعلى كتفيه المحدودبتين ترحف أحداث دراما مطلع القرن العشرين ، ثم يستقبل جيش صرب مرحباً . أما البشر الذين ستدفعهم موجات الزمن عبر الجسر فلسوف ينظرون اليه بأعين جديدة دائماً ، مختلفة أبداً ، أعين زمنهم الذي يعيشون ، أعين ايمانهم النابع من اعماق فرديتهم . ولسوف يتخذ الجسر العديد من الظلال الجديدة ، تبعاً للنظرات المختلفة التي يتلقاها ، ولكنه سيبقى شابا

(١) تقابلها بالانكليزية Silhouette ( المترجم ) .

بد ، جديداً ابداً . اما التغييرات الجزئية ،التي قد تطرأ عليه ، فانها ستكون تعبيراً عن سيطرة النسبية المثالية ، وعن استهتار بالقيم الثابتة المطلقة للمفاهيم الأساسية .. من الديمومة ، والاتجاه الثابت ـ سروراً بالحقيقة ـ .. الى أنفه دقائق الواقع الانساني ، ولكنه سيحافظ دائماً ـ وفي مختلف الظروف ـ على عين القيمة الثابتة الأساسية التي لاتتغير .. قيمة الديمومة والمغزى الثابت ـ الديمومة الأبدية و « اللاتغيرية » الخالدة للحياة .. لقوة الحياة التي لاتتغير برغم رواسب الأشياء المستجدة التي ستتراكم على مر الزمن . وعلى هيكله الأبيض ونقوشه « اللامتغيرة » ، سترتطم المذاهب والآراء .. التي هي التعبير عن العصر ، واعتراف الانسانية على مر الدهور . ولكنه سيظل ـ على أي حال ـ فوق الجنس البشري ، لأن بقاءه ليس مرهوناً بالتقدير البشري .

ان ذلك **البقاء** ، الذي حزن اندريتش لفقده طويلاً ، والذي جسده أخيراً بهذا البناء الذي أضفى عليه حياة متنوعة خصبة ، لهو حقيقة مطلقة أساسية ، مجسدة في **حجر** . وتلك الاسطورة ، وتكونها شيئاً فشيئاً ، أرسيت قواعدهما بهدي من السيكولوجية الدقيقة المبصرة؛ كما ان كل تلك التطورات المصيرية ، التي احدثها وجود الجسر ، نجد لها اصولها العميقة في علم النفس.

وتزخر الرواية بالشخصيات التي تمثل القطاع العرضي الواقعي ، لمتوسط العقلية السائدة في البوسنة . كما انها تحاول جاهدة ، أن تبرز التاريخ بصدق وأمانة . ويجد القارىء في الرواية تفصيلات لاحصر لها ، تعكس روح الفضول الأريب ، بجانبيه : العلمي والتاريخي ، تلك الروح التي تحاول اشباع تلك الرغبة في استحضار الصورة الواقعية للماضي ، مااستطاعت الى ذلك سبيلا . فلدينا الخرافة والاسطورة من جهة ، والتاريخ والحقيقة من جهة أخرى . وكل هذه الاشياء تجد لها مكاناً تحت ذلك القوس الجبار الذي يكوّن الجسر . وتمضي الرواية من التسجيل الدقيق الجاف للواقع ، تسجيلاً أميناً لايخلو من نفحة من التعالم الواضح احياناً ، الى الشعر الاسطوري المثير . انها تمزج بين العالم والشاعر وبين المؤرخ والساحر ، وأنى تنقلت في الرواية تجد « البوسنة » امام عينيك ، البوسنة واحوالها الاجتماعية ، وأثر هذه الأحوال في حياة شعبها. وفي سطور حاسمة تبين لنا الرواية مدى تطور ذلك الشعب عبر القرون المتعاقبة ، ولكنها تمعق — في الوقت ذاته — وبخط مواز لهذا التطور قاع مجرى الخرافة . وأندريتش ، الذي يوحد بين الاسطورية والسيكولوجية في شخصياته ، يوحد ايضاً — وعلى نطاق واسع — بين التاريخية والخرافية ، في هذه الشخصيات .

وفي رواية اخرى هي « قصة البوسنة أو وقائع مدينة ترافنيك » نجد شخصيتين وحيدتين ، تختلفان في الطبع والثقافة كل الاختلاف ، هما شخصيتا قنصلين : بلدا هما في حالة حرب فيا بينهما ، الا ان كلاً منهما ينجذب الى الآخر ، بدافع من شعور انساني ، يلمسه



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

القارىء جلياً واضحاً يتجاذب معهما من خلال الرواية .

اذا كانت « جسر على نهر الدرينا » تعنى بأسطورة التاريخ ، فان « قصة البوسنة » تعنى بتشريح النفس البشرية . فالعنصر القوي الآخر في العمل الخلاق الذي قدمه لنا «أندريتش» ، هو إعمال مشرط المُشَرِّح في أنسجة الفرد البشري ، ولم يستدع ذلك منه استخدام الشعر الضبابي عن النفس ، بقدر ماتطلب من آليـــة متروية ، للحصول على النتائج المحسوسة . هذا العنصر يأتي في مقدمة المعاني التي ارادها الكاتب في هذه الرواية .

ان « قصة البوسنة » مهداة الى الانسان كـكائن اجتماعي .. الانسان الخاضع لشروط وضع تاريخي محدد . انها ثمرة بحث طويل ، ودراسات قام بها « اندريتش » في عدد كبير من المكتبات الاوروبية ، وفي بطون سجلاتها ، وفي غيرها . وفي هذه الرواية نجد « دافيل » القنصل الفرنسي ، و « فون ميترير » القنصل النمسوي ، شخصيتين تمثلان ــــ اصدق تمثيل ــــ القنصلين الحقيقيين بما اورده « أندريتش »عنهما من تفصيلات شخصيـــة دقيقة . اما بالنسبة لـ « ديفوسيه » امين سر القنصل « دافيل » والذي تصوره الرواية يكتب عن « البوسنة » نراه يحافظ على نفس اسم المبعوث الذي كان يمثل فرنسا في عهد « نابليون » في مدينـــة « ترافنيك » ، هـــذا بالاضافة الى التشابه الكبير بينه وبين « ديفوسيه » الحقيقي ــ ومن ذلك مسألة الكتـــابة عن « البوسنة » ؛ فـ « ديفوسيه » التاريخي ( الحقيقي ) كتب ــ بالفعل ــ دراسة وافية عن البوسنة ، حتىأن « اندريتش » نقل بأمانة بعض الجمل التي كتبها ذلك المبعوث الحقيقي ،وضمّنهامذكرات « ديفوسيه » شخصية روايته التي تتحدث عنها . ففي الرواية نرى « ديفوسيـــه » الذي تحطمه « البوسنة وصمتها ــ دون أن تستطيع التغلب عليه ــ نراه الشخص الوحيد الذي يصطرع مع « الصمت » ولكنـــه يخرج « دون أن يهزم » . ان لـ « ديفوسيه » روحاً يملؤهـا الاصرار ، والفضول،والقلق؛ وأعصاباًوبنية متينة التركيب، كما أن له سلوكاً اخلاقياً يعينه على محاربة جـور القوانين، بل ويحمله على الارتياب في اصول هذه القــوانين ومن النشأ . كما لاتملأ رأسه غيبيات الانفرادية ، ولا يرى في هذا العالم لغزاً يستعصي على الحل ؛ ان فهمه للبوسنة ــ التي هي سجنه ــ ولما يحيط بها من المتناقضات ، انمـا اكتسبه من رباطة الجأش الخارقة لانسان يملؤه الايمان بنفسه ومن ثم بالعالم .

ان العناية الدقيقة التي تميز سلوكه ازاء وقائع التاريخ ، يتسم بها ــ ايضا ــ سلوكه ازاءالحقائق التي يجمعها عن البلد ، وعن عقلية الشعب ، وعن كل شيء بمقدوره أن يعطينا صورة صادقة عن البلد والشعب في « ترافنيك » ، احـدى مدن البوسنة ، في مطلع القرن الماضي . ولكل هذا



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نجد ان الصبغة الملحمية غالبة على قصص « اندريتش » كما نلمح العناية البالغة التي اولاها لبعض الجوانب التي ربما اعتبرت ــ من وجهة نظر الروائي ــ غير ذات قيمة جوهرية . ان رحلته عبر التاريخ وعبر البوسنة وشعبها ، تتميز بخط واضح لدى تناوله الأشياء التي يريد لها ان تكون « اكثر وضوحاً » : ــ اكثر وضوحاً ليس من وجهة نظر الكاتب فحسب .. ــ فالكاتب يشغله الاهتمام بالدراما والشخصيات فيما يكتب ــ ، ولكن من وجهة نظر عالم الأخلاق المتألم ، من وجهة نظر المدون الأمين والراوية الماهر .

تستقبل « البوسنة » جموع الأجانب ، والقناصل الذين تصحبهم حواشيهم وعائلاتهم ، وقد روعهم الغزو « النابوليوني » ، واوقع في قلوبهم الرعب لما كانوا يتوقعون من المصائب المقبلة .

وتصبح « ترافنيك » ــ المدينة الصغيرة في مقاطعة البوسنة ــ مركزاً لنشاط غير عادي . ولما لم تكن هذه المقاطعة قد اعتادت مثل هذه التغيرات الحيوية ، الزاخرة بالحركة ، فاننا نجد مدنها ــ و « ترافنيك » واحدة منها ــ تنسحب الى قواقعها ، وتستغلق على التيارات الجديدة ، التي تظهر بمجيء الوافدين الجدد ، والافكار الجديدة ؛ وتنظر الى اولئك الناس نظرتها الى عنصر معاد غريب عن تربتها ، فيريبها أمرهم ، وتستاء منهم ، وتتهيأ للانقضاض عليهم . ومنذ اللحظة الاولى ، لايجد هؤلاء الغرباء في استقبالهم ، الا الكراهية التي تجعلهم يرون في هذا البلد بلداً معادياً غريباً عنهم ، مشحوناً بالكآبة .

وهكذا يفتقد القادمون الجدد ، من فرنسيين ونمساويين ، ما كانوا يرجونه من روابط المودة والصداقة في مدينة « ترافنيك » ، ويصبحون ــ في مناسبات عديدة ــ مجرد شهود في اعمال العنف التي تنشب بين المواطنين ، وكأنهم عامل اساسي في دفعهم لارتكاب اعمال التخريب وسفك الدماء . وفي الوقت ذاته يضطر هؤلاء الاجانب للبقاء على عدائهم المتبادل فيما بينهم بفعل العلاقات الدبلوماسية السيئة ، الناجمة عن النزاع النمسوي ــ الفرنسي .

و « اندريتش » ، الذي يجد نفسه في قلب هذا العالم المنقسم على نفسه والمليء بالمتناقضات ، والذي تصطرع فيه المصالح المختلفة ، وتتباين فيه مناحي الحياة والعمل ، يجد هنا فرصة ليخلق وجهات نظر متباينة عديدة ، عن العالم ، يضفي عليها نوعا من التناقض ، يقابله من ناحية اخرى بايجاد صلات وروابط متبادلة تربط احداها بالاخرى . فهنا الغربيون ، من فرنسيين ونمسويين أناس يقيسون ابعاد الحياة والاحداث بمقياس القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر ، ثم هنالك الاتراك العثمانيون : اناس غلاظ شداد ، مجردون من الاحساس بما وراء هذا العالم ، جل همهم ينحصر في محاولة حل بعض مشاكلهم الداخلية التي يعانون منها ، لايتورعون عن تدبير المؤامرات في الخفاء ، متشامخون ، بطيئو الحركة ، كامبراطوريتهم ؛ يتظاهرون بامكان البقاء ، كحكمهم . ويليهم المسلمون من اهل

البوسنة : اناس لهم دوافعهم ومخاوفهم الخفية ، ساخطون ، عظيمو الخطر . اما الرهبان الروم الكاثوليك فنكمشون على انفسهم في وحدتهم المفرقة في زوايا صوامعهم المنيعة ، واخــيرا هنالك اليهود ، قوم محتقرون ، ترهقهم الضرائب ، ولكنهم على جانب من الذكاء .

كان لكل من هؤلاء طريقته في الحياة ، ولكنهم مازجوا بين مصالحهم الحيوية ، وتقاليدهم واعدوا انفسهم للكفاح من اجل الوجود .

ان عنصر التناقض ، يتكشف لنا كأقوى مايكون التناقض لدى « اندريتش » في روايته التي تدور احداثها في مدينة « ترافنيك » ، اذ يقوم بدور الناقل الذي يسجل كل شيء بروح من واقعية القرن التاسع عشر ، والمؤلف الذي يملك القدرة على اكتشاف كل دافع يكمن وراء سلوك شخصياته وامرائهم بروح من العــدل والانصاف ، دون ان يختط لنفسه نظرية ، ودون ان يكشف عن طريقة خاصة به ينتهجها .

والبوسنة في نظر الغربيين ، ليست إلا بلاداً يلفها الظلام ، ويغمرها التخلف ، مازالت في طور التوحش ، ويصعب على الآخرين فهمها .
والشذوذ الوحيد عن هذه الصورة هو «ديفوسيه» الذي يستطيع رؤية الروح الحقيقية للبوسنة مخبوءة وراء حجاب من الخوف والبؤس . انه يحبها فيبحث عنها تحدوه الرغبة والفضول . اما في نظر العثمانيين فقد كانت البوسنة مقاطعـــة متمردة ، تصعب السيطرة عليها ، فيجب ان تخمد بيد من حديد ، ويمثل هذه الحال ، التي كانت عليها البوسنة ، من جهل وتوحش ، قضى الله عليها « ان تتيه بلا غاية وبلا قانون ، وان تظل في هذا التيه الى يوم الدين . »

في هذه الرواية ، نجد افكارا عن التاريخ وعن الحروب ، وعن الحالة التاريخية والاجتماعية للبوسنة . ونلمس هذه الافكار من خلال مجموعة من وجهات النظر المختلفة تتبدى لنا من خلال احاديث ابطال الرواية ، تمثل ـ اصدق تمثيل ـ ذلك النوع من كتابات « اندريتش » ، الذي نرى فيه الافكار خالصة من الرمز والمجاز ، اللهم الا ما كان منها عن طريق التمثيل الواقعي ، او عن طريق تصوير عواطف الغرباء حين يسيطر عليها الهلع والفزع ، فنراه يصور البوسنة على انها نوع من الارواح الشريرة ، او قلعة لسجن البشر . عالمان متنافران متباغضان ، هما الشرق والغرب ، يصورهما في وضع يؤكد الهوة الفاصلة بينهما ، ويجسد الخلافات المتأصلة بينهما ، يلتقيان في البوسنة فيتصادمان ، وتتعرف اليها بأدق الصور من خلال ذلك الصدام ، فتتعرف بالتالي الى البوسنة نفسها ، آنذاك .

والرواية الثالثة « الآنسة : Miss » او « امرأة من سيراجيفو » ، لانجد فيها اثرا للاسطورة او الغيبيات . وموضوعها وثيق الصلة بالحياة المعاصرة ، وهي الوحيدة ، بين روايات « اندريتش » ، التي تتناول موضوعا كلاسيكيا هو البخل .

يهاجم « اندريتش » في هذه الرواية ، الإثرة اللاانسانية ، والانانية المغرقة ، التي تأكل نفسها بنفسها ، ولكنها تظل غرثى ، الى ان تشرف على الموت .

و « رايكا » الشخصية الرئيسية – ولعلها الشخصية الهامة الوحيدة – في الرواية ، هي امرأة مايزال جرح طفولتها يحزها من حين لآخر . انها تعيش من اجل المال ، وتنفق حياتها كلها في هذا السبيل منذ ان مات ابوها ، فهذا مااوصاها به وهو على فراش الموت . اذ كانت سلامة طويته ، وبسطة يده سببين اساسيين في افلاسه . وتكرس « رايكا » كل حياتها في سبيل القليل الذي تملكه ، وتفعل مابوسعها لتنميه وتزيد في قيمته ، وتبذل كل عنايتها لحمايته والحفاظ عليه . لقد كانت ترى – في كل مكان في العالم ، بل وفي كل فرد ، اعينا نهمة تتأهب للانقضاض عليها ، وانتزاع مالها ، الذي هو كل حياتها .

يركز « اندريتش » – في « الآنسة : Miss » – ماوسعه التركيز ، على المغامرة التي تستغرق الحياة بكاملها ، والتي يخوضها الانسان من اجل تحصيل الحاصل ، وهذا مايجعل « اندريتش » يبدو بلا لون يميزه عمن عداه . ان المسألة مسألة التصميم الخارجي فحسب ، فأندريتش – هنا – ليس بشاعر الروح الحائرة ، ولا هو بالمؤرخ نافذ البصيرة ، كما رأينا من قبل ، فهو لم يفعل اكثر من ان يأخذ الموضوع القديم ، موضوع غريزة الكسب ، ويجعل احداثه تدور في « البوسنة » ويختار لهذا الغرض شخص امرأة من اهلها .

## كلمة في اسلوب الكاتب

لاترى في اعمال « اندريتش » ، اثراً للجمال الظاهر في استعاراته وتشابيهه ، ثم انه يميل الى تجنب الدقة المفتعلة ، الى حد انه يحرم نفسه منها حتى في المواضع التي قد تقوم فيها بالتعبير عن افكار اساسية ، وكثيرا مايعرض القارىء محاورات بسيطة خاطفة تختصر الاحداث ، وتقطع – بضربة واحدة ودون تمهيد – العقدة المعضلة التي تتركز كل من حبكة الرواية ، والشخصية الرئيسية فيها .

ان كل شيء لدى « اندريتش » ، ينساب ببطء – مثله كمثل المدن المنصهر – دونما نسيج يربط اجزاء المحاورة ، ودونما تلك الضوابط البلاغية ، وبعد فيض من الوصف التفصيلي نجد ان ذلك الانسياب الممل قد اخذ بالتشكل في اشكال حية ، وتأخذ تلك المادة الكثيفة من التأملات ، طريقها الى الحياة والحركة .

وبفضل من حسن الصياغة ومتانة السبك التي تضفي على الخبر « الموضوعي » نوعا من الحياة نجد ان المجرى قد انفتح واستقام امام الواقع الصادق لتنبعث الحياة والحركة في اوصال الشخصيات والمشاهد والجو المحيط بها في الرواية .

وقد يتساءل المرء – احيانا – كيف استطاعت

مثل هذه الحياة وهذه الطاقة ان تتفجرا من خلال اشياء تبدو لاول وهلة هزيلة جافة مملة ، اشبه ببيداء قاحلة جرداء ! ترى ماهو ذلك العنصر الخفي الذي يجعل هذا المنظر الممل يشتعل – فجأة – بكل الوان قوس قزح !؟ ومن اي مصدر – ياترى – ينثال ذلك النسغ الحي في اوصال عمل يبدو – احياناً – جافاً اشد الجفاف ؟ ولكن مثل هذه التساؤلات تضع يدنا على القضية الرئيسية في فن الشعر ؛ فحين يخضع الالهام للفن، لايحسُن به ان يسأل عن الوسيلة المثلى للتعبير : اذ كل وسيلة تصلح لهذا الغرض، والفن يستخدمها جميعا ، دونما تمييز ، بل لعل شيئاً من التناقض يبرز نفسه من آن لآخر من خلال هذه الوسائل ولكن هذا هو السبب فيما نراه من الاشراق والجمال في بناء نهض من مادة صلبة جافة .

★

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



# « جامعة المتوسط الصيفية »

من اكس إن بروفنس
بقلم احسان هندي

أريد في هذه الرسالة أن أتحدث عن مؤسسة ثقافية تقوم بدور مهم في الحقلين الثقافي والسياسي رغم أنها لاتزال مجهولة من أغلب المثقفين في سورية والبلاد العربية ، وهذه المؤسسة هي « جامعة البحر الأبيض المتوسط الصيفية » أو مايطلق عليه بالفرنسية « U . M . E » اختصاراً عن كلمات:
Université Méditerranéenne d' Eté

## ١ ــ نشأة هذه الجامعة وتمويلها :

ولدت فكرة هذه الجامعة منذ خمس سنوات تقريباً في مدينة فلورانسة في شمالي إيطاليا، وذلك أثناء عقد اجتماع « المؤتمر المتوسط للثقافة Congrés Méditerranèen de la Culture » ، حيث تناقش ممثلو دول المتوسط في هذا المؤتمر حول ضرورة إنشاء منظمة يجتمع فيها سنوياً ممثلون عن دول البحر الأبيض المتوسط لاتقل ثقافة الواحد منهم عن مستوى الاجازة الجامعية « الليسانس » بحيث يتناقشون في المشاكل الثقافية الخاصة بهذه الدول، ثم يخرجون باقتراحات معينة بخصوص هذه المشاكل .

وقد اقترح عمدة مدينة فلورنسة عقد الاجتماعات في ايطاليا على أن تشترك جميع الدول المتوسطية في دفع النفقات بنسب معينة ، فاغتنم الأعضاء الفرنسيون الفرصة وتبرعوا بتقديم المكان مع النفقات السنوية لمثل هذه المنظمة بشرط واحد وهو ان تتم المناقشات باللغة الفرنسية حصراً ، وهذا يجعل أمر إتقان اللغة الفرنسية كلاماً وكتابة شرطاً مفروغاً منه بالنسبة للحضور. وقد ظهرت هذه المنظمة المتوسطية فعلاً للوجود في سنة ١٩٦١ ، وعقدت أول دورة لها سنة

١٩٦٣ ، والثانية في العام الذي تلاه ، وعقدت الدورة في شهر تموز من العام الحالي (١٩٦٥)، وكان لي شرف تمثيل خريجي كلية الآداب في جامعة دمشق في الدورة الأخيرة . ولكي تبقى هذه المنظمة المتوسطية ، التي اطلق عليها اسم « جامعة المتوسط الصيفية U. M. E » ، مستقلة عن جميع المؤثرات بما فيها الحكومة الفرنسية نفسها ، لم يرض أصحاب الفكرة أن يربطوا موازنتها بموازنة الجامعات الفرنسية العادية ، وجعلوا تمويلها يتم عن طريق التبرعات التي تأتيها من المؤسسات والشركات المتوسطية في فرنسة وغيرها . وتبلغ موازنة الجامعة حالياً حوالي عشرة ملايين فرنك فرنسي قديم سنوياً ( أي حوالي ٨٥ ألف ليرة سورية تقريباً ) يدفع القسم الأكبر منها غرفة تجارة مرسيليا ، وبعض الشركات الكبرى الفرنسية في الجنوب ، وأحد التجار الفرنسيين الكبار واسمه « رينيه سيدو R. Sédou » ، كما وتدفع الحكومة اليونانية مبلغاً رمزياً كل سنة . وتصرف الموازنة كأجور سفر وإقامة وطعام للطلاب وللأساتذة المحاضرين ومصاريف حفلات تعارف ورحلات وغير ذلك .

## ٢ ـ مكان الجامعة وإدارتها

تعقد جامعة البحر الابيض المتوسط الصيفية دورة واحدة سنويا في شهر تموز من كل عام وذلك في مباني كلية الآداب والعلوم الانسانية التابعة لجامعة « إيكس ـ مارسيليا » في مدينة إيكس ـ آن ـ بروفانس Aix En Provence الواقعة جنوبي فرنسة على مسافة ٣٠ كيلو متراً من مرفأ مرسيليا .

ويدير الجامعة حالياً البروفيسور جورج دوبي Georges Duby ، وهو أستاذ مادة « تاريخ العصور الوسطى » ورئيس قسم التاريخ في كلية الآداب والعلوم الانسانية الموجودة في جامعة إيكس ـ مارسيليا المذكورة .

## ٣ ـ المدعوون

يكون المدعوون عادة على ثلاثة أصناف : طلاب ومحاضرين وضيوف .

### آ ـ الطلاب

تتم دعوة الطلاب لحضور دورات هذه الجامعة عن طريق رسائل دعوة يوجهها البروفيسور جورج دوبي ، رئيس الجامعة المذكورة ، الى عمداء الكليات في الجامعات الموجودة في البلاد المتوسطية ليرشح كل عميد عدداً من الطلاب بعدد رسائل الدعوة الموجهة اليه ، ويشترط في رسالة الدعوة عادة ان يكون المدعو من حملة الاجازة الجامعية على الأقل ، وان يجيد اللغة الفرنسية اجادة تامة .

كما ويمكن أن توجه الدعوة بشكل شخصي من البروفيسور دوبي مرشحين يعرفهم شخصياً بسبب حضورهم دورة سابقة وابدائهم نشاطاً ملحوظاً في سير اعمال الجامعة ، او نتيجة

الترشيحهم من قبل احد الأساتذة او احد الطلاب القدماء الذين حضروا الدورات السابقة واصبح لهم علاقة مراسلة مع الاستاذ المذكور .

ويقوم عميد الكلية ( اورئيس الجامعة ) الذي وصلته الدعوة باختيار المرشحين الذين تتوفر فيهم احسن الشروط ، ويعطيهم استمارات الترشيح التي وصلته من الجامعة ليقوم المرشحون بملئها وارسالها الى الجامعة في إيكس آن بروفانس قبل العاشر من حزيران ، وعلى الجامعة اخطار المرشحين قبل اول تموز بقبول ترشيحهم او رفضه في حال عدم حيازتهم على الحد الأدنى العلمي المطلوب توفره لحضور هذه الدورة .

ويخطر المرشحون عادة ، في بطاقة الدعوة نفسها ، بموضوع دورة الجامعة التي سيحضرونها ويطلب منهم اجراء كل الدراسات الممكنة عن الموضوع ليشتركوا في مناقشة كل محاضرة تلقى بعد سماعها .

كما ويطلب من مرشحي كل دولة تنظيم امسية ثقافية عن الدولة التي يمثلونها حيث يطلعون الحضور فيها على مظاهر النشاط الثقافي في بلدهم وعن عاداتهم وتقاليدهم الشعبية وفولكلورهم وصور ومناظر من بلادهم .

وتقوم الجامعة عادة بدفع أجور السفر للطالب ذهاباً واياباً بمبلغ مقطوع يحدد بحسب بعد المرشح عن جنوب فرنسة ( مكان عقد الدورة ) أو قربه منه ، وقد حدد للمرشح السوري مبلغ ( ١٣٥٠ فرنكاً فرنسياً ) أي مايعادل ١٢٠٠ ل س تقريباً هذه السنة على سبيل المثال . ولا يقبض المرشح بدل سفره الا بعد وصوله الى هناك وقضائه الاسبوع الاول من الدورة على الاقل ، ولذا عليه أن يدفع أجرة سفره ذهاباً من جيبه الخاص مع وجوب بقاء مبلغ لديه يكفيه الاسبوع الاول هناك قبل أن يستلم تعويضه .

كما وتتحمل الجامعة بالاضافة الى هذا المبلغ المقطوع نفقات اقامة واطعام الطلاب في المدينة الجامعية المدعوة « Les Gazelles » في مدينة ايكس آن بروفانس طيلة شهر تموز وتتحمل أيضا نفقات الرحلات الثقافية والاطلاعية التي تنظمها الجامعة في هذا الشهر ، بالاضافة لثمن بطاقات الحفلات الموسيقية والتمثيلية التي يدعى الطلاب اليها .

ويتقدم الطالب المرشح فور وصوله مدينة ايكس ، الى مكتب الجامعة حيث يبرز بطاقة دعوته فيقوم المكتب المختص ، بعد التحقق من مطابقة اسم المدعو على لائحة الاسماء الموجودة مسبقاً ، بتسليم الطالب مفتاح الغرفة المخصصة لسكنه مع دفتر قسائم بوجبات الطعام التي سيأكلها في مطعم الجامعة .

ونظراً لانه من المستحيل مناقشة موضوع معين والخروج بنتيجة ايجابية في مجموعة تضم أكثر من ستين شخصاً ، لايتعدى عدد الطلاب المدعوين من جميع الدول هذا الرقم عادة وأما عدد الطلاب من كل دولة فيعين حسب « كوتا » خاصة تختلف باختلاف عدد سكان الدولة وموقعها وقوة علاقاتها الثقافية والسياسية مع فرنسة أو ضعفها . وقد كان عدد الطلاب في دورة تموز ١٩٦٥ ( الدورة الرابعة ) موزعاً مثلاً حسب الجدول التالي :

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

| اسم البلد | طلاب | طالبات | المجموع | اسم البلد | طلاب | طالبات | المجموع |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| مراكش | ٣ | ١ | ٤ | اسبانيا | ٢ | ٢ | ٤ |
| الجزائر | ٤ | – | ٤ | اليونان | ١ | ٤ | ٥ |
| تونس | ٤ | ١ | ٥ | يوغوسلافيا | ٢ | – | ٢ |
| مصر | ١ | ٧ | ٨ | سورية | ٣ | – | ٣ |
| تركيا | ٣ | ١ | ٤ | فرنسة | ٢ | ٤ | ٦ |
| لبنان | ٣ | ٢ | ٥ | | | | |

ويلاحظ القارىء عدم اشتراك احد من دول: ايطاليا ـ البانيا ـ ليبيا ـ مالطا رغم أنها دول متوسطية ، ولدى سؤالي السيد دوبي عن السبب أجاب بأن ايطاليا وليبيا لم ترسلا مندوبين عنهما رغم ارسال بطاقات دعوة اليهما ، وأما البانيا ومالطة فلم ترسل لهما بطاقات دعوة مطلقاً .

## ب ـ المحاضرون :

يختار المحاضرون عادة من مجموع بلدان البحر الابيض المتوسط ايضاً ، وذلك بموجب كتاب يوجهه العميد دوبي اليهم معيناً لهم الموضوع العام الذي يجب أن تدور محاضراتهم في نطاقه ، فيجيب المحاضر خطياً بالقبول او بالرفض ويحدد عنوان محاضرته والتاريخ الذي يفضل أن يلقيها فيه خلال شهر تموز طبعاً ، وتدفع الجامعة للمحاضر طبعاً أجرة سفره ذهاباً واياباً من بلده الى مدينة إيكس آن بروفانس في جنوب فرنسة ، مع شيء من « البحبحة » يكون بمثابة تعويض ـ ولو رمزي ـ عن تحضير المحاضرة والقائها ، وهذا بالاضافة لنفقات الاقامة والطعام في المدينة الجامعية لمدة اسبوع ايضاً .

ويجلس الحضور من طلاب ومدعوين يومياً على شكل طاولة مستديرة في قاعة محاضرات قسم التاريخ في كلية آداب جامعة ايكس ـ مارسيليا. ويقوم المحاضر بالقاء محاضرته ـ بالفرنسية طبعاً ـ قراءة او ارتجالاً . ثم يمنح المحاضر والمستمعون استراحة بسيطة بعد انتهاء المحاضرة قبل أن يعود الجميع الى قاعة المحاضرات لمناقشة المحاضرة وتفاصيلها ، وتكون المناقشة أكثر فائدة من المحاضرة نفسها في اغلب الأحيان .

ويشترط في المحاضرة أن تكون ذات علاقة بصلب الموضوع العام المحدد سلفاً للدورة الجامعية ، وقد كان للموضوع العام لدورة هذه السنة (تموز ١٩٦٥ ) مثلاً هو : « الجامعة ومسؤولياتها في بلاد البحر الابيض المتوسط » ، ودارت المحاضرات كلها حول مواضيع فرعية تتعلق بهذا الموضوع العام وذلك حسب الجدول التالي :



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

| اليوم والتاريخ | اسم المحاضر | جنسيته | وظيفته | عنوان محاضرته |
|---|---|---|---|---|
| الاثنين ٥ تموز | Dupuy | فرنسي | استاذ في جامعة نيس | الجامعة والثقافة |
| الثلاثاء ٦ تموز | Nadal | اسباني | استاذ في جامعة برشلونة | الجامعة الاسبانية |
| الاربعاء ٧ تموز | Guyon | فرنسي | استاذ في جامعة ايكس | الجامعة والاصلاح |
| الخميس ٨ تموز | طالبي | تونسي | استاذ في جامعة تونس | الجامعة والامة |
| الجمعة ٩ تموز | Duby | فرنسي | رئيس جامعة المتوسط الصيفية | الجامعة في القرون الوسطى |
| السبت ١٠ تموز | Déléon | يوغوسلافي | رئيس قسم تعليم الكبار في مركز اليونيسكو في جنيف | الجامعة وتعليم الكبار |
| الاثنين ١٢ تموز | Duverger | فرنسي | استاذ الاقتصاد السياسي في جامعة باريس | الجامعة والعلوم السياسية |
| الجمعة ١٦ تموز | Fabre | فرنسي | عميد جامعة تاناناريف في مدغشقر سابقا | تطور الجامعة في البلاد الناطقة بالفرنسية ( مدغشقر بشكل خاص ) |
| السبت ١٧ تموز | Boulouis | فرنسي | استاذ في كلية الحقوق في جامعة إكس - مرسيليا | الجامعة وتطور المجتمع |
| الاثنين ١٩ تموز | نصر | لبناني | استاذ في الجامعة اللبنانية | الجامعة وازدواجية اللغة |
| الثلاثاء ٢٠ تموز | Tenekid-es | يوناني | استاذ في كلية الحقوق بجامعة اثينا | الجامعة كمركز للتعاون الدولي |
| الخميس ٢٢ تموز | David | فرنسي | مدير معهد العمل في باريس | الجامعة وتثقيف العمال |
| الجمعة ٢٣ تموز | Vsanello | ايطالي | مدرس « علم الاجتماع » في جامعة روما | المدارس والتعليم في ايطاليا |
| السبت ٢٤ تموز | نقد وتقويم الدورة الحالية ومقترحات بشأن الدورة المقبلة ومناقشة ختامية | | | |

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

## ج ـ الضيوف :

وهم من يحضرون المحاضرات والمناقشات بصفة مستمعين فقط بناء على دعوات خطية او شفهية توجه اليهم ولكنهم لايشتركون في المحاضرات نفسها او في مناقشتها ، وقد كان اهم ضيوف هذا العـام الآنسة « واصف » رئيسة قسم الشرق الاوسط في مكتبة العلوم السياسية في باريس ، والآنسة المذكورة هي ابنة الزعيم الوطني المصري ويصا واصف عضو مجلس الشيوخ المصري سابقاً رفيق سعد زغلول في نضاله .

## ٤ ـ دورة تموز ١٩٦٥ :

بالاضافة الى المحاضرات المذكورة سابقاً تضمنت الدورة السابقة لجامعة المتوسط الصيفية (تموز ٦٥) النشاطات التالية :

### آ ـ حلقات البحث :

تم توزيع الطلاب الحضور على عدة لجان ، وحدد لكل لجنة موضوع لمناقشته وتقديم دراسة مستفيضة عنه ، وكانت أهم اللجان المذكورة هي التي درست المواضيع التالية :

— العلاقة بين الاستاذ والطالب الجامعي .
— النشاط الطلابي الثقافي .
— الفتاة في الجامعة .

### ب ـ الحفلات الفنية :

دعي الطلاب لحضور الحفلات المسرحية التالية :

— مسرحية L'Illusion Comique لتأليف Corneille ، ضمن مهرجان مدينة آفينيون .

— مسرحية Les Troyennes من تأليف أوريبيد وإعداد جـان بول سارتر والاخراج المخرج اليوناني الشهيرميكائيل كاكويانيس، ضمن مهرجان مدينة أفينيون .

— مسرحية Bérénice من تأليف Racine ضمن مهرجان مدينة آرل .

— أوبرا «حلاق اشبيلية» تأليف روسيني، ضمن مهرجان مدينة ايكس آن بروفانس .

— فيلم « طفولة ماكسيم جوركي » اخراج مارك دانسكوي .

### ج ـ الزيارات :

تمت في هذه الدورة زيارة بحرية لميناء مرسيليا، وزيارة لمصانع ومطـار شركة الطيران الفرنسية «Sud Aviation» وحفـلة استقبال في غرفة تجارة مرسيليا وحفلة غداء في مطار مرسيليا الدولي Marignane ، وحفلة عشاء في منزل رئيس الجامعة السيد جورج دوبي .

كما وتمت في ايام الآحاد زيارات لمدن ومسابح ( بلاجات ) المنطقة الجنوبية من فرنسة وخاصة المناطق التالية :

— منطقة الـ Camargue
— مدينة آرل
— مدينة مرسيليا
— مدينة آفينيون
— جسر Gard
— بلاج سانت ماري
— بلاج ليك
— بلاج كاسي .

## د — الأمسيات الثقافية :

هذا ونظمت ثلاث امسيات ثقافية من قبل الطـــلاب بمعدل أمسية كل اسبوع وذلك على الشكل التالي :

— الأمسية البلقانية واشترك بها ممثلو تركيا وقبرص واليونان ويوغوسلافيا .

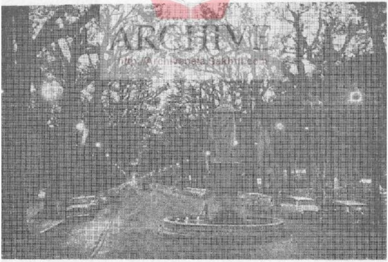
— الأمسية العربية واشترك بها ممثلو الدول العربية كلها .

— الأمسية الدولية واشترك بها ممثلو بقية الدول المتوسطية .

وحوت كل أمسية إحصائيات عن النشـــاط الثقافي في البلاد ومنشورات عن ذلك وصوراً عن مناظر البلد وخارطة سياحية لهـــا ومعزوفاتها الموسيقية وألبستها الوطنية ومأكولاتها التقليدية وغير ذلك ...

وكانت أنجح هذه الامسيات الامسية العربية بلا فخر ، حيث ضمت طاولة منشورات واحصاءات عن النشاطات الثقافية في البلاد العربية ، وطاولة أخرى منشورات سياحية عن مجموع هذه الدول ، وحوت طاولة ثالثة حلويات شرقيـــة اصطحبها المندوبون العرب معهم وأطعمة شرقية حضرناها هنـاك بمعرفة سيدة سورية دمشقية ومتزوجة ومقيمة في مدينة ايكس منذ حوالي عشرين عاماً ، وقد تكرمت السيدة نفسها وأعارتنـــا بعض العباءات والعقالات والألبسة المزركشة التي نحتفظ بها لمثل هذه الامسيات .

كما وتم عرض ثلاثة افلام سياحية قصيرة ،



صورة الشارع الرئيسي «شارع ميرابو» في مدينة «ايكس» مقر جامعة المتوسط الصيفية

احدها عن المغرب والثاني عن مصر والثالث عن لبنان ، وذلك على انغام اسطوانات وتسجيلات عربية مختارة .

ولكن وحدة العرب التي ظهرت جلية في الأمسيات الثقافية لم تظهر تماما في المناقشات التي كانت تعقب كل محاضرة ، فقد كان المحاضران العربيان « ملكيين اكثر من الملك » كما يقوله المثل الفرنسي ، فلقد أصر المحاضر اللبناني الاستاذ نصر على فائدة «ازدواجية اللغة Bilinguisme » المطبقة في لبنان بقوله ان الازدواجية كانت دوماً عاملاً من عوامل سعادة المواطن اللبناني في القديم والحديث ، واصر على وجوب تطبيق هذه الازدواجية وذلك بتعليم لغتين على نفس المستوى وبنفس الوقت للطفل منذ دار الحضانة وحتى شبابه . وعند المناقشة عقبت على كلامه قائلاً :

— انى مع الأستاذ المحاضر في ان معرفة لغة اجنبية على الاقل واجادتها أمر حسن يفتح امام الطالب آفاقاً جديدة ولكني ضد تعليم لغتين على نفس المستوى للطفل ، بل يجب اولا تعليمه لغته الوطنية ، لغـــة أبيه واجداده ، ثم يبدأ بتعليمه اللغة الأجنبية بعد السنة الابتدائية الثالثة او الرابعة على الأقل ، وذلك حين يكون الصغير قد عرف لغته الأصلية وتدرب عليها ، وهكذا تصبح لغته الوطنية اللغة التي يكون بها ثقافته الاولى وآراءه الاساسية ، وتصبح اللغــة الاجنبية لغة تساعده في الابحاث العلمية العالية وما شابهها .

ثم سألت المحاضر فيما اذا كان لايرى اي خطر من المدارس الأجنبية الخاصة في لبنان والتي حدد عددها متفاخراً بأنها تزيد على ألف مدرسة ، فأجاب بأنه لايرى اي خطر في ذلك ، فقلت :

— الستم ترون اي خطر على عروبة لبنان في وجود اكثر من الف مدرسة بعضها يدرس بالانكليزية وبعضها بالفرنسية وبعضها بالايطالية وبعضها بالالمانية ... الخ ؟ الستم ترون اي خطر من حفظ الطالب اللبناني نثر فولتير وشعر لامارتين اكثر من نثر الجاحظ وشعر المتنبي ؟ فتهرب من الجواب قائلا :

— انني استاذ جامعة ، وابحث في الثقافة لا في السياسة .

فقلت :

— لقد تلقيت جواب سؤالي بكامله منكم ولكني اريد ان اسأل البروفيسور دوبي سؤالاً صلته بالموضوع تامه تقريباً . ولـــما اشار البروفيسور دوبي برأسه علامة الموافقة قلت:

— ان في لبنان اكثر من مليون مواطن بقليل ، ولديه من المدارس الاجنبية الخاصة اكثر من الألف بقليل أيضاً ، أي أن قسمة هذه المـــدارس هي واحدة لكل الف من السكان تقريباً فهل تقبل أية دولة مستقلة ذات سيادة ، كفرنسة مثلا ، وجود نفس هذه النسبة في اراضيها اي خمسين الف مدرسة اجنبية تعـــلم باللغات الانكليزية والالمانية والروسية والايطالية ، وتتلقى تمويلها وبرامجها من الحكومات المذكورة ؟

فدارى البرفيسور الاستـاذ نصر في جوابه ما أمكن قائلاً :

ARCHIVE http://archivebeta.Sakhrit.com

— اني اعترف بأن هذا أمر خطير ولكن الوضع في لبنان مختلف كما اعتقد .

وكان موقف الاستاذ طالبي التونسي في محاضراته تشوبه نفس اللوثة ، اذ اعترف بأن الحكومة التونسية تفضل « ان تبقى عربة جامعتها معلقة بقطار الثقافة الفرنسي بدلاً من تعليقها بقطار الجامعات العربية المشرقية في القاهرة ودمشق وبغداد » ، وقال انه من الافضل « شرب الخمر الفرنسي بقدح فرنسي لا قدح عربي » ويعني بذلك دراسة العلوم الغربية باللغة الغربية نفسها لا باللغة الوطنية الدولة التي توجد فيها الجامعة . ولقد دافع كل الدفاع عن التعليم الجامعي باللغة الفرنسية كما هو ممارس في الجامعات المغربية وفي جامعة القديس يوسف في لبنان وفضله على التعليم باللغة العربية كما هو الحال في الجامعات المشرقية .

وكان النقاش بيننا طويلاً حول اعتقادي بأفضلية التعليم في جميع مراحله ، وخاصة في المرحلتين الابتدائية والاعدادية ، باللغة الوطنية ، وهذا لا يمنع طبعاً من اجادة الطالب الجامعي للغة اجنبية او لغتين وذلك ليستعملهما في بحوثه العلمية الأجنبية.

ومن هنا نرى انه وان كانت الجامعة بعيدة مبدئياً عن السياسة ، فان المناقشات الثقافية كانت تقود لمناقشات سياسية جانبية ومغلفة بكثير من المداراة والمواربة في أغلب الاحيان ، ولذا فمن المهم ان يكون المرشح دوماً غزير الثقافة ، قوي الحجة ، ملماً بقضايا بلاده ومشاكلها ، ومطلعاً على احوال بقية دول المتوسط بكاملها .

وقد حدث اثناء القاء البروفيسور اليوناني « تنكيدس » محاضرته يوم ٢٠ تموز عن « الجامعة كمركز للتعاون الدولي » ان اشاد بالعلاقات الدولية الوثيقة التي كانت قائمة منذ اقدم العصور بين شعب في شرق البحر الابيض المتوسط هو اسرائيل ( كذا ) وشعب في غرب هذا البحر هو الشعب الاسباني. وأثناء مناقشة المحاضرة طلبت من المحاضر ان يحدد الفترة التي قام فيها التعاون الاسباني – الاسرائيلي تاريخيا فحددها بالقرون الوسطى ، فسألته حينذاك فيما اذا كانت هناك دولة او شعب باسم اسرائيل في تلك الفترة فأفحم ، ثم تلعثم بالجواب قبل ان يتملص قائلا :

— انني اعني باسرائيل اليهود الذين كانوا يأتون من الشرق الى اسبانيا ليقوموا بأعمال النقل والترجمة بين العربية واللاتينية . فعلقت على جوابه قائلا :

— ولكن هؤلاء اليهود كانوا رعايا دولة عربية اسلامية ، وكانوا يأتون الى اسبانيا بصفتهم مواطنين لهذه الدولة لا بصفتهم اسرائيليين او يهوداً. فاضطر المحاضر الموافقة على ماقلته بقوله :

— اني لااقصد الا ضرب مثل عن العلاقات الوثيقة التي كانت تربط الشرق بالغرب منذ اقدم العصور . فقلت عندئذ :

— اذن في هذه الحالة كان الواجب ذكر العلاقات الوثيقة التي كانت تشد الفينيقيين بسكان غرب البحر المتوسط مثلا ، فاعترف بذلك قائلاً:

— ولكني لم اقل العكس ياسيدي .

وختاماً لايفوتني أن أقول بصفتي أول سوري حضر محاضرات هذه الجامعة واصبح طالباً قديماً فيها : إنني مستعد لاعطاء جميع المعلومات الضرورية شخصياً أو مراسلة لمن يرغب بمزيد من المعلومات عن هذه المؤسسة الثقافية المهمة التي تسمى : « جامعة البحر الابيض المتوسط » .

## غابة الحجارة

### مجموعة شعر لرفيق الخوري

منشورات دار الطليعة — بيروت

### عرض ونقد عبد الكريم دندي

الشاعر الخوري في مجموعته الثانية « غابة الحجارة » مثل جديد في عطاء الشعر ، ولهذا السبب وحده لا لغيره ماترددت في التجوال عبر غابته، فأنا جد ظامئ لمثل هذه المجموعة الرصينة مذ خمد الناي والريح في بيروت وبعد مادخل اليأس الى نفسي وعشش حين راح الحالمون بالدخول الى حرم الشعر يتسابقون الى طرح مجموعاتهم الشعرية في خداع رهيب يدفعهم العجز الفكري الى التسلق على اكتاف النقاد وأكواخ الشعراء ليظهروا .. ويظهروا في ساحات الأدب ، ومجموعة « غابة الحجارة» دفتر شعر انيق شدني اليه غرابة العنوان ودلالته القوية على الأزمة النفسية التي يعيشها الخوري في بيروت ، المدينة التي يهرب منها واليها كما يقول ، وقد شيد شعره على الهندسة الشعرية التجديدية ذات الايقاع المتتالي، وهي محاولة جريئة للغاية ، لما تحمله من مضمون حي لمانالة وجودية مرهقة بلا تزييف وبلا وهم، ولقد وسمت الشاعر بالجرأة حين دفعها الى السوق دون زمن يصاحبها وأكبرت بعد قراءتها فيه الوعي الكامل والانفتاح التام على مشكلات عصره وزمانه بما يلور عطاءه السمح وشده الى ثواني حاضرنا .

والى المجموعة سهرت الليل بطوله احاول ادراك أبعادها وتحصيل مضمونها الحيوي، فما وجدت غير حياتي وتجربتي مع الفارق البسيط النوع بما تبدل الريح والدار ، ولقد وجدت حياة تجلى في صورته السامة وادركت أن الشاعر الخوري شاعر قضية كبرى، قضية الملايين الظامئة للنور وللمجد والحياة الأفضل ، وجدته يدعو لها في فرح طفولي سنوات من عمره صلب ايامها على صليب القضية دون خوف ، وثوان من زمانه هدرها في صورة عارمة على الابتذال الفكري والسياسي وعلى افنان السحر والأراجيف رافضاً كل جذور الأمس للموسة ، مقدماً على البتر النهائي في سبيل الجذع الأسلم الواهب :

**أعطني فأسي**

**فهذا الشجر اليابس مازال بقلبي**

**وجليد الليل دربي**

من أنا .. وحدي
اذا لم يحبل الليل بشعبي

وعي فسيح لأبعاد القضية ، وتعمد مدرك في عنايها ، ثم إدراك سليم على وجود خير في الشعب ، مؤمن كل الايمان بأصالة هذه الأمة صاعداً على درب التجديد ، مؤمناً بالبعث القوي منطلقاً الى هذا التجديد ويتحمل عن طيب عذاب كل هذا الايمان والوعي :

من آخر الليل ، أنا أتيت
في موج زنزانة
معي بذور الحب ، كم غنيت
للأرض كم ناديت
خيولكم وهي تخب في دمي
أعطيتها من حلمي
حوافراً تقطع ارض الموت والهوان
وما تزال جمرتي تقاوم
تشرب من عروقي القصيرة
تورق زهراً .. سنبلاً .. بنادقا
ترف في صباحكم بيادقا

بكل انفتاح على الأمل الكبير ، يقرر مصيره البطولي في لحظة خشوع ورجولة ويحمل الصليب دون تردد على طريق البعث من أجل هذه الملايين الجائعة والعطشى الى النبع الحالم ، المغمور بالدفء والسعادة فلا يعود الذئب في الديار عواء ولا لليل محطة وحتى السموم ترحل في انكسار ، فهو يحترق بعد هذا الايمان حتى ينير السبيل للآخرين ، ليكون ورفاقه جسراً يعبره الشرق الى الشرق الجديد :

قلبي مع الأكف والعيون
يخفق للأزهار
تورق في شواطىء النهار
تجبل بالنار والاعصار
يرمي عن التنين والتتار
قبعة الفولاذ والقناع

يبدأ عن همومه الذاتية يجترح معجزة الكشف عن الآخرين ، التافهين المهمشين في الأمة من جيله . يبدأ بعد نشيده الثوري ، متحرراً من كل القيود ، منتصراً على الدفء واللذة والكسل المتأصل في جيل المقاهي والكهوف الرمادية . ويعاود الشاعر كشف قضية أمته ، كما عاودها سيزيف ذات مرة ، ليحمل بعنف وجدية ضاربة ، واندفاع منظم دؤوب ، طويل الأمد ، مديـــد الخطى لا مرحلية في سيره ، ولا محطات استراحة كسلى .

انه ينفتح على حياة جيل بكامله وعلى معظم قطاعاته الاجتماعية ، وفي انفتاحه هذا حرارة التعبير تحرق أعصاب القارىء وتمده باقناع مذهل الى المشاركة الوجدانية والحيوية احياناً مع قضيـــة الشاعر ، وتدفع الانسان الى السوق الثورية ليشتري مصيره من يد السياسي والتاجر المحترف .

ومرة اخرى اقول ان ديوان «غابة الحجارة» فتح جديد في عالم الشعر رغم الهنات التعبيرية التي ضحى بها الشاعر في سبيل المضمون الوجودي الذي قدمه لنا ، والمضمون الوجودي غني بأبعاد أمة تسعى الى فجرها بشوق ونضال وعذاب جيل كامل من شبابها ، لم يهتد أغلبه الى طريقه بعد ، ضاع بين الكهف والنهد والحمام .

ان توفيق خوري في «غابة الحجارة» أعاد الثقة الى النفوس المكافحة من جيله بحيوية وخصب الشعب والشعر معاً ، وقد تحمل عذابات مرهقة في تمثل عذابات العمر وقضية الشعب وصلبها شموعاً على دروب الآخرين

## الفنان

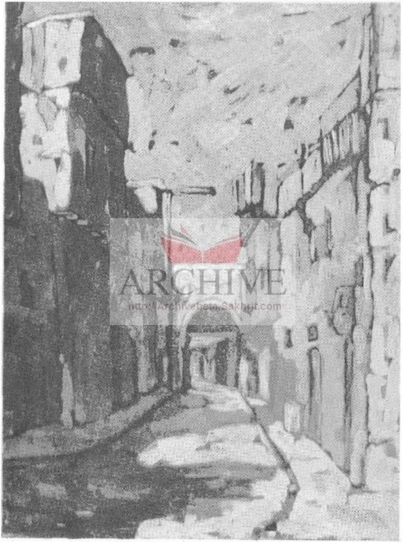
— جورج جنورة
— مواليد اللاذقية عام ١٩٣٠
— مارس تجربة الرسم لوحده ومع الطبيعة منذ عام ١٩٦٢
— انتسب الى مركزي الفنون التشكيلية ( رسم ) والتطبيقية ( فن الاعلان ) .

## اللوحة

منظر من حارات دمشق القديمة . يبدو فيها الفنان وقد اتخذ لوناً عاماً في اللوحة من لون البيئة العربية الدافىء .. وقدمها بلمسات تأثيرية متأثراً بالمدرسة الانطباعية .

وهذا مايميز اسلوبه ، وهو لايزال في تجاربه الأولى وقد امتاز هذا الفنان بتعلقه بالمناظر الخلوية الى حد كبير .. وحبه للون المشرق الصريح الذي يؤكد الروح الشرقية المتفائلة عنده. والملاحظ ان الانسجام بالالوان في هذه اللوحة واضح تماماً بمعنى ان الفصيلة اللونية التي اختارها لهذه اللوحة هي اللون البني ومشتقاته .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جورج جنورة　　　منظر من حاراتنا دمشق القديمة　　　مجلة المعرفة

# آراء في العربيـــة

## تاليف عامر رشيد السامرائي

في ١٥٦ صفحة من القطع المتوسط مطبعة النهضة ببغداد سنة ١٩٦٥

### تحليل وتعريف الدكتور زكي المحاسني

كان أستاذنا الدكتور طه حسين ـ مدّ الله بعمره ـ كلما سئل عن اللغة والنحو وما يناط بهما من علوم اللسان العربي وفقهه يقول : لم يبق في الجيل الجديد من ينهض بهذه القيم وإنّ الشبان قد انصرفوا فيما شدَوا من العربية الى الهيّن السهل ، الذي لا يعنّت أذهانهم ولا يُقَرِّحُ سَهَرُ الدجى فيه أجفانهم.

وحين قال أوّلَ خَطْرَةٍ هذا الرأي ، هَمّ بالردّ عليه جماعة من نقّاد الأدب ، والشبان ، لكنهم لبثوا أن أغمد بعضهم سلاحه ، وردّ الآخرون في سبيل الدفاع عن رأي عميد أدب العصر .

وكنتُ أحسب أن هذه الظاهرة قد نَمَتْ بضفاف النيل ، وإذا بي أجدها في أكثر أمصار العرب في العصر الحديث. وإلى ذلك أشار الدكتور أحمد عبد الستار الجواري الذي كتب مقدمة الكتاب النفيس الذي سماه مؤلفه الكاتب الاستاذ عامر رشيد السامرائي « آراء في العَرَبيـة » ، وساءه أن يكون المتحذلقون من النَّشئ قد أهملوا علوم العربية ، وتعلّقوا بالقصّة وباجترار الأفكار الأدبيـة الحديثة الوافدة إلى دنيا العُروبة .

ولقد كنتُ أقرأ آثاراً بَيِّنات للأستاذ عامر رشيد السامرائي ولما صدر كتابه هذا ، كنتُ كمن يتوقع نفحة ريا من صوب الفكر العربي المعاصر في قضية اللغة والحفاوة بالضّاد . فان المؤلفات الحديثة في هذا الورد قليلة .ولولا ماتدعو إليه الدراسات الجامعية فيها والمجامع اللغوية ، لكانت أقل شأناً وأكثر نَدْرة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وإنّ تاريخ اللغات الحيّة يشهد بأن اعتمادها الدائم يقوم على مايؤدى في سبيلها من الدراسات المتوالية ، فكانت هذه الدراسة روحاً لها وريحانا .

بدأها المؤلف النابغ بسؤال طريف:

— ما اللغة ؟

وفي هذا البحث، تناول كلّ تعريف مقبول في تحديد معنى اللغة وغايتها مما جاء به المعاصرون والسابقون وأهل الدراسات اللسانية في الغرب . وسبيل الباحث في تعريف اللغة يذكّرني بسبيله في الشعر ، فكما اختلف الأدباء في تعريف الشعر ، كذلك فان آراء اللغويين لم تتواقع على حدود محتومة ، وخرج تعريف اللغة من حماه القديم، حيث كان يقال بتعريفها في المعاجم: «اللغة أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم» الى تعريف غربيّ حديث للعالم مالينوسكي: «اللغة حلقة في سلسلة النشاط الانساني المنظم ، انها جزء من السلوك الانساني ، انها ضرب من العمل وليست أداة عاكسة للفكر . »

وهنا يأخذ المؤلف في محاورة هذا العالم ومناقشة تعريفه للغة . ثم يخلص الى تبسيط الرأي في شأن اللغة ، في أنها وسيلة للفهم والتفاهم والتفكير والابداع فيه .

وفي البحث الثاني : اللغة والقوميّة يمضي المؤلف في يُسْرٍ فيربط بينهما برباط لاانفصام له ، لدى كل أمة ، اذ قِوامُ القومية اللغة .

وقد حرّك حماستي حين وجدتُه يطرح الفكرة التي يقول أصحابها بأن اللغة وسيلة لا غاية . واذا أخذنا بمذهب هؤلاء المتفلسفة ، كانت اللغة لباساً يُنْضى فيطّرح ويَبْلى ، ويُلبَس الجديدُ بديلاً عنه . ولو كان ذلك صحيحاً لقوّض الدهرُ قِبابَ المجامع العلمية ، ولما قامت في بُهْرَةِ الحضارة الغَرْبية بباريس « الأكاديميّةُ الفرنسية » التي ذَكَرَتْ في نصوص عَهْدِها منذ أقامها في التاريخ الكاردينال « ريشيليو » مؤسس المجمع : ( انّ اللغة غايةُ الأمة ، وليست وسيلة للتعبير فحسب ) . وليس ينكر مفكر بأن اللغة تكون وسيلةً للفهم والتعبير ، لكنّ هذه الوسيلة نفسَها هي غاية الغايات في قِوام القوميّات .

وقد ردّ المؤلف المتفوّق أقنع رد فحمى اللغة من تلك المزالق التي يريد بها أعداؤها زجّها فيها، لتكون وسيلة فحسب.

ومتى كانت وسيلة بطل اتصالها الوثيق بالقومية، فلا قيام اذن للقومية الا بالصلة الوثيقة باللغة التي هي غاية القومية وحارسها الأمين.

وجال الأستاذ السامرّائي كأسد هصور، جولة حق، فدحض ما يرمي اليه الشعوبيون في محاربة اللغة والقومية العربية، وما كان في ماضي العهد العثماني والاستعماري من عداء للغة بنية اضعاف القومية والأمة.

وفي كلامه على اللغة والمجتمع، لم يجد كشأنه في كل بحث من هذا الكتاب، فضلاً لسواه إلا ذكره وأفاد منه، وان للدكتورين علي عبد الواحد وافي ومحمود السعران كتابين في اللغة والمجتمع. وكنت وأنا بمصر حين آنس بلقاء الدكتور علي عبد الواحد ينقلب مجلسنا الى ندوة أدبية ولغوية، وهو استاذ كان من بناة الجامعة المصرية، فناقش المؤلف مذهب هذين العالميّن في شأن اللغة والمجتمع، وما المجتمع الا ابن اللغة، وربيبها في كل جيل وزمن، حتى عدّ علماء الاجتماع اللغة أقوى الروابط الاجتماعية، فحياة كل كلمة تدل على حياة المجتمع الذي تكلم بها، وإننا حين نفتح معجماً من معجماتنا كالقاموس للفيروز أبادي أو الصحاح للجوهري فتقع العين على كلمة من كلماتها، نكاد لا نصدق أن وراء هذه الكلمة ألوفاً مؤلفة من البشر كانت تعبّر عن خواطرهم وكانت صدى لأحزانهم، ومجلى لمباهجهم. وإن لكل كلمة حياة كالأفراد ولها تطوّر يضفي عليها مباهجه الأبدية.

وتحدّث المؤلف البارع عن تطوّر اللغة فعدّها ظاهرة اجتماعية تتطور مع المجتمع وتخضع لمؤثراته وتتفاعل معه.

وبيّن أثر الأدب والشعر والأقلام والأفكار في تطوّر اللغة، ونقلها من عهد الى عهد، وأخضع تطوّرها الى المؤثرات الاجتماعية والتاريخية، ثم شاقه أن يخرج من هذا البحث «الأكاديمي» الى صميم المطلوب من المؤلف اللغوي الذي

يريد ليقرر مكانة اللغة العربية وقيمتها بين اللغات البشرية فتكلم عن الفصائل اللغوية الهندية والأوروبية والسامية والعربية في شمال الجزيرة وجنوبيّها، ومن منطلق اللغة الأول في أقدم عهود الجاهلية. وقد أورد نصوصاً مذهبية في اللغة للأستاذ عباس محمود العقاد تتعلق بالابجدية العربية ومعارضتها بالأبجديات القديمة.

وفي الشطر الثاني من كتابه القيّم تكلم عن اللغة العربية في محاسنها وعيوبها في بحوث تجرّ الدارس الى التعمق في شؤونها، فلا يشفيه الا الرجوع الى مثل «المُزْهِر» «للسيوطي» الذي جمع فأوعى من هذه البحوث. غير أن المؤلف يخلع على صفحاته روح الحداثة والمدرسة الجديدة. وحين يقابل بين العربيّة واللغات الغربيّة الحيّة المتطورة يمارس بعض النقد للغة العرب وتطوُّرها وأكثر آرائه في جانب العربية لا عليها، فهو يُشفق من أيّة لمزةٍ تُصيب اللغة في عزّتها المقدسة.

ويختم كتابه بالكلام على المشاكل المعاصرة التي قامت في السنين الاخيرة حول قواعد اللغة العربية وتبسيطها وفي تيسير الاعراب والاعجام، وتنتهي بحوثه الرائعة المجمعيّة والمدرسية في معضلة الخط العربي وتيسير الكتابة وتطوّر الحروف في الشكل والأداء والاختصار.

وقد غادرت كتابه، وأنا أقول: لقد أخرج المؤلف الاديب اللغوي للناس كتاباً يقف امام حصنها مدافعاً عنها، تلقاء المغيرين، وكانت وقفته الأخيرة في اعقاب كتابه بوجه العاميّة ودُعاتها وسيلةَ اعتزاز بعبقرية العربية، بحمده عليها كل ناطق بالضاد.

وكانت مصادر كتابه مستوفيةً مراجعها في الكتب القديمة والحديثة، في صدر بحثه الجليل، وقد شاق المؤلف — وكان بذلك خيّرا ومـاهرا — أن يورد آراء جلّةٍ من علماء اللغة المعاصرين وسدنة العربية والقومية كالامير مصطفى الشهابي والدكتور صبحي الصالح والاستاذ محمد المبارك والدكتور علي عبد الواحد وافي وسواهم كثير من سدَنةِ الهيكل الأقدس للعروبية في القرن العشرين.



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يقدمها
غازي
الخالدي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تميز الشهر الماضي بنشاط فني كبير لم يسبق لدمشق أن رأت مثله من قبل ..

خمسة معارض فنية تقام في اوقات متقاربة ، هذا يؤكد ان بوادر نهضة فنية حقيقية قد بدأت تلملم ابعادها في بلادنا ، وان الفنان التشكيلي بدأ يخرج من عزلته ويمارس التجربة بشكل جدي ومستمر ..

والحقيقة ان المشكلة كانت عند بعض فنانينا انهم لايعيشون تجاربهم بصدق ، ذلك لأنهم لاينتجون بشكل مستمر ، ويعتمدون على المناسبات ليرسموا من اجلها .. كمعرضي الخريف والربيع ..

ومن الطبيعي ان الانتاج المستمر يولد احساساً بالمسؤولية ، والاحساس بالمسؤولية يعتمد على الجدية والصدق ، وهذا هو اساس الفن الاصيل .

اما النتائج التي تقدم الينا في هذه المعارض فقد لاتصل كلها الى مرحلة التكامل ، إلا أنها جادة في الوصول الى هذه المرحلة ..

ومن المعروف ان المعارض الفردية هي التي تعكس ابعاد الفنان كلها بصورة واضحة ، وتقدم تجربته وفلسفته وآراءه ، وتحدد بالضبط الى اين وصل .. وكيف ؟

من هذه الناحية نعطي المعارض الفردية الاهمية الاولى .. فالفنان يعرض انتاجه من حين لآخر ليعبر عن المرحلة التي هو فيها « . يدل عليه فنيا وتاريخيا » ، وقد يستغرق اعداد هذا العرض

بالخاص وقتا ليس بالقصير قد يصل الى سنة او سنتين .

فكيف اذا رأينا مجموعة معارض فردية تقدم الينا كباقة عبقة من كل روض زهرة .. ، زهرة ناضجة فواحة بالعطر الندي الذي ينفذ الى اعماق النفس الانسانية يهز فيها الاحساس بالجمال والانسان .. والحياة .

وكلما قدم الفنان معرضاً فردياً جديداً كلما دلل على عمل مستمر ، وتطور دائم ، وايمان حقيقي ، واصرار اكيد على السير قدماً الى التجربة الاكثر احساساً ، والى الاحساس الاكثر صدقاً .

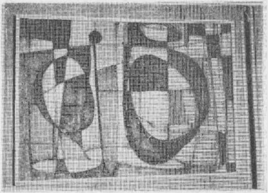
## معرض مدرسة سرقسطة

مجموعة من الشبان الاسبان تجمعوا في مدينة سرقسطة في اسبانيا ، لهم اراء متشابهة والتقنية تكاد تكون واحدة . والجو العام الذي تعيش فيه لوحاتهم هو الجو المأساوي الغامض ، الذي يعكس فلسفة تشاؤمية ظهرت في الفن التشكيلي في اوروبا بعد الحرب . اذ ان اللون الأول في جميع اللوحات هو الاسود !

الاحساس الاول الذي تمنحه مجموعة اعمال الفنانين الستة : تيواسه نيبو ، اوتهلو شويكا ، خوليا دورادو ، دانييل ساهون ، ريكاردو سانتا ماريا ، فوان خوسه فه را : هو الشعور بالوحدة ، والغوص في اعماق النفس الانسانية ومحاولة اثارتها من مناطق الحزن والالم والعذاب ..

فاللون العام في حدود الاسود والرمادي والازرق ، والمواضيع لاتخرج عن كونها بقعاً لونية ومساحات قاتمة ، وعلاقات تشكيلية تجريدية كلها او معظمها تحمل الحس المأساوي الحزين .

ومن الناحية التقنية ، نجد اكثر من خامة ،



لوحة من الفن الاسباني المعاصر

ريكاردو سانتا ماريا

واكثر من اسلوب في فن الملصقات من خيط وخيش، ورمل، وحديد، وخشب..

ومن المعروف ان فن الملصقات هو اكثر الفنون تعبيراً عن المأساة لانها على الاقل تحمل اليك بصدق وصراحة وبجرأة نفايات الانسان وتصفها امام عينك لتكشف لك من انت امام بقاياك التي كانت الى يوم قريب قطعاً براقة جميلة تعيش حولك في دفء وحنـــان .. واليوم — بعد الحرب — تنقلب الى الوان قاتمة، محروقة، مهملة، تعيش في وحدة قاتلة وقد انفصلت نهائياً عنك وعن جوك الدافيء السعيد.

من هذه الزاوية يسمون انفسهم بالواقعيين، رغم التجريد والدادائيزم المطلق في هذه اللوحات ويقول «اليساندرو سيريسي» في مقدمة دليل المعرض:

«هذه الواقعية الجديدة في اسلوب مدرسة سرقسطة تعاكس تماماً مغـــالاة الفن التعبيري الالماني. فالواقعية هذه ذات طابع اسباني صرف وتشبه رد الفعل عنـــد أكثر الفنانين اصالة في الولايات المتحدة الاميركية الذين هاجوا الطريقة السائدة في حياة الشعوب.»

ولكن المشكلة الحقيقية في هـــذا الاسلوب برأيي هو الابتعاد كلياً عن الطابع الاسباني او المحلي، رغم انهم يحاولون التأكيد على ان روح اسبانيا، وروح الارض، وروح البيئة المحلية تطل من اعمالهم. ان الهوية البيئية بدأت تضيع ملامحها في اسبانيا.. على يد مدرسة سرقسطة!

## معرض الفنان نذير نبعة
## (صالة الفن الحديث):

جاء معرض نذير مفاجأة لكثير من الفنانين والنقاد، فقد استطاع نذير بفترة وجيزة بعد تخرجه من كلية الفنون الجميلة في القاهرة ان ينتج اعمالاً جديدة لها طابعها، وشخصيتها، وتحمل قلقه وخبراته، وتؤكد هضمه لجميع الدراسات والتعاليم التي اخذها عن الكلية.

ان معرض نذير يطرح أكثر من مشكلة..

اولاً: النـــاحية الفكرية: من المؤكد ان التسميات التي جاءت في معرض نـــذير لم تكن اعتباطيـــة، بمعنى ان الفكر سبق العمل الفني،



الطفل التائه — لنذير نبعه

وهذا يوضح جانباً من شخصية الفنان في طريقة رؤيته للانسان والحياة .

وقد حرص على هذا البلد الفلسفي في أكثر لوحاته ، وضمنها رأيه الخاص ، فــقد لجأ الى الاسطورة واخذ من هذه الاسطورة الرمز ، وبعد ذلك قال رأيه في هذه الاسطورة .

تحدث عن التمرد في « صرخة سيزيف » وعن الجنس في « انليل » ، وعن الجوع في « الطلسم » وعن موقف الانسان من عصر الآلة في لوحة « اسرافيل »

المهم في كل هذا ان نذيراً لم يكتف بعرض الاسطورة كما هي وانما قال رأيه فيها ، واضطر الى ان يغير في سير احداثها من اجل ان يقول مايريد .

ثانياً : الناحية التشكيلية : ان نذيراً يجمع في اسلوبه بين الدرامية والرومانسية ، وهذان الأمران ترجمها الى اشكال وصور وعلاقات والوان وخطوط .

اما بالنسبة للدراما ، او المفهوم المــأساوي الحزين فقد ترجم هذا الاحساس بالاشكال المعمارية المبنية بناء صلباً متماسكا فيه حلول صريحة توحي بالحزن الصامت .

بمعنى أن ( الفورم ) أي الشكل جاء مطابقاً ومعبراً عن الاحساس الدرامي المقصود ،ومكملا له ، فكما نجد في المأساة : الجدية والصلابة والصمت الطويل ، والعنف المختزن ، والالم المخنوق ، نجد كل هذا في القيم البنائية المنحوتة من صخر تبدو من تحليلاته للأشكال ، وخاصة في لوحته « المائدة المقدسة» ولوحته « ابو ... »ولوحته « صرخة سيزيف » .

واللون كذلك في عمقه الازرق والرمادي جاء ليؤكد هذا الحزن العميق الذي جاء نتيجة القلق الحضاري المستمر .: والخوف من المجهول والاحساس بمأساة الانســـــان وهو يدمر نفسه بنفس الآلة التي اخترعها هو نفسه .

أما بالنسبة للرومانسية فقد عبر عنهــا ببعض الوحدات النباتة الجبلة في بعض الاعمال كلوحته ( انتظار ) ، وكذلك في لوحته «الطفل والزيز» نرى كيف حرك الخط امام الطفل المستلقي بكل وزنه على الارض ببساطة وعفوية ، تتماشى مع بساطة وعفوية الطفولة .

وفي لوحاته مثل «الخصب» وتحريكه لاغصان الاشجار بلون روماسي شاعري جميل . اذن فقد أخذ نذير الحياة من جانبيها ، الجانب الجاد الحزين ، والجانب المشرق المتفـائل الشاعري ، وقال رأيه في كلا الجانبين في الحلول التشكيلية التي قدمها .

أما ماذا نأخذ على الفنان من الناحية التشكيلية:

● بالنسبة لمعالجته الاشكال لجأ في بعض لوحاته الى تحليل السطح على اساس السطح نفسه دون التأمل اكثر في الكتلة الموجودة وراء هذا السطح ، وكرر هذا في أكثر من لوحة ، حتى جاءت هذه الحلول هشة بعض الشيء ، وقريبة

الى احساس الورق منها الى الاحساس بالكتلة . مثل معالجة الثوب الذي يرتديه الطفل في لوحته « الطفل والزير » .

● بالنسبة لتعدد الاساليب والمحاولات في تحليل بعض الاشكال والالوان ، فقدظهرت عنده أكثر من تجربة في هذا المجال ، وهذا ولا شك أمر سيتحول ويتبلور في تجارب قادمة ، لأن نذيراً يتعامل مع اللوحة بصدق كما يتعامل مع احساسه بصدق .

● ان موضوع الفكر عنده ، وتحميل اللوحة المضمون الفلسفي الاسطوري البعيد أرهق



وجه عربي　　عبد المنان شما

بعض اللوحات من الناحية التشكيلية وخاصة في لوحته « انتظار ساعة التنفيذ » حيث كانت معالجة لجسم الرجل تتناقض مع البعد النفسي الذي يريده . والدليل على ذلك ان لوحته « الطفل التائه » كانت اروع لوحاته من حيث الحس اللوني والحلول التشكيلية وأبسطها من حيث المفهوم الجدلي الفلسفي .

اتصور ان الفن هو دفقة حس صادقة ، فاذا ماانظمت هذه الدفقة وخطط لها فكرية فقدت قيمتها كدفقة حس صادقة .

## معرض الفنان عبد المنان شما (المركز الثقافي العربي)

لاول مرة نلتقي باعمال هذا الفنان بعد دراسة في موسكو استمرت سبع سنوات ، عاش مع زميله الفنان [illegible] الشايب بيئة واحدة .. وظروفاً متشابهة .

وجاءت تجاربهما متقاربة من حيث المفاهيم العامة ، ومختلفة من حيث المعالجة التقنية .

ان عبد المنان درس الفسيفساء في اول وجوده في موسكو ، وتأثر بالطابع العام الذي يميز هذا الفن في طريقة تحليل الظل والنور ، والبعد الثالث جاءت اعماله تميل الى الطريقة الزخرفية ، بحيث يفرز كل درجة من درجات اللون لوحدها بشكل واضح ، كأنها تحضر لترصف بأحجار الفسيفساء حتى في تحليله للوجوه فانه اتبع هذه الطريقة وبألوان صافية غير مركبة .

ARCHIVE archive.sakhrit.co

وقد ركز على الخط تركيزاً واضحا في جميع رسومه ، وهذا الخط كان جزءاً هاما من لوحاته وخاصة عن الريف السوري من دبكة . . وغيرها.

ان الفنان درس ايضا الفريسك وفن ( البانو الديكوراتيف ) أي الفن الزخرفي الجداري . . وهذا النوع من الفن يعتمد بالدرجة الأولى على فهم عملي في التكوين ، والسيطرة على المساحة الكبيرة ، واما اللون فغالبا مايكون في حدود الموضوع المعالج دون محاولة ايجاد لون خاص به.

وقد قدم كنماذج من هذه التجربة لوحته « حاملات الجرار » ولوحته « دبكة من سورية » اما عن الناظر فانه يملك حساسية خاصة تجاه الطبيعة ، وخاصة في اللون البنفسجي ، اما اللون الأبيض فان ابعاده لم تتبلور عنده ، بعد ، فالقريب والبعيد في اللون الابيض يكاد يكون واحداً وخاصة في لوحاته عن الثلج .

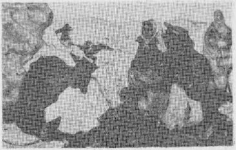
ثمة لوحة واحدة اتصور ان منها سينطلق عبد المنان في تجربته الجديدة بعد الدراسة وهي لوحة ( منزل الفنان فاسنيتوف ) ، لان فيها بوادر لون جديد خاص به ، وعلاقات تشكيلية متماسكة واسلوباً تقنياً منبسطاً يمهد الى فهم جديد للشكل واطلاق لحرية اللون الشخصية بعيداً عن تأثير تعاليم المدرسة السوفييتية بالالوان .

ان الطابع العام المسيطر على أكثر اعماله طابع زخرفي ملون « نتيجة تأثره بمفهوم الفسيفساء » كلون وكمعالجة تقنية .

## ● معرض الفنان ميلاد الشايب ( المركز الثقافي العربي )

بعد التجارب الفنية الكثيرة التي قدمها لنا الفنانون السوريون اثناء دراساتهم في الخارج او بعد تخرجهم ، صرنا نتشوق الى من يرسم على الاصول الاكاديمية بقوة ومهارة ، وخاصة في دراسة التشريح والاحاطة بكل خفاياه المعقدة ، لنكسب فناناً له خبرة خاصة في هذا المجال .

اذ ان فهم التشريح والتمكن في دراسة جسم الانسان أمر هام جداً يفيد الى حد بعيد في تدريس مادة الفن ، فاكثر الفنانين يهملون



احدى لوحات مشروع التخرج عن سورية العربية

للفنان ميلاد الشايب

مشاكل التشريح ويتجاوزونها بحثا عن قيم اخرى كاللون والخط والتكوين والملمس .

وبعد ان قدم الفنان ميلاد الشايب معرضه الاول هذا فوجىء الجمهور باعمال لم يسبق ان عرضت من قبل ، اللهم الا عندما اقيم في دمشق معرض الفن الروماني المعاصر .. ومعرض الفن السوفيتي المعاصر .

ان الملاحظ في هذا المعرض ان اكثر رواده — وخاصة من طـلاب الفنون والمتطلعين الى اصول الفن الاكاديمي — كانوا يقفون طويلاً امام اللوحات ، ويجدون امامهم فنانا مخلصا لتعاليم الكلية ، مخلصا لدراسته ، وفيا لاستاذه ، جديا في عمله ، وخاصة اعمال القلم الرصاص التي تبدو فيها الى اي مدى استطاع الفنان ان يحرق اعصابه ويتتبع الشكل الذي امامه ، بكل ما يشكله من رسم دقيق .. ومن ظل ونور وفورم وكتلة وتماسك ، ونسب سليمه ، ليقدم لوحة دراسية ناجحة باصعب خامة للرسم .. وهي القلم الرصاص.

فالقلم الرصاص كما هو معروف هو المحك الحقيقي للطالب في الكلية ، وامامـه تتكشف امكانياته الحقيقية كفنان يفهم الشكل ويحاول ان يسيطر عليه بخطوط القلم المتجمعة ، الخط الى جانب الخط الآخر ، باسلوب تصويري من اجل البحث عن الظل الذي يؤكد الكتلة البنائية للشكل .

ويمكن لتسهيل الرؤية ان نقسم اعماله الى ثلاثة اقسام :

● القسم الاول : دراسات قلم الرصاص ، وهي بالواقع تدل على خبرة واعية وجدية واضحة في فهمه للدراسة الاكاديمية ، واخلاصه لتعاليم الكلية ، وخاصة الاجزاء التي قدمها في اوضاع صعبة وحركات غير طبيعية مثل « العاري من الظهر » او دراسته لموديلين بالقلم الرصاص بآن واحد . ولا يستطيع ان يقدر قيمة هذه الدراسات الا الذي درس في كلية ومارس نفس هذه التجربة .

● القسم الثاني: التكوينات ( اي المواضيع الملمة ) . وهذه قدمها بالالوان الزيتية التي تمثل اللون الرمادي نتيجة تأثره سبع سنوات في كلية الفنون في موسكو ، واكثر هذه التكوينات كانت في الكلية يدرس من خلالها اسس الفن الاكاديمي السوفيتي ، لذلك يلاحظ اثر المدرسة الروسية في الرسم : وفي تحديد الحركة ، وفي توزيع الالوان .

وهذه المدرسة هي الواقعية ، وان الفنان ميلاد كان اميناً في تقديمها ومخلصاً في التمسك بتقاليدها ، ومما لاشك فيه ان الفنان ميلاد لا يهمل في اللوحة حتى الاجزاء الصغيرة وهذا يوضح ان له صبراً خاصاً في التنفيذ .

القسم الثالث : المناظر : وله تجارب عديدة في هذا المضمار كلها من الجو السوفيتي الذي عاشه هناك ، اما الزوايا وحلول التكوينات التشكيلية مثل لوحتيه ( عند الخياطة ) و( دراسة لنموذجين ) فيها حلول دراسية وزوايا فوتوغرافية ذكية وخاصة في فكرة الايهام بالمنظور والبعد الثالث ، وهو بهـذا قد استفاد من اسس المدرسة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التأثيرية واخـــذ منهـــا الناحية التقنيـــة ووضعها بلمسات متتالية واثقة من خلال مفهوم المدرسة الواقعية ( اي المحافظة على الواقع كما هو ) .

اما ماذا نتصور ان يكون الفنان ميلاد بعد سنة اوسنتين فهذا امر متروك له .. ولاحساسه الجديد بالبيئة العربية السورية ، خاصة وانه من معلولا .. هذه البلدة الموحية التي كانت مصدر الهام لجميع الفنانين السوريين والفنانين الاجانب الذين زاروا سورية . حيث اللون الدافىء .. والشمس الصافية .. والطبيعة الغنية بالحركة والحياة مع الانسان العربي باصالته وعمقه .

## معرض الفنون التطبيقية

### ( مركز الفنون التطبيقية )

لم يقدم هذا المركز شيئاً جديداً ، ولم يضف الى ماسبق وقدمه في المعارض الماضية شيئاً جديداً ..

كل ماقدمه في معرضه الرابع هو اعمال الطلاب والطالبات خلال دورة مدتها ستة اشهر فقط .. والاعمال هي .. هي لم يطرأ عليها تطور يذكر ..

لماذا ؟

**اولاً** : ان الاعمال التي قدمت في المعرض معظمها كانت ملكاً للطلبة بمعنى ان المواد الاولية قدمت على نفقة الطالب المنتسب الى المركز ، وهذه الاعمال صممت ونفذت من قبل الطالب على امل ان يبيعها او ان يحتفظ بها كذكرى له في منزله. لذلك كانت تكراراً من حيث التصاميم لما سبق وقدمه المركز عند بدء الدورة .

**ثانياً** : امكانيات المركز المادية قليلة جداً بالنسبة لعدد طلابه واساتذته والاسم الذي يحمله لذلك نجد الانتاج ضعيفاً وعاديا .

**ثالثاً** : افتقـــار المركز الى مدرس خاص للفن العربي والزخارف العربية الاسلامية ، لذلك نجد ان المنتسبين الى المركز يرسمون وحدات زخرفية لامعنى لها .. ولا قيمة ، الا مانذر عندما ينفذون زخارف اسلامية منقولة في اعمال الضغط على النحاس.

ان مركزاً من هذا النوع - وخاصة وان الوزارة تعلق عليه آمالاً كبيرة بحاجة الى تطوير والى تشجيع والى دعم ادبي ومادي دائمين، خاصة وانه مقدم على تعليم وانتاج اهم فن تطبيقي حقيقي في بلادنا وهو الخزف ، والخزف اصله من بلادنا .. ونبعه من ارضنا . ثم يأتي تعليم الصب بالبرونز بحيث يصبح مركز الفنون التطبيقية متمماً لقسم النحت في كلية الفنون الجميلة ، يتخرج الطالب من الكلية لينتسب الى المركز ويصب كل اعماله في النحت بالبرونز .

ان جهوداً حقيقية تبذل بصدق واخلاص في هذا المركز وخاصة من الاساتذة والطلاب ولكن هذا وحده لايكفي ، فبين الرعاية والتشجيع ، ومساعدة الطلاب باقتناء بعض انتاجهم الجيد هو الخطوة التالية لتقدم وتطوير المركز .

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

• افتتح المؤتمر الأول للمراكز الثقافية العربية في الجمهورية العربية السورية صباح يوم السبت ٩ تشرين الأول الماضي في القاعة الشامية في المتحف الوطني بدمشق، بكلمة الأستاذ سليمان الخش وزير الاعلام وزير الثقافة والارشاد القومي بالوكالة، وتلاها حديث الدكتور يوسف شقرا الأمين العام لوزارة الثقافة والارشاد القومي وحديث الأستاذ عبد الهادي هاشم الأمين العام المساعد للشؤون الثقافية، وفي مساء اليوم نفسه القى الاستاذ فؤاد الشايب مدير الارشاد القومي بحثاً عن توعية الشعب. وفي اليوم التالي قدم الاستاذ ناظم الحافظ مدير الشؤون الادارية والقانونية بحثاً عن الشؤون الادارية. وفي مساء الاثنين قدم الاستاذ هشام حداد مدير المكتبات حديثاً عن المكتبات، وفي مساء الثلاثاء قدم الدكتور عفيف بهنسي مدير الفنون التشكيلية والتطبيقية بحثاً عن الفنون الجميلة كما قدم الاستاذ كامل قدسي مدير المسارح والموسيقى بحثاً عن الفنون المسرحية. أما يوم الاربعاء فقد القى الأستاذ أديب اللجمي مدير الثقافة الشعبية والنشاط الثقافي بحثاً عن الثقافة الشعبية. وعرضت بعد الظهر تقارير المراكز الثقافية ومقترحاتها. واشترك ٣٦ مسؤولاً عن المراكز الثقافية في الجمهورية العربية السورية في مناقشة هذه البحوث واختتم المؤتمر يوم الخميس ١٤ تشرين الاول الماضي، بعد تلخيص المناقشات وقراءة ما استقر الرأي على اتفاقه من المقترحات.

والجدير بالتنويه ان وزارة الثقافة تعقد هذا المؤتمر على نطاق واسع لأول مرة. وستتبعه اجراءات وتدابير فعالة لتنشيط اعمال المراكز الثقافية، وأجهزة الوزارة المتصلة بها.

• القى الأستاذ الفريد كوريلا تشيرشيس

أكاديمية الفنون الجميلة ببرلين الشرقية محاضرة باللغة الفرنسية موضوعها ( الثقافة في المجتمع الصناعي ، وذلك في المركز الثقافي العربي بدمشق في تشرين الأول الماضي . استمع الى هذه المحاضرة التي دعا اليها السيد وزير الثقافة والارشاد القومي جمهور من المثقفين .

● افتتحت وزارة الثقافة والارشاد القومي في تشرين الأول الماضي في المركز الثقافي العربي بدمشق ، معرض الرسم للأستاذ ميلاد الشايب ( ماجستر في الفنون الجميلة ) .

● افتتحت وزارة الثقافة والارشاد القومي معرض فن التصوير الفوتوغرافي الصيني في تشرين الأول الماضي في المركز الثقافي العربي بدمشق .

● افتتحت وزارة الثقافة والارشاد القومي الموسم الجديد للمسرح القومي في ١٥ تشرين الأول الماضي بمسرحية (موتى بلا قبور) للفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر وذلك على مسرح أبي خليل القباني . كما قدم المسرح القومي في الشهر نفسه رواية ( لكل حقيقته ) للكاتب الايطالي لويجي بيرانداو .

● مايزال مسرح العرائس يقدم رواياته للأطفال في محافظة دمشق ضمن البرنامج الذي أعدته له وزارة الثقافة والارشاد القومي .

● ألقى الدكتور هورست كالتجل محاضرة باللغة الانكليزية موضوعها ( الشرق الادنى القديم في متاحف برلين ) ، وذلك في قاعة المحاضرات في المتحف الوطني بدمشق في تشرين الأول الماضي . وقد رافق المحاضرة عرض صور بالفانوس السحري .

● ألقى الدكتور حسن صعب الأستاذ في الجامعة اللبنانية ببيروت في الشهر الماضي محاضرة موضوعها ( المشكلات الكبرى في عالم اليوم ) على مدرج جامعة دمشق ، وذلك ضمن الموسم الثقافي الذي أعدته وزارة الثقافة والارشاد القومي .

● منحت جائزة ( حوار ) الادبية لهذا العام للدكتور يوسف ادريس الأديب الذي اشتهر بمجموعاته القصصية ومسرحياته . قيمة الجائزة عشرة آلاف ليرة لبنانية . كان بين المحكمين المرحوم الدكتور محمد مندور والدكتور بطرس غالي .

● من مؤلفات يوسف ادريس :

| | |
|---|---|
| جمهورية فرحات | ( مجموعة قصص ) |
| « أرخص ليالي » | ( مجموعة قصص ) |
| الحرام | ( رواية ) |
| العيب | ( رواية ) |
| اللحظة الحرجة | ( مسرحية ) |
| الفرافير | ( مسرحية ) |

● افتتحت وزارة الثقافة والارشاد القومي في الشهر الماضي معرض الرسم الذي اقامته جمعية أصدقاء الفن في قاعة المركز الثقافي العربي بدمشق . يختتم المعرض في اليوم الثاني من الشهر الحالي .